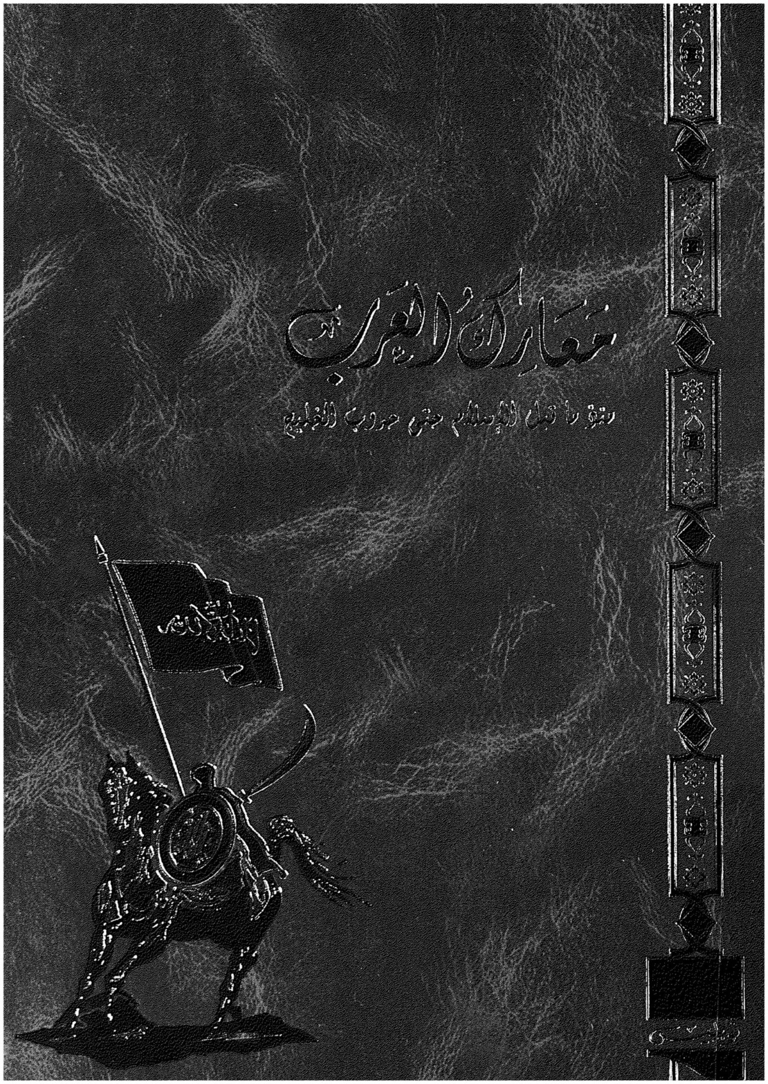

معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 7

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الفتوحات الكبرى (4) – العرب في المغرب والأندلس
المؤلف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	336
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا
دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (7)

الفتوحات الكبرى (4)

العرب في المغرب والأندلس

NOBILIS
2007

المقدّمة

تمرّ في التاريخ العالمي أحداث تغيّر المفاهيم وتقلب المعادلات وتكون لها نتائج طويلة الأمد وبالغة التأثير، وتمهّد لمراحل جديدة من التفاعلات بين الشعوب، وتبدّل في ديموغرافية المناطق وتطبعها بطابع جديد.

من هذه الأحداث المهمة ظهور النبي العربي محمد ﷺ وهدايته القبائل العربية إلى الديانة السماوية، أي الإسلام، وتوحيده كلمة هذه القبائل التي لم يكن يجمعها جامع، بل كانت تفرّقها العصبيّات المختلفة، والتي سادت تاريخها صراعات، ليس فقط على المراعي والمياه، وإنما أيضاً على القضايا الاجتماعية والقبلية، وحتى الشعرية والأدبية. لقد وحّد النبي محمد ﷺ المجموعات العربية البدوية التي اعتادت شظف العيش والصبر على المكاره والشدائد، وقادها إلى النصر في حملات هدفت أولاً إلى نشر الدين الإسلامي لدى القبائل والمجموعات الوثنية، ثم إلى تقويض أركان الإمبراطوريات التي اعترضت خطته هذه.

وتمكّن العرب خلال مدة وجيزة لا تتعدّى السنين العشر، بقيادة النبي محمد ﷺ والخلفاء الراشدين، من إنهاء سيطرة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية على الشرق الأدنى، والقيام بما سمي «الفتوحات الكبرى»، والسيطرة على لبنان وسوريا وفلسطين والعراق والأردن ومصر، علاوة على شبه الجزيرة العربية. كما حوّلوا شعوب هذه المناطق إلى شعوب إسلامية تتبع الدين الجديد الذي نادى به رسول الله ﷺ.

لقد حيّرت هذه الفتوحات السريعة العلماء والمؤرّخين، لا سيما أن المقاتلين الذين قاموا بها قد تعوّدوا الحرب السريعة والكرّ والفرّ والغزوات القصيرة، ولم يمارسوا قطعاً استراتيجية الإقامة الدائمة في أي منطقة من المناطق المُتَنازع عليها. فالقبائل العربية التي حارب بعضها البعض الآخر حروباً خاطفة دُعِيت «أيام العرب»، كانت حروبها أشبه بعمليات مؤقتة للأخذ بالثأر أو السيطرة على مراعٍ وواحات لا تلبث أن تجلو عنها وتعود إلى مناطق إقامتها الصحراوية.

وتساءل المؤرخون:

كيف تمكّنت جموع صحراوية، تفرّقها العصبية القَبَلية والمناطقية والعائلية، من الاتحاد والقيام بحروب نظامية على كامل بقعة الشرق الأدنى الجغرافية؛ الأمر الذي يتطلب تنسيقه علماً بالاستراتيجية العامة والعسكرية؟

وكيف تمكنت من إنهاء إمبراطوريتين يعود تاريخهما إلى أكثر من ألف سنة؟ وتحويل الفتح إلى إقامة دائمة؟ وطبع المناطق المفتتحة بالطابع العربي والإسلامي؟

كما تساءل البعض:

كيف تمكّنت هذه القبائل من إدارة المناطق الواسعة التي سيطرت عليها والتي تقطنها شعوب عريقة في الحضارة، ومتجذّرة في التاريخ؟

رغم أن هذه الإدارة تفرض معرفة واسعة في عالم الأعمال، لم تكن تمتلكها الشعوب الصحراوية التي اعتادت الحياة القَبَلية المقتصرة أعمالها على الرعي والحرب؟

ردّاً على هذه التساؤلات، رأى البعض أن السبب يعود إلى الحماس الديني والرغبة في نشر معرفة الله والحق والرسالة السماوية التي جاء بها النبي العربي ﷺ. ومنهم من اعتبر السبب روح البداوة والفروسية والشهامة الجاهلية وقوة التحمّل والصبر على الشدائد. ومنهم من رأى أن الأسباب الاقتصادية هي التي ساهمت في الفتح بعد أن سيطر العرب الخارجون من الصحراء الجدباء على مناطق بلاد ما بين النهرين وسواحل البحر المتوسط الشرقية التي تُعتبر من أخصب المناطق في العالم.

إنما، ومهما يكن السبب، فإن قيام الدولة الأموية في بلاد الشام وانتقال الزعامة العربية السياسية من الحجاز إلى سوريا، بما في ذلك من قيام الجيوش وتعبئتها وتنظيم الإدارة الجديدة باستعمال الموظفين المحليين الذين سبق وتمرسوا بهذا العمل تحت لواء الحكمَيّن البيزنطي والفارسي؛ كل ذلك ساهم في تحويل الفتح إلى إقامة دائمة. وطبع الشعوب بالطابع الإسلامي، وثبّت السيطرة العسكرية القوية على منطقة الشرق الأدنى.

وبعد فتح إقليم مصر على يد عمرو بن العاص واكتمال أركان الدولة الأموية وتمدّدها من حدود الهند وباكستان شرقاً إلى مصر غرباً وحتى آسيا الصغرى شمالاً، تطلع الخلفاء إلى شمال أفريقيا حيث كانت تقطن قبائل بدوية وحضرية أطلق عليها العرب اسم «البربر» لا يجمعها أي جامع. كما تنتشر بين سكانها مفاهيم بدوية وقَبَلية تتناسب، نوعاً ما، مع مفاهيم القبائل العربية وأفكارها.

وبعد تعثّر مشروع فتح القسطنطينية من قبل الجيوش العربية بقيادة زياد بن معاوية ومسلمة بن عبد الملك. وبعد انتشار الوحدات العربية في شمال أفريقيا وصولاً إلى المغرب الأقصى وموريتانيا، سيطرت هذه الجيوش على مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق لاحقاً) الذي يفصل أوروبا عن أفريقيا. وهكذا تطلعت أنظار الفاتحين الجدد إلى أسبانيا، لأسباب أهمها غِنَى تلك البلاد ومحاولة نشر الدين الجديد في ربوعها.

ويرى بعض المؤرخين أن فكرة احتلال أوروبا ومحاصرة القسطنطينية من الغرب، في الوقت الذي فشلت فيه محاولات فتحها من الشرق، قد راودت أفكار القادة المسلمين. وبدأت هذه الفكرة تتبلور مع نجاح طارق بن زياد وموسى بن نصير في فتح الأندلس خلال أشهر في السنة ٧١١م (٩٢هـ). وهذا ما حدا بالقيادة العربية إلى اجتياز جبال البيرينه وفتح أقاليم بلاد الغال، والتقدم شمالاً حتى مدينة بواتييه حيث نزلت بالجيوش العربية بقيادة عبد الرحمن الغافقي مصيبة كبرى في معركة بواتييه السنة ٧٣٢م (١١٤ هـ).

اعتبرت معركة بواتييه («بلاط الشهداء» كما يسميها المؤرخون المسلمون) نهاية مرحلة التمدد الإسلامي

نحو وسط وشمال أوروبا، ونهاية لمشروع فتح القسطنطينية من الغرب، رغم أن القوات الإسلامية تمكنت في مراحل لاحقة من تجاوز بواتييه شمالاً والوصول إلى مشارف باريس. وقد ساهم وقف الاندفاع الإسلامي في هذه المعركة في تنبّه أوروبا المسيحية إلى الخطر الذي بات يتهدّدها. لذلك راحت الشعوب البربرية التي تقطن أنحاء الممالك الأوروبية تعقد التحالفات برعاية البابا والبطارقة والأساقفة لرد الخطر الإسلامي المتربِّص بها بقواعده الثابتة في الأندلس.

ويرى بعض المؤرخين أنَّ الصراع على جانبي جبال البيرينه خلال هذه المرحلة، إنما هو مظهر من مظاهر الصراع ما بين حضارتين. الحضارة الأولى هي الحضارة الأوروبية الغربية المسيحية، المتمثِّلة بالملوك الإسبان (في جلّيقية وليون وأرغون وقشتالة ونافارا وبمبلونا وغيرها)، بدعم من ملوك وأمراء أوروبا لا سيما الأباطرة الميروڤنجيين والكارولنجيين في بلاد الغال، ومن البابوية ورجال الدين المسيحيين. والحضارة الثانية هي الحضارة الإسلامية الشرقية المتمثلة بالأمراء والخلفاء والملوك المسلمين وبالجيوش الإسلامية المكوّنة من العرب والبربر والموالي وغيرهم في بلاد الأندلس.

يعزّز هذا الاعتقاد أن هذا الصراع ترافق في حقبة من الزمن مع صراع آخر بين الشرق والغرب وبين المسيحية والإسلام، إنما في مكان آخر أي في الشرق الأدنى من خلال ما سمي يومذاك بـ «الحروب الصليبية». كما أن البابوات، وخلال الحروب الصليبية، أعفوا الملوك والأمراء الإسبان وحكام مقاطعات جنوب بلاد الغال وشمال إيطاليا من المشاركة في الحملات الصليبية إلى الشرق، وذلك كي يتفرّغ هؤلاء لمقاومة المد الإسلامي نحو وسط أوروبا. علاوة على ذلك، عرفت المرحلة التي تلت سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وقيام دويلات الطوائف فيها حركة عسكرية إسبانية عرفت بـ «حركة الاسترداد المسيحي لإسبانيا»، وانتهت بخروج المسلمين نهائياً من تلك البلاد.

لكل هذه المعطيات، وكوننا نرى أن مرحلة وجود العرب في الأندلس لم تكن فقط مرحلة صراع ما بين الحضارتين المذكورتين، إنما خاصة مرحلة لقاء

وتمازج وتفاعل بينهما؛ رأينا إعادة رسم خطوط هذه المرحلة المهمة في اللقاء بين الشرق والغرب.

ونحن نعتبر أن الحضارة الأندلسية التي شعّت على العالم يومذاك، ولا تزال خطوطها مرسومة في الفكر الإسلامي والعربي والأوروبي حتى اليوم، إنما كانت نتيجةً لهذا التزاوج ولهذا اللقاء. لذلك سنعمد إلى الانطلاق في دراستنا من هذا المفهوم، أي من مفهوم لقاء الحضارتين، وليس فقط من مفهوم صراعهما الذي يبقى ناقصاً إذا لم يكتمل بالنواحي الإيجابية تلك.

وإكمالاً للصورة، ولما كانت شمال أفريقيا، أو المغرب، تشكل المعبر العربي إلى الأندلس، وبما أن فتح هذه المنطقة اعتُبِر تمهيداً لفتح الأندلس، رأينا التطرُّق، ولو بإيجاز، إلى وضع شمال أفريقيا قبل الفتح، مع مراحل هذا الفتح والدول التي قامت في المغرب ولعبت دوراً في تاريخ الأندلس.

كما أننا سنتصدى للتساؤل الذي يبدو للوهلة الأولى أن تناقضات تشوبه، والمتعلق بالعوامل والأسباب التي أخّرت فتح المغرب طوال سبعين سنة وسرّعت فتح الأندلس خلال أشهر قليلة؛ وتلك التي مكّنت العرب من تحويل فتح المغرب إلى إقامة دائمة وحوّلت مناطقه إلى دول عربية إسلامية، فيما انكفأ العرب عن الأندلس رغم السيطرة عليها طوال قرون ثمانية.

الفصل الأول
التعريف ببلاد المغرب والأندلس

أولاً – المغرب

يُقصد بالمغرب مختلف بلدان شمال أفريقيا العربية والواقعة بين مصر شرقاً وجنوب المحيط الأطلسي غرباً.

أ – الجغرافيا:

اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد جغرافية المغرب. منهم من جعله يشمل بلاد شمال أفريقيا إضافة إلى الأندلس وكل الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، كصقلية وجنوب إيطاليا وجزيرَتَيْ كورسيكا وسردينيا وجزر البليارد. ومنهم من اعتبر مصر ضمن مجموعة بلاد المغرب.

لكن معظم المؤرخين اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة غرب مصر وحتى المحيط الأطلسي. لذلك عرفت الإسكندرية باسم «باب المغرب»، وجرى الاصطلاح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة وِفْقَ بُعدها أو قربها من مركز الخلافة في الشرق، وهي:

١- المغرب الأدنى: ويسمى أفريقيا، وكان يشمل تونس وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر.

٢- المغرب الأوسط: ويشمل بلاد الجزائر.

٣- المغرب الأقصى: يمتد غربي الجزائر ويفصل بينهما نهر ملوية ويعرف اليوم باسم المملكة المغربية أو مراكش.

إنما، ورغم هذا التقسيم الجغرافي، فإنّ المغرب العربي اعتُبر خلال العهود العربية والعثمانية وحدة متماسكة تجلت مظاهرها جُغْرافياً وبَشَرياً واقتِصادياً واجتِماعِياً وسِياسِياً. وهو عبارة عن شبه جزيرة جبلية شاسعة تمتد بطول نحو ٤٠٠٠ كلم، يحيط بها شمالاً البحر المتوسط، وغَرْباً المحيط الأطلسي، وجَنوباً سلسلة جبال أطلس التي تمتد من المغرب الأدنى، وتليها جَنوباً الصحراء الكبرى.

ورغم تقسيم المغرب تَقليدياً إلى المناطق المذكورة، فإن مفاهيم هذه الوحدات الجغرافية لم تكن محددة بدقة، وذلك بسبب عدم وجود حواجز طبيعية تميِّز بين حدود كل من تونس والجزائر والمغرب.

ب - الديموغرافيا:

هذه المناطق كان يقطنها سكان أصليون قبل قدوم الفتح العربي خلال مرحلة الفتوحات الكبرى التي حملت المفاهيم الاجتِماعية العربية والدين الإسلامي إلى مجمل الشرق الأدنى وشمال أفريقيا والأندلس وغرب آسيا، وطبعت هذه المناطق بطابع الدين الإسلامي. وأطلق العرب على السكان الأصليين كلمة «البربر»، كما أطلق نفس الكلمة عليهم أيضاً الرومان والإغريق. ويُعتقد أن كلمة «بربر» مشتقة من اسم صوت جاء من أن البربر يتحدثون بأصوات غير معروفة، تغلب عليها الباء والراء مما دفع للقول أنهم «يبربرون» في كلامهم. ويشبه البربر العرب لجهة النظام الاجتِماعي القَبَلي في أيام السلم والحرب، وقبائلهم كثيرة جداً.

لقد احتفظ البربر، رغم الفتح العربي، ببعض مميزاتهم، بخلاف الأعراق الأخرى التي دخلت الإسلام في الشرق كالساميين والمصريين. كما حافظوا على بعض مظاهر لغتهم الأصلية بعكس اللغات الشرقية التي أخذت العربية مكانها.(١)

ويُرجع العرب نسب البربر إلى أصول عربية سامية، ويقولون إنهم من أبناء قيس

(١) بلغ عدد المتكلمين بالبربرية: في مراكش ٣٦٪، في الجزائر ٢٥٪، في تونس ١٪. عن الدكتور صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٠.

عيلان ويقسمونهم إلى قسمين كبيرين هما:

١ - البربر البرانس: وهم المستقرون الذين يعيشون على الزراعة.

٢ - البربر البَتَرْ: وهم الرحّل سكان البادية ويعيشون على الرعي.

إلا أن الأصل للبربر هو موضوع بحاجة لإثبات وموضع جدل بين العلماء.

والملاحظ أن البربر ينقسمون فعلاً إلى بدو وحَضَر، كالعرب تماماً، إلاّ أن الفوارق بينهما هي فوارق اجتماعية واقتصادية وليست عنصرية أو عرقية لأنهم يتحدرون من عرق واحد. هذه الفوارق أدّت إلى صراع بين البدو والحَضَر استغلّه الغزاة لفتح البلاد وتوطيد نفوذهم فيها.

من أهم قبائل البتر قبيلة زِناتَهْ وتتفرع إلى: جراوة، ومغراوة، وبني يَغْرِن، وبني مرِيَن، وبين زيان، وبني وطّاس. هذه القبيلة هي الأقوى، لذلك انتشرت في مختلف أنحاء المغرب ودخلت إلى الأندلس مع الفاتحين العرب. وامتازت بسرعة حركتها في القتال من الكرّ والفرّ كالقبائل العربية تماماً.

ومن أهم قبائل البرانس: قبيلة صَنْهاجَة ولها فروع عدة. وهي التي ساندت الدولة الفاطمية وخلفتها في حكم المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر. وعرف قسم من هذه القبيلة بـ «المُلثمين» الذين أصبحوا يعرفون بالمرابطين في أوائل القرن الخامس هِجري إثر حركة إصلاح دينية. وهم خرجوا من صحراء موريتانيا إلى المغرب والأندلس بزعامة يوسف بن تاشَفين الذي انتصر على الإسبان في موقعة الزلاقة السنة ١٠٨٦م. وعرف بقايا الملثمين من صنهاجة باسم «الطوارق» وعاشوا في صحراء الجزائر الجنوبية.

وكان البربر يَدينون بأديان مختلفة مثل المسيحية التي انتشرت في المناطق الساحلية الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وانتشرت اليهودية في داخل البلاد عن طريق التجار والمُرابين. أما الوثنية فانتشرت في البوادي والجبال والصحراء. إلاّ أن هذه الديانات لم تنتشر سوى سطحياً مما دفع البربر إلى اعتناق الإسلام وأصبحوا أشد المدافعين عنه.

ج - بلاد المغرب قُبَيْل الفتح العربي:

كانت بلاد المغرب تخضع قبيل الفتح العربي للدولة البيزنطية وتمدّها بالغلال ويتولاّها حاكم عام يقيم في قرطاجة يملك السلطة المطلقة على سائر الشؤون الإدارية والمالية والقضائية. يساعده عدد كبير من المستشارين والموظفين في تحصيل الضرائب.

ولتسهيل حكم البلاد قسّمها الإمبراطور البيزنطي إلى ثلاث ولايات:

١ - أفريقيا (المغرب الأدنى).

٢ - نوميديا (المغرب الأوسط).

٣ - موريتانيا (المغرب الأقصى).

وفي السنة ٤٢ ميلادية قسمت موريتانيا إلى ولايتين:

- موريتانيا القيصرية: وتشمل الجزء الغربي من الجزائر وأهمها منطقة وهران.

- موريتانيا الطنجية: وهي عبارة عن المثلث الشمالي من المغرب الأقصى وتشمل مدن طنجة وتمودا وسلا على المحيط الأطلسي.

وربط البيزنطيون المدن بطرق معبّدة وزودوها بالحصون والأبراج والأسوار والخنادق والمحاربين للدفاع عنها. كما جعلوا في المغرب جيشاً مرابطاً يتألف من البيزنطيين والبربر والمرتزقة يقوده قائد أعلى بيزنطي يعاونه قائدان للمشاة والخيالة.

ونفّذ البربر ثورات عدة للتخلص من الحكم البيزنطي، لذلك اعتمد هؤلاء خطة ضرب البَتَر والبرانس ببعضهم البعض والتفرقة بينهما، فانتشرت الفوضى وتدهورت الثروات وانقسم السكان دِينِياً واجْتِماعياً. كل ذلك أدى إلى انْتِشار الاضطرابات والفوضى وروح التذمر من الحكم العسكري الاستبدادي. وكان ذلك عاملاً هاماً سهّل للعرب عملية فتح المغرب حيث وجد البربر فيهم خلاصاً من الجور والاستبداد، فدخلوا الإسلام وحاربوا إلى جانب العرب ضد الروم البيزنطيين.

ثانياً: الأندلس

يراد بالأندلس إسبانيا الإسلامية بصفة عامة. وكان هذا اللفظ أول الأمر يطلق على شبه جزيرة إيبيريا كلها حيث كانت كلها بيد

المسلمين. ثم أخذ مدلول اللفظ ينحسر جُغْرافِياً في الأرض التي يسيطر عليها المسلمون في شبه الجزيرة، حتى أصبح في آخر الأمر مُقْتَصَراً على مملكة غرناطة الصغيرة في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة.

وكلمة أندلس اشتقّها العرب من كلمة «واندلوس»، وهي اسم قبائل القندال الجرمانية التي استقرت في السهل الإسباني الجنوبي وأعطته اسمها. ثم جاء العرب وعرّبوا الاسم إلى «الأندلس». وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي السنة ١٤٩٢م، أطلق الإسبان اسم أندالوثيا على الولايات الجنوبية الإسبانية وتشمل اليوم ولايات قرطبة وأشبيلية وغرناطة.

لقد ترك المسلمون الذين حكموا الأندلس أكثر من ثمانية قرون آثاراً مادية وروحية وخُلُقية واضحة المعالم وخاصة في الولايات الجنوبية التي استقر فيها العرب، من العادات واللغة والموسيقى والأغاني والصفات العربية. واللغة الإسبانية تحتوي على ٤٠٠٠ كلمة عربية عدا كثير من التعابير والصِّيَغ العربية الأخرى. وما تزال عائلات إسبانية مسيحية تحمل أسماء عربية مثل بني حسن وبني أمية، كما لا تزال الأسماء العربية والمغربية للأماكن في كل ناحية من إسبانيا.

أ - الجغرافيا والحدود

كان يُقصد بلفظة إسبانيا شبه جزيرة ايبيريا بوجه عام، وتقع في جنوب غرب أوروبا ويحدها:

- شرقاً: البحر المتوسط.
- غرباً: المحيط الأطلسي.
- شمالاً: فرنسا وتفصلها عنها سلسلة جبال البيرينه (البرت) التي تتخللها ممرات هندايا في الغرب وشيرزوا في الوسط وقطالونيا في الشرق. وبالرغم من هذه الممرات ظلت إسبانيا معزولة عن بقية العالم الأوروبي.

تضاريس إسبانيا تشبه تضاريس المغرب إلى حد كبير، فيجمع بينها البحر المتوسط وجبال البيرينه في الشمال (كجبال أطلس في جنوب المغرب). وسهل الأندلس في الجنوب يقابل سهول تازاوسيو في المغرب.

ويعتبر جبـــل طارق قاعدة الوصل ما بيـن الـمـغـرب والأنـدلس، ويقع في أقصى جنوب إسبانيا ويرتفع في بعض أجزائه إلى ٤٣٨ مِـتْـراً. وكـان يسـمـى قـبـل الـفـتـح الإسلامي بأسماء عديدة: كالجبل المجوّف (اسم فينيقي)، وصخرة هرقل (اسم يوناني)، وفرضة المجاز، وجبل الفتح. أما اسمه الحالي فهو مأخوذ من اسم القائد العربي الذي فتح الأندلس طارق بن زياد.

طول المضيق البحري ٨٠ كلم، وعرضه في أضيق جهاته حوالي ١٥ كلم. وهذه المسافة التي تفصل بين المغرب والأندلس تعتبر امتداداً جُغْرافِياً وجيوستراتيجياً للجانبين. من هنا نشأ الصراع التقليدي بين الشاطئَيْن الأوروبي والإفريقي على جانبَيْ مضيق جبل طارق.

الفصل الثاني
الفتح العربي لبلاد المغرب

مقدّمة:

يُعْتَبر الفتح العربي لبلاد المغرب نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية لتصفية الإمبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام، خُصوصاً أنّ المغرب في ذلك الوقت كان ولاية من الولايات التابعة لها.

ويبدو أن سياسة التوسع العربي التي اعتمدها الأمويون في شمال أفريقيا كانت تهدف في أساسها إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الأدرياتي. وبعبارة أخرى غزو الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب، في الوقت الذي كانت الحملات متواصلة عليها من جهة الشام وآسيا الصغرى من ناحية الشرق، حيث يتسنى للمسلمين تطويق القسطنطينية والاستيلاء عليها. وقد أدرك أبعاد هذه السياسة الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني الذي اتجه، بعد هزيمته في موقعة ذات الصواري الشهيرة، للإقامة في صقلية وروما السنة ٤٢ هـ/٦٦٢م ليعمل على تقوية وسائل الدفاع في الجزء الغربي من الإمبراطورية وليحمي روما، وهي أهم من القسطنطينية بطبيعة الحال، حيث قال هو نفسه: «الحماية الأم قبل حماية البنت».

وقبل أن نتحدث عن مراحل الفتح العربي للمغرب يجدر بنا أن نتعرّف على العوامل التي أخّرت تثبيت أقدام المسلمين في المغرب حيث استغرقت عملية الفتح حوالي ٧٠ عاماً. فقد اجتمعت عوامل عديدة أهمها:

١ - صعوبة البلاد طبيعياً.

٢ - اشتداد حركة المقاومة البربرية بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على بدء العرب في الفتح بسبب إساءة رؤساء العرب إلى زعماء البربر، كما فعل عقبة بن نافع الفهري بكسيلة البثرى.

٣ - تدخل العناصر الأجنبية وخاصة البيزنطيين في مقاتلة العرب.

٤ - الأحداث التي كانت تجري في الشرق وتؤثر في حركة الفتح.

٥ - تعدد الوُلاة، إذ لا يلبث الخلفاء أن يُعيِّنوا أحد الولاة حتى يقيلوه.

٦ - عدم معرفة طريقة القتال الصحيحة (المناسبة).

فقد بدأت حملات المسلمين في شمال أفريقيا بعد استيلائهم على مصر مباشرة بقيادة عمرو بن العاص إذ قام بغزو إقليمي برقة وطرابلس السنة ٢١ هـ، لحماية حدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي.[١] وبعد أن تم له فتح طرابلس أراد أن يغزو ما وراءها من بلاد إفريقية. وقبل أن يقدم على ذلك استأذن الخليفة عمر بن الخطاب. ولكن الخليفة رفض السماح له بمواصلة التقدم غَرْباً؛ ولعل ذلك يرجع إلى خوفه من تشتّت جيوش المسلمين في صحراء واسعة فيما هي بحاجة إلى توطيد نفوذها في البلاد المفتتحة حديثاً وخصوصاً الشام ومصر.

١- معركة سبيطلة

في السنة سبع وعشرين للهجرة عزل الخليفة عثمان عمراً بن العاص عن ولاية مصر، وولّى مكانه أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأعطاه الإذن بغزو أفريقيا[٢].

وكان عمرو بن العاص أثناء ولايته على مصر يبعث السرايا لغزو بلدان شمال أفريقيا، فيغنم جنوده منها الغنائم ثم يعودون من دون أن يفتحوا أي مدينة. فلما ولّي عبد الله على ولاية مصر تابع سياسة عمرو بإرسال السرايا غرباً، ثم كتب إلى أمير

(١) إبراهيم بيضون، دكتور، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ص ٢٧.

(٢) إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٩٦، جزء ٤، ص ١٠٠٢.

المؤمنين يستأذنه المباشرة بفتح أفريقيا، ويطلب منه العون والمدد.[١]

شرع عبد الله يعدّ حملة عسكرية في الفسطاط بهدف إنجاز عمل عسكري بارز في الغرب الإفريقي استكمالاً لحركة الفتوحات التي كان سَلَفَه قد باشرها، ولإضفاء الهالة المعنوية على الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان.[٢]

بعد اكتمال الاستعدادات في أفريقيا حضرت قوّة من المدينة المنورة بقيادة الحارث بن الحكم مع عدد كبير من زعماء المدينة، وسُيّرت إلى مصر حيث انضمت إليها قوات جديدة من حامية الفسطاط، فبلغ عدد الجيش عشرين ألفاً من الخيَّالة والمشاة بقيادة عبد الله بن سعدين أبي السرح.[٣]

ولدى وصول الحملة إلى برقة انضم إليها عقبة بن نافع الفهري في من معه من المسلمين، وتابعت سيرها في اتجاه المغرب الأدنى، سالكة الطريق الساحلية أي الطريق التقليدية للغزوات. ومع بلوغها طرابلس الغرب هاجمت حاميتها البيزنطية وقضت عليها واستولت على أسلحتها ومعداتها. ثم تقدمت غرباً في محاذاة الساحل من دون التوغل في الصحراء حيث تسيطر قبائل البربر البتر المحاربة والمعادية للوجود العربي في أفريقيا.[٤]

وصلت أصداء الزحف العربي إلى حاكم أفريقيا غريغوريوس الذي كان نفوذه يمتد من طرابلس إلى طنجة ويتخذ قرطاجنّة عاصمة له، فاستنفر كل قواته حتى بلغ عدد جنوده ١٢٠ ألفاً.[٥] وحاول تحريك سكان طرابلس للثورة على الحكم العربي بغية إشغال جيش المسلمين بهذه الثورة، لكنه فشل في ذلك، فرفع الحصار الذي كان قد أقامه على المدينة.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، جزء ٢، ص ٥٩٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، جزء ٧، ص ١٤٨.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٩٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، جزء ٢، ص ٤٨٣.

(٥) ينبغي أخذ أعداد الجيوش التي جاء بها المؤرخون العرب بعين الحذر.

وصل المسلمون إلى مدينة قرطاجنّة مركز الملك جرجير،[1] وعسكروا في سهل واسع أمامها، وأخذ عبد الله يدرس طبيعة المدينة ومقدرة جيشِ البربر. ثم نظّم صفوف المسلمين ووزِع المهام عليهم استعداداً للقتال الذي بدأ بمبارزات فردية قبل أن يضغط المسلمون على البربر الذين أوشكوا على التراجع، لكنهم صمدوا أمام الهجوم.

وطالت المعركة وتكبّد فيها المسلمون خسائر جسيمة في الأرواح بسبب رجحان ميزان القوى لمصلحة البربر.

كتب ابن كثير عن معركة سبيطلة ما يأتي:[2]

«لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل في مائتي ألف. فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه. قال عبد الله بن الزبير: فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلاّنه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث من يحمي ظهري وأقصد الملك. فجهّز معي جماعة من الشجعان، قال: فأمر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه - وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك - فلما اقتربت منه أحس مني الشر ففرّ على برذونه، فلحقته فطعنته برمحي، وذففت[3] عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت. فلما رأى ذلك البربر فرقوا وفروا كفرار القطا، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً كثيرة، وسبياً عظيماً، وذلك ببلد يقال له سبيطلة - على يومين من القروان - فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن

---

(١) الملك جرجير هو غريغوريوس الذي كان العرب يطلقون عليه الاسم الأول.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٨.

(٣) ذفف عليه: أجهز عليه.

الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين».

كما كتب ابن الأثير عن المعركة نفسها ما يأتي:[1]

«وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبّر عن قبول أحدهما. وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسيّر عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجداً، ووصل إليهم، وأقام معم. ولما وصل كَثُرَ الصياح والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضده.

ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرةٍ إلى الظهر فإذا أذّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه. وشهد القتال من الغد فلم يرَ ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول: «من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي» وهو يخاف. فحضر عنده وقال له: «تأمر منادياً ينادي: «من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشدّ من عبد الله».

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: «إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم. وقد رأيتُ أنْ نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن والروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا. فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غِرّة فلعل الله ينصرنا عليهم.

فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك. فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مُسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً. فلما أذّن بالظهر هَمّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنّهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص٤٨٣ - ٤٨٤.

ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون. فكلّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً. فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير مَنْ كان مستريحاً مِنْ شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا فلم يتمكن الروم مِنْ لبس سلاحهم حتى غَشِيهُم المسلمون. وقتل جرجير قتله ابن الزبير، وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية. ونازل عبدالله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار».

وهكذا تمكن عبد الله بن الزبير من حسم المعركة لمصلحة المسلمين.

التقييم

أ - طبق المسلمون في معركة سبيطلة استراتيجية حشد القوى من مختلف الولايات تمهيداً للمعركة الفاصلة مع البيزنطيين والبربر في شمال أفريقيا.

ب - من الناحية المعنوية سيّر الخليفة مع الحملة عدداً من زعماء المدينة المنوّرة من كبار رجالات المسلمين، وذلك بهدف تحفيز جند مصر خلال المعارك المرتقبة.

من جهة أخرى كانت روح جهادية تحرك قائد الجيش العربي نحو القيام بإنجازات عسكرية مكمِّلة للفتوحات التي بدأها سلفه عمرو بن العاص.

ج - أمّن الجيش العربي حرية عمله أثناء انتقاله غرباً، إذ إنه سلك الطريق الساحلية التقليدية للغزوات، من دون أن ينحرف جنوباً ويتعرض لمعاقل أعدائه من البربر البتر في منطقة صحراوية تصعب فيها المناورة، فيما اعتادت قبائل البربر على قتال الكرّ والفرّ.

د - رغم أن ميزان القوى كان يميل إلى جانب الروم والبربر الذين تقيّدوا بمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، فإنّ تصميم العرب المسلمين على القتال وقيمة قادتهم، ونوعيّة جندهم، وحماسهم، عوّضت عن نقص العدد بالنوعية، فربحوا المعركة.

هـ - عُزّز جيش المسلمين خلال المعركة بعبد الله بن الزبير، فاعتقد الروم أنهم تلقوا تعزيزات كبيرة، ما فتّ في عضدهم.

لذلك نرى أن تتابع الجهد في المعركة يساهم في رفع معنويات الجند والحطّ من معنويات الخصم.

و - نفّذ عبدالله بن الزبير مناورة ناجحة حسمت المعركة لمصلحة المسلمين وقضت بـ:

* إبقاء مجموعة من المقاتلين احتياطاً جاهزاً للتدخل.

* إطالة مدة القتال النهاري حتى الليل بهدف إرهاق جيش الخصم.

* بعد ذلك شَنّ هجوم صاعق بالاحتياط وخرق صفوف العدو وصولاً إلى قائدهم وقتله.

هذه المناورة الجريئة أدت إلى هزيمة الروم بعد مقتل قائدهم. فقتل القائد خلال المعركة كان يؤدي غالباً إلى خسارتها.

لقد أحسن ابن الزبير تطبيق مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل)، فانتصر.

٢ - معركة ذات الصواري

وفي هذه الأثناء تحرّك أهل النوبة فهدّدوا مصر من الجنوب مما منع عبد الله بن سعد من التقدم، واضطُرّه للعودة لمحاربتهم، فعقد معاهدة مع البيزنطيين وفرض عليهم جزية كبيرة. ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً حيث عاد عبد الله بن سعد إلى قتال البيزنطيين في الموقعة المشهورة بذات الصواري التي شارك فيها أسطول الشام وانتصر المسلمون فيها انتِصاراً ساحقاً على البيزنطيين واعتبرت ذات الصواري أول موقعة بحرية يخوضها الأسطول الإسلامي ضد الأسطول البيزنطي فعلياً.

ففي السنة أربع وثلاثين للهجرة بلغ عبدالله بن سعد أنّ الروم يحشدون أسطولاً بحرياً كبيراً فيه خمسمائة سفينة لغزو الإسكندرية، فأمر بتجهيز أسطول للمسلمين وخرج لفتح «ذي الصواري».(١)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦١٩.

أ - ظروف المعركة:

من المعروف أن البحر الأبيض المتوسط خضع لسيطرة الأسطول البيزنطي مدة طويلة من الزمن حتى أصبح يُعرف بـ «بحر الروم» نظراً إلى ضخامة عدد سفن هذا الأسطول وخبرة قادته ومعرفتهم بفنون القتال البحري. لكن معركة ذات الصواري كانت فاتحة الحروب البحرية العربية التي حوّلت المتوسط إلى بحر عربي تسيطر عليه الأساطيل العربية الإسلامية.

أما أسباب اللقاء البحري فنوجزها بالآتي:

- الإيقاع بالروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر الأسطول العربي عليها.

- خشية الروم من أن يقوى الأسطول الإسلامي فيغزو القسطنطينية.

- إرادة قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة مُلكه بعد الخسائر المتتالية التي أُنزلت به.

- إرادته أيضاً خوض معركة اعتبرها رابحة.

- محاولة الروم استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها التاريخية وأهميتها الاستراتيجية.

لخّص ابن الأثير ظروف المعركة فكتب:[1]

«وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم، خرج قسطنطين بن هرقل في جمعٍ له لم تجمع الروم مثله مُذ كان الإسلام. فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس. وقرّبوا من الغد سفنهم وقرّب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشرٌ كثير،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٣.

وقتل من الروم ما لا يُحصى. وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحاً ولم ينج من الروم إلاّ الشريد».

ب - مجرى المعركة

أما مجرى المعركة، فإن قسطنطين بن هرقل كان قد توجه إلى الإسكندرية في خمسمائة مركب، فلاقاه عبد الله بن سعد من الإسكندرية بعد أن قسَّم جيشه إلى قسمين:[١]

- قسم بحري في مائتي مركب اتجه إلى منطقة ذات الصواري بقيادة ابن أبي سرح.
- قسم بري تولّى قيادته بسر بن أرطأة.

ولما تراءى الأسطول العربي لقسطنطين تأخّر في مجموعة سفن وأمر باقي الأسطول بملاقاة الأسطول العربي، فترامى الجنود بالسهام ثم بالحجارة. ثم اقتربت سفن المسلمين من سفن الروم واتفق الجانبان على ربط السفن ببعضها البعض ومتابعة القتال.[٢]

وهكذا، وبعد ربط السفن، هاجم المسلمون سفن الروم بالسيوف والخناجر، فدارت معركة انتصر فيها المسلمون وهزم الروم.

كتب ابن كثير عن المعركة ما يأتي:[٣]

«كانت غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين. وملخَّص ذلك فيما ذكره الواقدي وسيف وغيرهما أن الشام كان قد جمعها لمعاوية بن أبي سفيان لسنتين مضتا من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أحرزه غاية الحفظ وحمى حوزته. ومع هذا له في كل سنة غزوة في بلاد الروم في زمن الصيف، - ولهذا يسمون هذه الغزوة الصائفة - فيقتلون خلقاً، ويأسرون آخرين، ويفتحون حصوناً ويغنمون أموالاً ويرعبون الأعداء. فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصاب من الفرنج والبربر،

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦١٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص١٣-١٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٢-١٥٣.

ببلاد إفريقية والأندلس، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لم يُرَ مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمائة مركب، وقصدوا عبدالله بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب. فلما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبون، وبات المسلمون يقرؤون ويصلّون. فلما أصبحوا صفّ عبدالله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن. قال بعض من حضر ذلك: فأقبلوا إلينا في أمر لم ير مثله من كثرة المراكب، وعقدوا صواريها، وكانت الريح لهم وعلينا. فأرسينا ثم سكنت الريح عنا، فقلنا لهم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البرّ فمات الأعجل منا ومنكم. قال فنخروا نخرة رجل واحد وقالوا: الماء الماء. قال: فدنونا منهم وربطنا سفننا بسفنهم، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر. وضربت الأمواج في عيون تلك السفن حتى ألجأتها إلى الساحل وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم، وغلب الدم على لون الماء. وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط، وقتل منهم بشر كثير، ومن الروم أضعاف ذلك. ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهرب قسطنطين وجيشه - وقد قلوا جداً - وبه جراحات شديدة مكينة مكث حيناً يُدَاوى منها بعد ذلك. وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً».

ج - نتائج المعركة:

- كانت ذات الصواري أول معركة بحرية حاسمة يخوضها المسلمون.

- شكّلت حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء العرب المسلمين إذ أدركوا فشل خططهم لاسترداد هيبة دولتهم واسترجاع مصر والشام.

- ساهمت المعركة في فتح المسلمين جزر المتوسط قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية والباليار، وفي وصولهم إلى جنوى ومرسيليا.

- سيّر المسلمون بعد المعركة حملات بحرية وبرية لحصار القسطنطينية.

- بدأت سيطرة المسلمين على المتوسط وعكوفهم على دراسة العلوم البحرية وفنون صناعة السفن وتسليحها، وعلوم الفلك المتصلة بتسيير الأساطيل البحرية.

- أنهت ذات الصواري عصر السيادة البيزنطية على شرقي البحر المتوسط.

د - التقييم:

١ - تأتي أهمية معركة ذات الصواري من أنها، ورغم كونها المعركة البحرية الكبرى الأولى التي تخوضا الأساطيل العربية، وفّرت النصر لهذه الأساطيل التي حققت السيطرة البحرية على البحر المتوسط الشرقي.

هذه السيطرة كانت ضرورية للعرب لإكمال فتح شمال أفريقيا إذ أن خطوط مواصلات جيوشهم التي كانت تتحرك غرباً نحو المغرب الأقصى، كانت دوماً مهددة بالإنزالات البحرية التي كان ينفّذها الأسطول البيزنطي على مؤخراتهم فيهددها مُوقِعاً فيهم الهزائم.

لذلك حقّق نجاح «ذات الصواري» للقوات العربية مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل) إذ أصبحت مؤخرات جيوشهم آمنة، فاستطاعوا بذلك فتح المغرب بصورة نهائية.

٢ - من جهة أخرى، تمكّن العرب من تحقيق «حرية عملهم» خلال المعركة من خلال ربط سفنهم إلى السفن البيزنطية بالحبال. وهكذا تمكّنوا من حرمان الأساطيل البيزنطية من تفوّقها البحري ومن إمكان المناورة بالسفن التي كانوا يبرعون فيها.

لقد تحول القتال، بهذه الطريقة، قتالاً برياً بالسيوف والخناجر اعتادته القوات العربية التي سيطرت على ميدان القتال مؤمِّنَةً مبدأي الحرب، الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل)، فانتصرت في معركتها.

٣ - يمكن تشبيه معركة ذات الصواري البحرية بمعركة اليرموك البرية، كون الأولى أنهت السيادة البيزنطية البرية على بلاد الشام، والثانية أنهت سيطرة أساطيلهم على البحر المتوسط الشرقي. وبذلك حقّق العرب حرية عملهم في كامل بقعة الشرق الأدنى.

٤ - أضاع قسطنطين فرصة تفوُّق أسطوله على الأسطول العربي. فبدلاً من شنّ هجوم عام، تراجع بقسم عن الأسطول وكلّف باقي السفن بالمواجهة. بعد ذلك فقد الروم حرية المناورة البحرية وبالتالي عملهم، إذ أنهم قبلوا بربط السفن إلى بعضها البعض ومتابعة القتال بالسيوف(١)، فأبدلوا طريقة قتال معتادين عليها بطريقة أخرى يتفوّق فيها خصمهم.

٣ - متابعة الفتوحات

انشغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع ذلك من خلافات حتى استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان الذي أعاد عمراً بن العاص على ولاية مصر للمرة الثانية. ولكن عمراً لم يقم سوى بغزوات بسيطة لا أهمية لها حتى توفي السنة ٤٤ هـ/٦٦٥م. وعند ذلك ولّى على مصر معاوية بن حديج الكندي وجعل ولاية مصر تتبع الخلافة الأموية بدمشق وفصلها بذلك عن المغرب.(٢)

تقدم ابن حديج بجيوشه السنة ٤٥ هـ وأقام معسكره في القيروان، ومنها بعث السرايا إلى مراكز البيزنطيين. واستطاعت إحدى السرايا بقيادة عبد الله بن الزبير أن تفتح المدن الساحلية قابس، وبنزرت، وسوسر، حيث انهزم الأسطول البيزنطي عند الميناء الأخير. كما نجحت سرية أخرى بقيادة عبد الملك بن مروان (خليفة المستقبل) في فتح «حصن جلولاء»، وهو من أهم الحصون البيزنطية. وسار ابن حديج بنفسه على رأس أسطول فهاجم جزيرة «صقلية» السنة ٤٦ هـ/٦٦٧م، وعاد منها بالغنائم. ثم ما لبث أن عزله معاوية وعيَّن مكانه القائد التابعي المشهور عقبة بن نافع الفهري وكان من أوائل المجاهدين في المغرب حيث دخل برقة مع ابن خالته عمرو بن العاص السنة ٢٢ هـ/٦٤٣م.(٣)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢١٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣و ص ٣١١.

(٣) د. إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص ٣٧.

وكان عمره وقتذاك أربعة عشر عاماً فظل مُرابطاً هناك منذ ذلك الوقت، وشارك في معظم الغزوات. كما حارب في الصحراء الجنوبية عند فزّان وما وراءها من الواحات الجنوبية. وهكذا كان عقبة مثالاً للمرابط المجاهد وبطلاً أسطورياً.

أ - حملة عقبة بن نافع الأولى

كان أول عمل قام به عقبة بن نافع بعد توليته هو تأسيس مدينة تكون قاعدة ثابتة لجيوش المسلمين ينطلقون منها لفتح المغرب. فأنشأ مدينة «القيروان» في مكان استراتيجي بعيد عن الساحل خَوفاً من غارات البيزنطيين، وبعيدة من جوف الصحراء خَوفاً من غارات البربر، ومركزاً يحمي الطريق من مصر.(١) وبتأسيس هذه المدينة تحولت العمليات الحربية الإسلامية من مجرد غارات استكشافية إلى عمليات ثابتة ومستقرة وواسعة.

واجتذبت هذه المدينة عدَداً كبيراً من البربر الذين اعتنقوا الإسلام فنزلوها، وبذلك بدأت أول خطوة لاستعراب البربر.

وما أن تمّم عقبة بناء القيروان حتى عزله معاوية السنة ٥٥ هـ. ويبدو أنّ العزل جاء لتخوّف معاوية من أن يستقل عقبة بحكم المغرب، أو لبعض السعايات من الذين حسدوه على انتصاراته. وتولّى مكانه «أبو المهاجر دينار»(٢) وكان لا يقل عنه مهارة وخبرة، ولكن المصادر التاريخية لم توفِهِ حقّه بما يتناسب وأعماله الجليلة. فقد نجح في حسن سياسته مع البربر حيث لجأ إلى اللين والمداورة معهم واستطاع أن يستميلهم إليه. ونجح بذلك حتى أنّ زعيمهم كسيلة، وكان نَصْرانياً مُتحالِفاً مع البيزنطيين، اعتنق الإسلام، ونتج عن ذلك تحالف العرب مع البربر البرنس. وبذلك استطاع أبو المهاجر أن يجتاح المغرب الأوسط (الجزائر) وأن يحتل مدنه الساحلية

(١) الطبري، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ٥، ص٢٢٨-٢٢٩.

حتى تلمسان، فاعتبر أول قائد عربي يطأ أرض الجزائر.[1]

ب - حملة عقبة بن نافع الثانية

وفي السنة ٦٠ هـ/٦٨٠م، توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان وخلفه ابنه يزيد[2] الذي أعاد عقبة إلى ولاية إفريقيا وعزل أبا المهاجر السنة ٦٢ هـ/٦٨٢م. ولما كان عقبة يختلف في النظرة السياسية عن أبي المهاجر إذ يمتاز هو بالعنف والحماس الصوفي، بينما كان أبو المهاجر يميل إلى الموادعة، فقد استهان عقبة بقوة كسيلة وأصحابه البربر، واستهان بسياسة سَلَفِه أبي المهاجر. بل قام بوضع القيود في يدي أبي المهاجر واصطحبه معه في اكتساحه لشمال إفريقيا، وأساء لكسيلة ممّا جعله يحقد على العرب. وقد استطاع عقبة أن يزحف مسافة ألف وخمسماية ميل من القيروان إلى أغادير على المحيط الأطلسي من دون أن يجرؤ أحد على مقاومته، فكان أول من غزا المغرب من أدناه إلى أقصاه. حتى أنه اقتحم مياه المحيط الأطلسي بفرسه وقال قوله المأثور: «اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت في البلاد أقاتل مَنْ كَفَرَ بك حتى لا يعبد أحد سواك».[3]

ثم توغّل في بلاد السوس في أقصى المغرب وخاض معارك عنيفة مع البربر سقط فيها طائفة من خيرة رجاله. ويظهر أن أخباراً مزعجة أتته من إفريقيا مما جعله يرسل معظم جنوده إلى القيروان على عَجَل، وأبقى معه فئة قليلة. وهنا وَاتَتْ كسيلة الفرصة حيث أعدّ حشداً هائلاً من البربر والبيزنطيين وكمن له عند تهوذة القريبة من مدينة بسكرة الحالية حيث دارت معركة غير متكافئة قُتل فيها عقبة وأبو المهاجر وجميع من كان معهما

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣ ص ٣٢١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٥٠.

السنة ٦٤ هـ/٦٨٤م. ولا يزال موقع تهوذة يُعرف حتى الآن بسيدي عقبة جنوب قسطنطينية وبه مقام هذا الفاتح العربي الكبير.

أحدثت تلك الكارثة وقعها الأليم في نفوس العرب مما جعل قائد القيروان زهيراً بن قيس البلوي يجلو بقواته عنها إلى طرابلس (ليبيا). وما لبث أن دخل القيروان، وانسحب العرب من جميع المواقع التي فتحوها وعادوا إلى برقة. ولكن عقبة جعل من فتح العرب لإفريقيا شيئاً محتوماً، إذ أنّ التاريخ أقام الدليل المرة تلو المرة على أن مثل هذه النكسات لا تؤثر في قوة عسكرية في دور النموّ والحيوية.

وصادف أن توفي الخليفة يزيد بن معاوية في السنة التي استشهد فيها عقبة وآلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان السنة ٦٥ هـ/٦٨٥م،(١) فبادر إلى إرسال مدد لزهير بن قيس وأمره أن يستعيد القيروان وينتقم لعقبة. وكان كسيلة استبدّ بالأمر في إفريقيا، بينما تحصن البيزنطيون في قرطاجة وثبّتوا أقدامهم على السواحل التونسية. تقدم زهير في حملته التأديبية إلى القيروان السنة ٦٩ هـ/٦٨٨م. ولكن كسيلة انسحب إلى حصن يسمى «ممس» في الجنوب منها وهناك قتل كسيلة وانهزمت فلوله حتى نهر ملوية. ولكن البيزنطيين اعترضوا زهيراً في طريق عودته بقواتهم التي أنزلوها بحراً فقطعوا عنه خط الرجعة وأحاطوا بقواته فخرَّ شَهيداً مع معظم أصحابه، ليتوقف الفتح العربي مرة ثانية لسنين عدة. غير أن الخليفة عبد الملك جهز جيشاً ضخماً، يدعمه أسطول بحري، وجعل على قيادته حسّاناً بن النعمان الغساني. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ الحملة التي قام بها حسّان، والأرجح أنها بين السنتين ٧٣-٧٤ هـ - ٦٩٢-٦٩٣م، عقب انتهاء عبد الملك بن مروان من إخماد ثورة عبد الله بن الزبير وقتله السنة ٧٢ هـ.(٢)

(١) ابن الجوزي، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٣٥-١٣٧.

ج - حسان بن النعمان والكاهنة

اتّبع حسان سياسة أبي المهاجر في اصطناع البربر واستمالتهم ضد الروم ونجح في ضم البربر البرانس إليه، حيث انضموا إليه في زحفه. وعندما وصل القيروان سأل عن أي ملك عَظُمَت شوكته في المغرب الأوسط، فقيل له ملك قرطاجنة، فصمّم على قتاله، ووضع خطته القائمة على القضاء على أعدائه واحداً بعد الآخر. وبدأ بالروم، فاستولى على قرطاجنة بعد أن فرّ الروم منها إلى صقلية والأندلس، وتمكن الأسطول الإسلامي من الاستيلاء على المدن الساحلية التي أخلاها الروم. ثم تفرّغ حسان بعد ذلك لقتال البربر البتر في جبال أوراس، وكانت تقودهم امرأة داهية تُلقّب بالكاهنة. والتقى بها السنة ٧٥ هـ، في أحواز جبال أوراس عند المنطقة التي لقي بها عقبة بن نافع مصرعه. ودارت معركة رهيبة أسفرت عن هزيمة حسان ووقوع العديد من أصحابه في الأسر. وتراجع حسان إلى إقليم برقة وظل هناك مدة خمس سنين يترقّب، وبذلك خرجت إفريقيا من أيدي العرب مرة ثانية.(١)

وذكرت المصادر الإسلامية أن الكاهنة رأت أن العرب لا بدِ من أن يعودوا ثانية إلى إفريقيا، ولذلك راحت تدمّر المدن العامرة، وتحرق المزروعات، وتخرّب الحصون، وتبثّ الذعر في نفوس الأهالي من البربر البرانس والروم، مما جعل هؤلاء يفرّون إلى حسان يستنجدونه. وبذلك وَاتَتْ الفرصة لحسان ليضرب البربر البرانس بالبتر، فخرج بجيش ضخم في السنة ٨٠هـ يضم عدداً ضخماً من البربر الموالين له. وتنبّأت الكاهنة بانتصار العرب، ولذا نراها ترسل ابنيها إلى معسكر حسان وتطلب منهما الانضمام إليه، بينما خرجت هي للحرب. فالتقى بها حسان عند مدينة قابس، فهزمها وطاردها حتى قتلها السنة ٨٢هـ/٧٠١ م، عند بئر الكاهنة في جبل أوراس وسحق جيشها.(٢)

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧ ص ٣٢١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٣٧.

وفي أثناء انشغال حسان بقتال الكاهنة اغتنم البيزنطيون الفرصة ونزلوا على الساحل واسترجعوا قرطاجنة وقضوا على حاميتها العربية. فعاد إليهم حسان وشنّ هجوماً عنيفاً أجبرهم على الفرار منها في المراكب، واستردّ المدينة ثم أمر بتخريبها حتى لا يطمع البيزنطيون بها مرة أخرى. وقام بعد ذلك ببناء قاعدة بحرية على بعد ١٢ ميلاً شرقي قرطاجنة فوق تونس القديمة وكانت قرية صغيرة، فأصبحت على عهده مدينة وقاعدة وداراً لصناعة الأساطيل الإسلامية. ونقل إليها ألف أسرة من أقباط مصر كانوا خبراء في الملاحة وصناعة المراكب.

وقام حسّان بدور هام في تاريخ فتح المغرب كان له أثره العظيم، وهو تعريب الدواوين على غرار ما فعل عبد الملك بن مروان في الشام. كما قام بتنظيم الخراج وإرسال الفقهاء والعلماء إلى سائر أنحاء البلاد فنشروا الإسلام واللغة العربية في أرجاء البلاد المفتتحة حيث اعتنقت الإسلام جموع هائلة من البربر. وأخلصوا في إسلامهم، فاتخذ منهم حسان جنوداً له ووضع منهم عمالاً في المدن وخاصة ابني الكاهنة. وبذلك اعتُبر حسان أول من وضع نواة الأسطول الإسلامي المغربي وأول من أعطى المغرب طابعاً عربياً إسلامياً.

د- موسى بن نصير وإتمام فتح بلاد المغرب:

وفي أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ/٧٠٥م) عزل حسان بن النعمان، وولى التابعي المشهور موسى بن نصير،(١) فاقتدى بسياسة أبي المهاجر وحسّان في المرونة مع البربر، وأدخلهم في الجيش على نطاق واسع. وعندما وُلّي موسى كان المغرب الأوسط قد فُتح أغلبه ولم يبق سوى المغرب الأقصى، فغزاه حتى شواطئ المحيط الأطلسي ووصل إلى طنجة. وفرّ البربر من أمامه إلى أقاصي المغرب، فاكتسح المدن والبلاد شرقاً

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

وغرباً وبعث بالغنائم إلى عبد العزيز بن مروان في مصر وإلى الخليفة الوليد الذي كان شديد الإعجاب به لشجاعته وانتصاراته.[1] وقد أحدثت انتصارات موسى المتتالية هلَعاً في نفوس قبائل البربر ممّا دفع القسم الوافر منهم للانقياد له والدخول في الإسلام، فأوصى موسى بتعليمهم القرآن وتعاليم الإسلام. ثم عبر نهر «درعه» لأول مرة في تاريخ المغرب، ومن هناك أرسل حملة تأديبية إلى مدينة سجوما وعلى قيادتها أبناء عقبة بن نافع فاقتصّوا من أهلها البربر وانتقموا لأبيهم الذي استُشهِد في تهوذه وقضوا على جميع من فيها. وهكذا نجح موسى بفتح المغرب الأقصى وإخضاعه للمسلمين. ولكن مدينة سبته استعصت عليه من بين مدن المغرب لمناعتها ولوصول الإمدادات إليها من إسبانيا. وكي لا ينشغل بفتحها الذي قد يطول، أوكل أمرها إلى مولاه طارق بن زياد الذي رابط في طنجة المجاورة لها وأخَذ يحاصرها.

ولم يهمل موسى الجبهة البحرية أثناء زحفه في المغرب الأقصى، بل اهتم بدعم الأسطول لضرب القواعد البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط مثل صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، ونجح في شل الأسطول البيزنطي. وبذلك أفاد موسى من الخطأ الذي وقع فيه عقبة بن نافع قبل ذلك عندما ترك الجبهة البحرية مكشوفة أمام الأسطول البيزنطي.

لقد ساهم البربر في بناء الأسطول الإسلامي حيث نفّذوا الاتفاق المبرم معهم والذي يقضي بقطع الأشجار ونقلها إلى دور الصناعة في القواعد البحرية المغربية. ويُعتبر انخراط البربر في الجيش الإسلامي وقتالهم إلى جانب العرب حدَثاً فريداً في تطور السياسة العربية في هذه الفترة المبكرة من الفتوحات الإسلامية. فقد تجنّد البربر على نطاق واسع في الجيش الإسلامي، بينما كان العرب يَرَوْن أنَّ فنّ السياسة والحرب من صميم اختصاصهم وحدهم.

(١) ابن خلدون، كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، جزء ٧، ص ٢٥٣.

وهكذا نجد أن الفتح العزبي للمغرب يختلف عن الفتوحات الفينيقية والرومانية والبيزنطية السابقة، إذ لم يتمكن هؤلاء من تحويل المغرب إلى إقليم فينيقي أو روماني، بل ظلوا مجرد مستعمرين فقط. أما الفتح العربي فكان أقوى وأعمق أثراً، إذ نشأ عنه انتشار دين جديد ولغة جديدة وثقافة جديدة حيث اندمج المغرب في جسم الدولة العربية وصار له طابعه العربي الإسلامي منذ الفتح العربي حتى اليوم.

الفصل الثالث
الفتح الإسلامي لإسبانيا

أولاً: إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

يرجع تاريخ إسبانيا إلى عصور قديمة، وأصل سكانها مزيج من الكلت Celtes والإيبيريين. وفي القرن العاشر قبل الميلاد أسس الفينيقيون على سواحلها مستعمرات عدة. ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد أسس الإغريق بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة وأطلقوا على سواحلها اسم إيبيريا، وأطلق هذا الاسم فيما بعد على شبه الجزيرة كلها. ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجيين، فتأثّرت بتأثيرين، أحدهما أوروبي وهو التأثير الكلتي واليوناني، والآخر آسيوي إفريقي أو سامي. ثم تحوّل التأثير إلى تأثير لاتيني أوروبي عقب الغزو الروماني العام ٢٠٥ ق.م، ولكن إسبانيا لم تندمج في الجسم الروماني إلاّ عن طريق المسيحية. وعندما ضَعُفَت الدولة الرومانية الغربية، اجتاحت إسبانيا قبائل جرمانية في موجات متتابعة، حتى استقر بها القوط الغربيون في أواخر القرن الرابع الميلادي.

ثانياً: المجتمع القوطي قُبَيل الفتح الإسلامي

كان المجتمع القوطي في إسبانيا يعيش في حال ٍمن الفوضى والاضطراب، وتتحكم فيه الطبقية والتمايز البشري. وفي ذلك يقول المستشرق والمتأسبن الفرنسي الأستاذ «ليفي بروفنسال»: «إن الثلاثين سنة التي سبقت

الغزو الإسلامي، وهي السنوات العُجَاف بالنسبة لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية، تبدو لنا في الواقع غاية الفوضى والاضطراب رغم كل ما أمدتنا به المصادر الإخبارية. هذه الفترة القصيرة التي تبدأ منذ اعتزال الملك وامبا العرش السنة ٦٨٠م مشحونة كلها بالنزاع والصراع المثير للقلاقل. فمن منافسات دموية بين المرشحين للعرش، ومن ثورات محلية ومن دسائس يقوم بها النبلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التغلغل في الشؤون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل. كل ذلك كان أكثر من دليل لا يخيب، إنما يشير بوضوح إلى أن البلاد الإيبيرية كانت تُقدّم نفسها في طليعة القرن الثامن الميلادي فريسة سهلة لأي غازٍ سواء كان هذا الغازي من الشمال أو من الجنوب.

كانت البلاد مقسومة إلى إقطاعات كبيرة يعيش أصحابها في قصور شامخة منيعة ينفقون فيها أيامهم التي كانوا يقضونها منهمكين في أنواع الفسق والفجور. وكانت الزراعة في أيدي الأقنان الذين كانوا يُباعون ويشرون مع الأرض. ولم يكن للأقنان والعبيد على حد سواء أي أمل بتنشُّق نسيم الحرية في تلك البلاد. ولم يكن في إمكان أي منهم أن يقتني شيئاً يدعوه مُلكاً له، ولم يكن يستطيع أن يتزوج من دون موافقة سيده. وإذا تزوج قنٌ في مقاطعة من فتاة من مقاطعة أخرى تحتّم على الزوجين أن يوزعا أولادهما بين المالكين.

وكان في إسبانيا طائفة كبيرة من اليهود الذين كانوا يثورون على أسيادهم من الملوك والكهنة والنبلاء، إذ عاملهم هؤلاء معاملة العبيد ووزعوهم على المسيحيين، وحوّلوهم عن عقيدتهم، وحرموا عليهم الزواج من اليهوديات بل أجبروهم على الزواج من العبدة المسيحية. وبذلك أصبح المواطن الفقير، والعبد التَّعِس والقن الشقي، واليهودي المضطهد ينتظرون الخلاص من الطبقة الحاكمة. وجاء قيام الحكم الإسلامي في شمال إفريقيا ليعجّل بسقوط حكم القوط الطبقي المتفسخ، وليحرك الطبقات الفقيرة والناقمة على أسيادها. خصوصاً وأن اليهود كانوا على اتصال بأبناء جِلدتهم في بلاد

المغرب حيث وقفوا منهم على التسامح الديني الذي عاملهم به الفاتحون العرب، مما دفعهم إلى الاستعانة بالعرب لإسقاط دولة القوط. وأصبحت بلاد المغرب ملجأ للهاربين من اضطهاد القوط وعصفهم حيث استقبلهم المسلمون في صدور رحبة. وبسبب ذلك عُقد مجمع ديني في سنة ٧٩٦م ليحكم في المؤامرة التي دبّرها يهود إسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب لإسقاط الدولة القوطية والاستنجاد بالعرب. وأصدر هذا المجمع مرسوماً بمصادرة أملاك اليهود، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة، وتنشئتهم نشأة مسيحية.

كتب جرجي زيدان واصفاً مملكة القوط في إسبانيا قُبَيل الفتح العربي:(١)

«وكانت عاصمة مملكة القوط في إسبانيا في ذلك الوقت مدينة «طليطلة» على ضفاف نهر التاج في أواسط إسبانيا. وكانت طليطلة في ذلك العهد مدينة عامرة فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والأديرة. وكانت مركز الدين والسياسة، وفيها يجتمع مجمع الأساقفة كل عام ينظر في الأمور العامة.

وكان ملك الإسبان عام الفتح الملك «رودريك» والعرب يسمونه «لذريق» وهو قوطي تولى المُلْك السنة ٧٠٩م. ولم يكن من العائلة المالكة، ولكنه اختلس المُلْك اختلاساً، وترك أبناء الملك السابقين ناقمين عليه. وكانت إسبانيا تنقسم يومئذ إلى ولايات أو دوقيّات؛ يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى «الدوق» أو «الكونت» ويرجعون في أحكامهم جميعاً إلى الملك المقيم في طليطلة.

وطليطلة واقعة على أكمة مؤلفة من أكمات يحيط بها نهر التاج من كل جهاتها، إلاّ الشمال، بما يشبه حدوة الفرس تماماً. ووراء النهر من الشرق والغرب والجنوب سلسلة جبال تحجب الأفق عن أهل المدينة، وفيها مغارس الزيتون وكروم

(١) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٤، روايات تاريخ الإسلام، كتاب فتح الأندلس، ص ٦-٨.

العنب وغابات السنديان والصنوبر. وفي منتصف المدينة، الكنيسة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح جامعاً، وهي على جانب عظيم من الفخامة والمناعة. وكان الناظر إذا ألقى نظرة على أبنية طليطلة من علو شاهق تبيَّن فيها من ضروب الأبنية مزيجاً من الطرز الرومانية والطرز القوطية. وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الأخرى مغارس الفاكهة والثمار وسائر أصناف الأشجار، إذا أطل الواقف من إحدى نوافذ منازلها أشرف عليها جميعاً...

والتباغض بين الروم والقوط طبيعي لأن إسبانيا لما فتحها القوط في القرن الخامس ميلادي كانت رومانيَّة المذهب والغرض، وكل أعيانها وأكابرها من الرومان، فتسلَّط القوط عليهم قرنين وبعض قرن، ولم تتحد قلوبهم ولا تآلفت أغراضهم...

«وفي أواخر القرن السادس تولى إسبانيا ملك من القوط اسمه «ريكارد» فاتبع المذهب الكاثوليكي سنة ٥٨٧ (بدل الأريوسي)، فتبعه الأساقفة ثم الرعية، فعادت إسبانيا إلى مذهب كنيسة رومية... وصار الأساقفة أكثرهم من الرومان، وجعلوا في جملة شروط انتخاب الملك أن يكون قوطياً كاثوليكياً».

أ - الفوضى في دولة القوط:

ازدهرت طليطلة ووصلت بالتالي إسبانيا القوطية إلى الذروة، ولكنّ تكوينها كان يضم في تركيبته بذور الفوضى لأسباب عديدة منها:

١ - اختلاف في العِرْق ما بين الغزاة القوطيين والسكان الأصليين للبلاد.

٢ - اختلاف في العقيدة: القوط يدينون بالمسيحية على المذهب الأريوسي بينما السكان الأصليون يدينون بالكاثوليكية.

٣ - فساد المجتمع الإسباني الذي كان يقوم على الطبقات إذ إن القوط لم يغيّروا كثيراً في نُظُم المجتمع التي كانت سائدة في العصر الروماني عندما فتحوا إسبانيا فظلت الطبقات كما يلي:

أ - طبقة النبلاء القديمة المكوّنة من الأرستقراطية القوطية وكانت تتمتع بالغنى والنفوذ. ومنها أرباب الأموال والمناصب

وحكام الولايات والمدن وأصحاب العقارات وغيرهم.

ب - رجال الإكليروس.

ج - طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وموظفو الحكومة.

د - أهل الحرف وهم من سكان المدن والطبقة الوسطى.

هـ - طبقة المزارعين التي استمرّت تعيش حياتها المعتادة، لا بل زادت بؤساً في العهد القوطي بعد أن تقاربت واندمجت طبقة الأغنياء من الرومان مع الطبقة القوطية والأرستقراطية الحاكمة للمحافظة على مصالحها.

و - طبقة العبيد الذين كان عددهم كبيراً جداً إذ كانت طبقة الأغنياء والنبلاء تقتني منهم الآلاف وتسيء معاملتهم كأنهم جزء من ممتلكاتها. فهؤلاء لم تكن لهم حقوق يمكنهم المطالبة بها وقد يئسوا من حالهم وراحوا يترقّبون الفُرَص المؤاتية للتحرر منها.

ز - طبقة اليهود الذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في إسبانيا ويستبدون بها، لذلك اضطهدهم القوط سواء في عهدهم الأريوسي أو الكاثوليكي. وأيّدهم في ذلك المتعصّبون من رجال الدين والعامة الكاثوليك واتهموهم بالتآمر على سلامة الدولة. عند ذلك بدأ اليهود يفكرون بالتخلّص من نَيْر القوط.

والطبقة ما قبل الأخيرة تتألف من العبيد والخدم الذين لا يستغنى عنهم من باقي الطبقات الذين يستبدون بهم. ومعظم العبيد دخلوا في الرق إثر الحروب، وهم رجال أشداء لا سيما بعد أن تعوّدوا العمل وعانوا الشقاء. وهؤلاء العبيد لا ينقصون عن أسيادهم من حيث المواهب والثقافة، لكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من أسواطهم، حتى أصبحوا أَطْوَع لهم من بنانهم.

وكل ما للعبد هو لسيده، حتى أولاده، وللسيد أن يبيع العبد أو أمتعته أو أولاده من دون معارضته.

كتب جرجي زيدان عن وضع الطبقات ما يأتي:(١)

---

(١) زيدان، مرجع سابق، كتاب فتح الأندلس، ص ٦٩.

«على أن أولئك الأسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة لهم على عمل عظيم قاموا به. غير أن هذه الحرية قلّما تتميّز عن الاستعباد، فإن العبد ولو عُتِق فإنه يظل تحت أمر سيده، فإن عمل عملاً فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل، وإن أراد أن ينتقل من خدمته وَجَبَ عليه أن يرد له كل ما معه من الأسلحة أو الأثاث. ولا يعدّ ذلك العبد من زمرة الأحرار الأصليين إلاّ في الجيل الرابع من أولاده».

ب - محاولات الإصلاح:

رغم الإصلاحات في الدولة الهادفة إلى قطع جذور الاضطراب وإشاعة الاستقرار بقيت الفوضى تعمّ البلاد وتتحكم بكل مرافقها.

الإصلاحات هي:

في النصف الأول من القرن السابع اعتنق القوط الكثلكة بعد أن كانوا أريوسيين وجعلوا هذا المذهب مذهب الدولة، وذلك لتحقيق الوحدة الوطنية. وفي النصف الثاني من القرن السابع تمّ دمج القانونين القوطي والروماني بغية المزج والتزاوج بين القوط والسكان الأصليين. وشرّع هذا القانون على أن العرش هو حق لمن ينتخبه النبلاء، وليس لمن كان قائداً شجاعاً كما كان في السابق يتولاه بحدّ السيف.

ج - واقع الدولة القوطية - الإسبانية قبل الفتح العربي:

قبل ٣٠ سنة من فتح العرب للدولة القوطية وحتى سقوطها كانت تسودها الفوضى والاضطراب. فالأوضاع كانت على ما يلي:

١ - على النطاق السياسي:

إن القانون الجديد الذي جعل العرش انتخاباً من قِبَل النبلاء لم يمنع المنازعات على الرئاسة الأولى، إذ أن الملوك أخذوا ينقلون العرش لأبنائهم بالوراثة متهربين من موافقة النبلاء، مما أدّى إلى حرب أهلية أضعفت الدولة وهيّأتها لدخول العرب إليها بسهولة.

٢ - **على النطاق الديني:**

كان الصراع في البدء بين الكاثوليك والأريوسيين. ولكن عندما تغير دين الدولة وأصبح كاثوليكياً، أصبح النزاع بين الكثلكة واليهود. وقد قَوِيَ الإكليروس في الدولة فأخذوا يوجّهونها عاملين على دحر كل قوة ضدهم، دينية كانت أو سياسية. وبغية كسر شوكة اليهود الذين كان الاقتصاد في يدهم راح الإكليروس يتهمونهم بالخيانة وحياكة المؤامرات لقلب الحكم. وهذا ما أدّى إلى إضرام الضغينة في قلب اليهود ضد الدولة ذاتها والكاثوليك. وعندما وصل العرب إلى الأندلس وجدوا في اليهود خير مساعدٍ لهم ضد القوط.

٣ - **على الصعيد الاجتماعي:**

بعد اندماج القانونين القوطي والروماني وقعت الدولة من حيث لا تدري في الطبقية، حيث امتزجت طبقة الرومان الأغنياء بطبقة القوط الحاكمة، فكوّن الطرفان الأرستقراطية الحاكمة الغنيّة. كما أنّ أغلبية الشعب كانت من المزارعين فلم تفد شيئاً من هذا الامتزاج بل زادت حياتهم بؤساً، مما زاد المرارة في نفوسهم ضد أسيادهم يوماً بعد يوم فوجد العرب فيهم خير مساعد للقضاء على الدولة القوطية. فقبل سيطرة القوط كان الشعب يشكو من ضغط الرومان عليه، فلما جاء القوط توسّم أفراده فيهم الخلاص من نَيْر الرومان، فإذا هم تحت النَّيْرَيْن معاً، وقد أصبحوا أرقّاء لا حرية لهم ولا عقار ولا مال.

ثالثاً: طلائع الفتوحات الإسلامية في إسبانيا

بينما كان موسى بن نصير يحكم إفريقية، اعتلى «رودريك» عرش إسبانيا، بعد أن خلع ملكها السابق «ويتزا» المعروف في المصادر العربية بـ «غيطشة» وقتله. فانضم حاكم مدينة «سبته» إلى اللاجئين الإسبان في الاستنجاد بموسى لتحرير بلادهم من نير المغتصب.[١] لكنّ موسى لم يُقدم على

(١) د. بيضون، مرجع سابق، جزء ٧٣.

التحرّك قبل استشارة الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق، فأشار عليه أن يختبرها بالسرايا ولا يُغرّر بالمسلمين. وتنفيذاً لذلك قام موسى باستدعاء جوليان حاكم سُبته وطلب منه أن يبدأ بشنّ الغارة على بلاد رودريك ليثبت صدق تحالفه مع العرب. واستجاب جوليان للطلب وقام بغارة بحرية على الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة في مركبين، وعاد محملاً بالغنائم والأسلاب. وزيادة في الحيطة والحذر أرسل ضابطاً شاباً يدعى «طريف» لاستطلاع أحوال الساحل الجنوبي السنة ٩١ هـ/٧١٠م، حيث عَبَرَ المضيق في أربعمائة راجل ومائة فارس وأغار على المكان المعروف باسمه حتى اليوم وعاد بتقرير أثبت فيه صحة قول جوليان عن ضعف المقاومة الإسبانية. فكان ذلك إيذاناً ببدء حركة الفتح في إسبانيا، حيث جهّز موسى جيشاً من سبعة آلاف محارب بقيادة نائبه على طنجة طارق بن زياد.(١)

رابعاً: انتصارات طارق بن زياد

عَبَرَ طارق المضيق بالسفن الإسلاميّة التي كانت تنتشر في قواعدها البحرية الساحلية، بالإضافة إلى بضعة سفن قدّمها جوليان، ونزل بقواته قرب جبل الفتح الذي عرف باسمه وخلّده في السنة ٩٢هـ/٧١١م من دون أن يجد مقاومة تذكر. ثم قام ببناء سور أحاط بقواته سماه «سور العرب»، وانحدر بعد ذلك إلى الساحل واتخذ قاعدة عسكرية لحماية قواته من أي هجوم يأتيها من الجزيرة التي كان يحكمها «تدمير» أحد عمال رودريك، وهي التي تُعرف الآن باسم «الجيكراس». ويلاحظ أن موقعها قريب من ميناء سُبته على الساحل المغربي، بينما تفصلها المرتفعات عن داخل إسبانيا، ولذلك كان اختيار الموقع موفّقاً من الناحية الاستراتيجية. كما أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف بقيادة مؤسسها طريف بن مالك.(٢)

---

(١) ابن الأثيرة، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٧.
ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٤.
(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ص٧٣-٧٤.

أ - معركة وادي لكّة:

في السنة ٩٢هـ/٧١١م وقعت معركة وادي لكّة، كما يسميها ابن عذارى في كتابه «البيان المغرب»،(١) ووادي بكّة كما يدعوها ابن القوطية،(٢) بين الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد والجيش القوطي بقيادة رودريك، آخر ملوك إسبانيا قبل الفتح الإسلامي. واستمر القتال ثمانية أيام، وانتهى بهزيمة القوط.

وتأتي أهمية هذه المعركة في أنها كانت أول معركة حاسمة في مرحلة فتح الأندلس إذ فُتحت بعدها أبواب إسبانيا وجنوب فرنسا أمام التقدم العسكري الإسلامي.

١ - أرض المعركة:

جرت المعركة على شاطئ بحيرة خاندا شمال سهل سيدونيا، على مصب نهر وادي بكمة أو لكّة. وكان يفصل بين الجيشين قبل المعركة وادي البرباط.

٢ - عديد الجيشين:

كان عديد الجيش الإسلامي الذي عَبَرَ المضيق مع طارق سبعة آلاف مقاتل من البربر والموالي، وثلاثمائة من القادة العرب أبرزهم مغيث الرومي وعلقمة اللخمي وعبد الملك المعافري. عَبَرَ هؤلاء بأربع سفن، قيل إنها مراكب للتجارة بهدف عدم لفت الانتباه إليها، علاوة على بضعة سفن قدّمها جوليان القوطي حاكم سبته الذي انضمّ إلى طارق مع نفر من أتباعه.(٣)

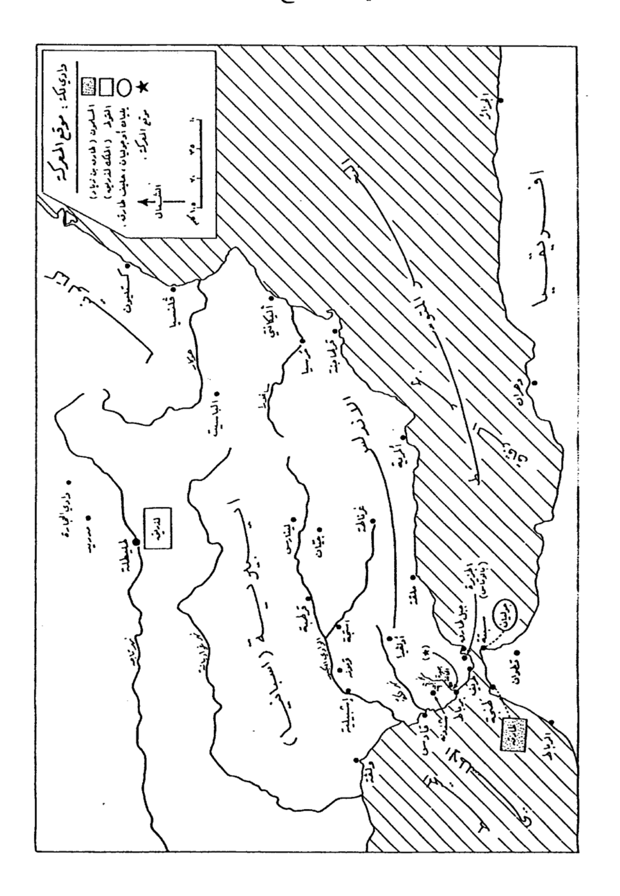
ثم عُزّز الجيش بخمسة آلاف مقاتل من البربر، فأصبح عديده اثني عشر ألفاً.(٤)

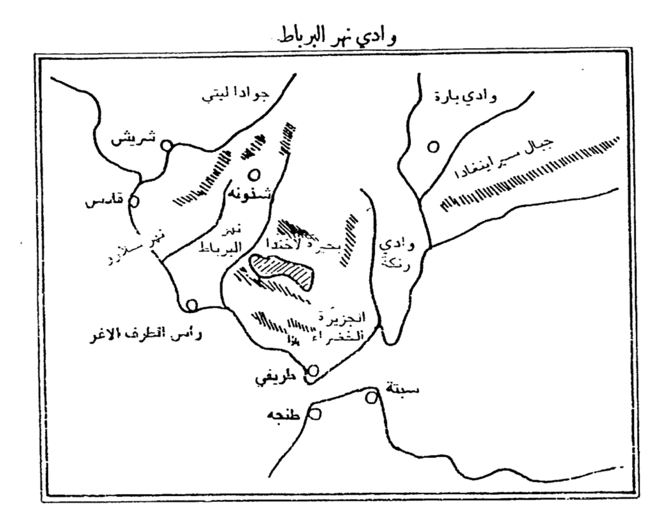
ويختلف المؤرخون حول عديد جيش رودريك الذي قيل إنه بلغ مائة ألف مقاتل، فيما قدَّره ابن خلدون بأربعين ألفاً،(٥) وابن

---

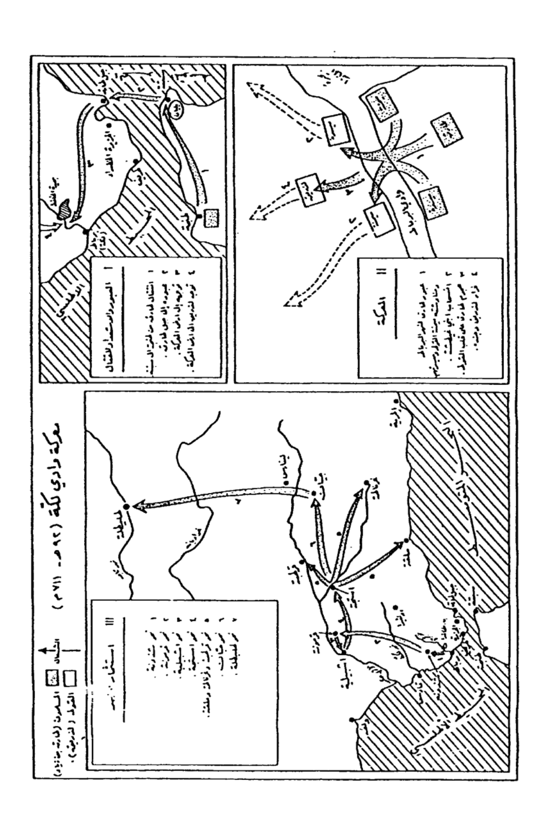
(١) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزء ٢، ص ٨.
(٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٣.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩١.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٤.

وادي لكة: موقع المعركة




وادي نهر البرباط
جوادا ليتي
وادي بارة
شريش
جبال سيرا اينغادا
شذونه
قادس
نهر البرباط
بحيرة لاخندا
وادي رنكة
الجزيرة الخضراء
رأس الطرف الاغر
طريفي
سبتة
طنجه

معركة وادي لكة (٩٢هـ - ٧١١م)



خلكان بسبعين ألفاً. وهو جيش منظم وحسن التسليح، ومجهّز بأحدث الوسائل القتالية.

٣ - وضع الجيشين:

- **الجيش العربي:**

- يحدوه الحماس الجهادي، إضافة إلى الوعد بثروات الأندلس.

- هو جيش موحَّد ويضم مقاتلين شرسين مع أفضل القادة من العرب والبربر.

- يملك معلومات دقيقة جداً عن عدوّه بفضل جوليان القوطي.

- مسلَّح بالرماح والسيوف والقسي العربية.

- **استراتيجية طارق:**

بعد اكتمال عقد جيشه، أقام طارق قاعدة حصينة عند سفح جبل الفتح وأنشأ مرفأً يصله بسُبته وسوراً أسماه «سور العرب».

ويعتقد بعض المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه بعد أن أنزل جيشه على الساحل الإسباني، ثم خطب في جنده الخطبة الشهيرة: «يا أيها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر...».[١]

لكن إحراق السفن أمر مشكوك فيه كونه يحرم الجيش الإسلامي من حرية عمله، وبالتالي يعتبر مخالفاً لمبادئ الحرب وقواعد القتال.

- **الجيش الإسباني:**

- جيش ضخم ومنظَّم وحسن التجهيز.

- موحَّد القيادة، إنما تسوده خلافات بين القادة والجند.

- في صفوفه وحدات تنتظر فرصة للانحياز إلى جانب العدو، وتشمل أنصار الملك السابق غيطشه.

٤ - مجرى المعركة:

بدأت المعركة يوم الأحد في ٢٨ رمضان السنة ٩٢هـ، ودامت ثمانية أيام.[٢]

استمرّت المناوشات بين الجيشين بالسهام طيلة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع قرّر

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٧٥-٧٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١.

طارق أخذ المبادرة بالهجوم العام بهدف رفع معنويات جنده، رغم أن ميزان القوى لم يكن لمصلحته. وهكذا عبر الجيش الإسلامي نهر البرباط إلى الضفة المقابلة وشن هجوماً صاعقاً على الجيش الإسباني، فدارت رُحَى معركة عنيفة قاتل فيها فرسان القوط بشجاعة كبيرة. واستمرت المعركة ثلاثة أيام من دون أن يظهر وَهْنٌ أو ضعف من الجانبين.(١)

وفي اليوم السابع بدأ الوهن يدب في صفوف القوط وبدأت ضربات المسلمين الموجَّهة إلى قلب الجيش الإسباني وجناحيه تشتدّ.

انحياز مجنبتي القوط إلى الجانب الإسلامي:

أمام الضغط الإسلامي المتواصل اغتنم ابنا غيطشة فرصة ظهور الوهن في صفوف جيش القوط لينفّذا الخطة المرسومة بسحب الجناحين.(٢) وكان سحب الجناحين كافياً لاضطراب صفوف قلب جيش القوط وانهيار معنويات جنوده، بعد أن انكشف وأصبح معرَّضاً للتطويق والإبادة.(٣)

بدأ جند رودريك يفرّون من المعركة والمسلمون يطاردونهم. وما إن أصبح اليوم الثامن، أي الأحد في ٥ شوال السنة ٩٢ هـ حتى كادت ساحة القتال تخلو من جند القوط، فانهزم رودريك وقيل إنه غرق في النهر أثناء فراره من المعركة.(٤)

طارد المسلمون فلول الجيش المنهزم فأوقعوا بها خسائر فادحة واستولوا على معظم الخيول، بعد أن تمزّق جيش القوط وفرّ معظمه إلى الجبال وإلى العاصمة طليطلة(٥).

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٧٧.

(٢) قيل إن الاتصال بين طارق وأبناء غيطشة حصل قبل المعركة بواسطة جوليان، ووعدهم طارق بإعادة ما سلبه رودريك منهم أي ٣٠٠٠ ضيعة. وقد اعتقد هؤلاء وأنصارهم أن العرب سيتراجعون عن بلادهم بالغنائم، وأنهم لا يريدون فتح إسبانيا واستيطانها.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٨.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١١.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٨.

٥ - نتائج المعركة:

- شحنت هذه المعركة نفوس المسلمين بالحماس واستعادوا ذكرى نصر اليرموك.

- تراجعت معنويات الإسبان.

- فتحت أبواب إسبانيا أمام التقدم الإسلامي، فأصبح تقدمهم، وِفْقَ فيليب حتي، أشبه بالنزهة.

- تأكّدت صعوبة قيام محاولة للتصدي للزحف الإسلامي، نظراً إلى عدم وجود مقاومات تذكر، باستثناء أستجة.

- وصف موسى بن نصير المعركة، في رسالة إلى الخليفة الأموي، وِفْقَ المقرّي، بقوله: «إنها ليست الفتح، ولكنها الحشر».

- بلغت خسائر المسلمين خلال المعركة ثلاثة آلاف قتيل، إذ نُقِل أن طارق وزّع الفيء على تسعة آلاف مقاتل.

- لم يسمح طارق لفلول الجيش القوطي المنهزمة بأن تلتقط أنفاسها، إذ انطلق في إثرها نحو هدفه الأساسي، طليطلة عاصمة القوط، مستثمراً بذلك انتصاره.

٦ - التقييم:

- كان اختيار مكان المعركة من أهم أسباب نجاح طارق، إذ إنه أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً التي تمتد كيلومترات عدة، وميسرته إلى وادي البرباط، ومؤخرته إلى جبال «رتينا» العالية جنوباً، فأمّن بذلك حرية عمله وحماية مؤخّرة جيشه ومجنَبَتَيْه.

- أخطأ ملك القوط باستدعاء أبناء الملك غيطشة الذي كان قد اغتاله. كما أخطأ عندما كلّف اثنين منهم بقيادة ميمنة وميسرة جيشه، الأمر الذي جعل هذا الجيش معرّضاً لانفصال جناحيه عنه، وبالتالي تعريض قلبه إلى التطويق والسحق. وهكذا خسر حرية عمله (مبدأ الحرب الثاني).

- كان المقاتل القوطي ثقيل الأحمال وغير قادر على المناورة، فيما المقاتل المسلم قادر على الحركة بخفة ونشاط.

- لوحظ عدم نشاط لدى مقاتلي القوط، فيما المقاتلون المسلمون يتحرّقون شوقاً للنزال مؤمّنين مبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

- انحازت ميمنة الجيش القوطي وميسرته إلى المسلمين خلال القتال، فكانت مفاجأة غير سارة للملك رودريك. وهذا الأمر كشف قلب جيش القوط الذي أصبح معرضاً للتطويق.

- لقد سُجِّلت خلال معارك التاريخ العسكري حالات عدة أدّى انحياز قسم من الجيش خلالها إلى جانب خصمه إلى خسارته المعركة.

- أحسن طارق بن زياد باستغلال النصر وملاحقة فلول القوط المنهزمين وعدم ترك المجال أمامهم لإعادة تجميع صفوفهم وتنفيذ عمليات لاحقة. وهكذا أمّن حرية عمله والحصيل الأقصى لوسائله (المبدأين الثاني والثالث). كما أنه أحسن استثمار نتائج معركة وادي لكّة، فقسم جيشه أربع فرق:

* الأولى بقيادة مغيث الرومي، سارت إلى قرطبة وفتحتها بعد ثلاثة أشهر من الحصار.

* الثانية اتجهت إلى مالقة وفتحتها صلحاً.

* الثالثة اتجهت إلى البيرة وغرناطة وفتحتهما.

* الرابعة، بقيادته، فتحت سيدونيا وقرمونة وأشبيلية وأستجة. واتجهت بعد ذلك إلى طليطلة عاصمة القوط حيث كبار رجالاتهم وكنوزهم ففتحتها من دون مقاومة عنيفة، وهرب سكانها منها، باستثناء أنصار الملك السابق غيطشة.

- ومن الدروس التي يمكن استخلاصها من هذه المعركة نذكر التالي:

* استعمل المسلمون أسلوب الحذر تجاه جوليان، إذ كلّفوه بإظهار حسن نيته، ففعل. وزيادة في الحذر، أرسلوا سرية استطلاع بقيادة طريف بن مالك.

* استخدم طارق أساليب المباغتة والسرعة في الانتقال ونقل الجند بالسفن التجارية على دفعات.

* كما أحسن اختيار المكان المناسب للمعركة، والزمان المناسب للمبادرة بالقتال بعد اجتياز النهر، ففاجأ خصمه وانتصر عليه.

ب – متابعة الفتوحات:

فُتحت أبواب الأندلس بعد هذا النصر العظيم فاقتحمها المسلمون وتغلبوا عليها، بحيث كاد يكون زحفهم في البلاد أشبه بنزهة – كما يقول الدكتور فيليب حتي – ففتحت مدينة سيدونيا (شذونة) أبوابها، بينما أبدت مدينة «استجه» بعض المقاومة ولكنها ما لبثت أن استسلمت لقاء شروط مرضية. وقسم طارق جيشه إلى أربع فرق سبق الحديث عن إنجازاتها. وتوجه طارق على رأس القوة الرئيسية إلى طليطلة عاصمة القوط.(1) وقد ارتاع القوط للسرعة التي تمت بها تحركات طارق ولشدة الضربات التي كان يسددها إليهم، وكان الأشراف يعرضون خضوعهم أو يفرّون من مكان إلى آخر. كذلك فرّ كبار رجال الإكليروس إلى روما، بينما لم يبقَ في المدينة سوى اليهود والفقراء الذين رحّبوا بالمسلمين واعتبروهم محرريهم من نير القوط.

وجزاءً لحسن موقف اليهود من الفاتحين، عهد طارق إليهم بإدارة المدينة مع فصيلة صغيرة من المسلمين وعلى رأسها «أوباش» شقيق الملك غيطشة.

وهكذا استطاع طارق في بضعة أشهر من السنة ٧١١م أن يقضي على مملكة القوط بأسرها وأن يحتلّ نصف إسبانيا ويصبح سيدها الأمر المُطاع.

خامساً: فتوحات موسى بن نصير في إسبانيا

أدرك موسى بن نصير أن الجبهة اتسعت أمام مولاه طارق، وأراد أيضاً أن يكون له شرف الاشتراك الفعلي في فتح اسبانيا، فقاد جيشاً كبيراً عَبَرَ به المضيق وسلك غير الطريق التي سلكها طارق، واستولى على مدن «قرمونة» و«أشبيلية» التي كانت عاصمة إسبانيا القديمة قبل غزو القوط لها، ثم مدينة «ماردة».(2)

---

(١) البلاذري، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(٢) ابن خلدون – مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٤.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٢.

وأخيراً التقى بطارق عند طليطلة. وجاء تقدم موسى ليؤمّن الجبهة الخلفية لطارق، ثم اتجه القائدان معاً إلى الشمال ففتحا «سرقسطة» و«لاردة» وبرشلونة، وأخضعا أقاليم أرغونة وقشتالة. وواصلا تقدمهما إلى الشمال الشرقي حتى وصلا إلى جبال البرانس[1] وبلغا شاطئ بحر الشمال عند حدود فرنسا الجنوبية. وتوقفا هناك وتركا المنطقة الجبلية الواقعة في الشمال الغربي (جليقية) من دون فتح، وذلك استِصْغاراً لشأن القوط الذين لجأوا إليها. وفي الواقع كانَ لإهمالهما لهذه المنطقة وعدم القضاء على الفارّين إليها، الأثر الخطير والهام في مجرى التاريخ في ما بعد. ويبدو أن ابن نصير كان يطمع في الزحف عبر الأودية نحو القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ولذلك اتجه نحو الشرق من دون أن يقوم بتغطية جيشه من الغرب. ولكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته العسكرية بسبب استدعاء الخليفة الوليد له مع طارق إلى دمشق. غير أن إهمال منطقة جليقية نتج عنه في ما بعد سقوط الأندلس حيث تربّى في تلك المنطقة الأبطال والدُّهاة والحاقدون على الدولة الإسلامية ونجحوا في توسيع الفرقة بين العرب والبربر. وانتهزوا الفرص السانحة أثناء الثورات التي كانت تحدث في الأندلس فظلوا يزحفون شيئاً فشيئاً حتى استولوا على الأندلس بعد صراع طويل امتد حوالي ثمانية قرون.

وقبل أن يعود موسى إلى دمشق اتّخذ كل التدابير اللازمة لحكم البلاد فعيّن ابنه عبد العزيز حاكماً على تلك الولاية الجديدة وجعل أشبيلية مقراً له. وعهد إلى الابن الثاني عبد الله بحكم إفريقيا، بينما وضع ابنه الأصغر عبد الملك على المغرب الأقصى، وعهد إلى أحد قادته بقيادة الأسطول وحماية السواحل وجعل طنجة مقرّه.[2]

(١) جبال البرانس: جبال البيرنية التي تشكّل الحدود بين إسبانيا وبلاد الغال.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٧٠.

وقد استطاع عبد العزيز بن موسى أن يَفتَح شرق الأندلس بعد أن كانت المقاومة قد تركزت في كورة «تدمير» (وهي الاسم القديم لمرسيه). وقد سميت هذه الكورة باسم صاحبها «تيودومير» القوطي الذي نجح في عقد معاهدة مع عبد العزيز ضمن فيها استقلاله مقابل جزية سنوية.(١)

(١) أنظر ملحق رقم ١: سيرة القائد موسى بن نصير.

ملحق رقم ١
سيرة القائد موسى بن نصير

كتب ابن كثير:[١]

«كان مولى لبني أمية، افتتح بلاد المغرب، وغَنِم منها أموالاً لا تعد ولا توصف، وله بها مقامات مشهورة هائلة. ويقال إنه كان أعرج، ويقال إنه ولد في سنة تسع عشرة، وأصله من عين التمر، وقيل إنه من أراشة من بليّ، سبي أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق، وكان اسم أبيه نصراً فصُغّر. روى عن تميم الداري، وروى عنه ابنه عبد العزيز، ويزيد بن مسروق اليحصبي. ووليّ غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص. وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين. وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فلما قُتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان. ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز.

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب. قال البغوي: وَوُلِّيَ موسى بن نصير إمرة بلاد إفريقيا سنة تسع وسبعين فافتتح بلاداً كثيرة جداً مدناً وأقاليم. وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف، فسبى منها ومن غيرها خلقاً كثيراً، وغَنِم أموالاً كثيرة جزيلة.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص١٨٤-١٨٦.

وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه، فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم، والإسبان، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة. فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة. وجاء موسى بن نصير فسلّم على الوليد وهو على المنبر، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيّده به ووسع ملكه، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة. ثم نزل فصلّى بالناس، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئاً كثيراً.

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال: ولو انقاد الناس لي لقُدْتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى. ولما قَدِم على الوليد قَدِم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا، وذلك خُمْس ما كان أصابه في آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب، وقَدِم معه من الأموال والتحف واللآلئ والجواهر ما لا يحد ولا يوصف. ولم يزل مقيماً بدمشق حتى توفي الوليد وتولى سليمان، وكان سليمان عاتباً على موسى فحبسه عنده وطالبه بأموال عظيمة. ولم يزل في يده حتى حجّ بالناس سليمان في هذه السنة وأخذه معه فمات بالمدينة، وقيل بوادي القرى، وقد جاوز الثمانين، وقيل إنه توفي في سنة تسع وتسعين والله أعلم ورحمه الله وعفا عنه بمَنّه وفضله آمين».

الفصل الرابع

سكان الأندلس بعد الفتح الإسلامي

أولاً: مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس

اصطلح المؤرخون على تقسيم الحكم الإسلامي في الأندلس إلى العصور التالية:

أ - عصر الولاة:

ويمتد من الفتح العربي إلى قيام الدولة الأموية في الأندلس (٩١-١٣٨ هـ/٧١١-٧٥٦م).

ب - عصر الدولة الأموية:

ويقسم إلى قسمين:

القسم الأول: عصر الإمارة الأموية:

(١٣٨-٣١٦ هـ/٧٥٦-٩٢٩م) وفيه كانت الأندلس إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في الشرق. وتولى الإمارة خلاله سبعة أمراء.

القسم الثاني: عصر الخلافة الأموية:

(٣٠٠-٤٢٢ هـ/٩١٢-١٠٣١م) وفيه صارت الأندلس خلافة مستقلة سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية في الشرق. وتولى الخلافة خلاله ثلاثة خلفاء.

ج - عصر ملوك الطوائف:

(٤٢٢-٤٧٩ هـ/١٠٣١-١٠٨٦م.) ويبدأ من سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات طائفية ضعيفة، وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الإسبان في موقعة الزلاقة السنة ١٠٨٦م.

د - عصر السيطرة المغربية:

(٤٧٩-٦١٢ هـ/١٠٨٦-١٢١٤م تقريباً). وفيه تحولت الأندلس إلى دويلات تابعة للمغرب في عصر المرابطين والموحدين، والعاصمة مدينة مراكش. وقد انتهى هذا العصر بهزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش الأوروبية في موقعة العقاب السنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م.

هـ - مملكة غرناطة أو عصر بني الأحمر:

(٦٢٨-٨٩٧ هـ/١٢٣١-١٤٩٢م.) انتهى هذا العصر بسقوط الأندلس في أيدي الإسبان نهائياً.

ثانياً: سكّان الأندلس بعد الفتح العربي

سكن الأندلس بعد الفتح العربي:

١ - المسلمون من العرب والبربر والموالي والمسالمة والمولدون.

٢ - العجم أو المستعربون.

٣ - اليهود.

عناصر السكان:

بعد أن تم فتح الأندلس واستقرت أقدام المسلمين في أرضها، توزعوا السكنى في ما بينهم. ثم شهدَت الأندلس في عصر الفتح تنوّعاً في العناصر السكانية من حيث الجنس، والعقيدة والثقافة. فقد ضمّت مع العرب الفاتحين الذين يعرفون بالبلديين،(١) والعرب الوافدين المعروفين بالداخلين، جماعة من الإسبان المسالمين، أي الذين دخلوا في الإسلام، والعجم الذميين أو المستعربين، وهم الذين استمرّوا على دينهم. ثم طائفة المولدين، وهم حصيلة التزاوج بين العرب والإسبان، ثم البربر، ثم طائفة اليهود.

(١) البلديين: اليمنيين الذين دخلوا مع طارق بن زياد وموسى بن نصير.

أ - المسلمون:

١ - العرب:

دخل العرب الأندلس على موجات متتابعة أو طوالع، بالإضافة إلى من هاجر إليها من أهل الشام وغيرهم من العرب على أثر انتصار طارق بن زياد على القوط في موقعة وادي لكة، ثم بعد أن استقرت أقدام المسلمين في الأندلس وانتهت عملية الفتح على يد موسى بن نصير وابنه عبد العزيز.

وكان الذين دخلوا مع موسى بن نصير من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر. وأغلب العرب من قريش واليمنيين. وقد سمي هؤلاء بالبلديين أو أهل البلد لأسبَقِيَّتهم في الدخول إليها واستقرارهم فيها حيث اعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها.

وفي السنة ١٢٤ هـ/٧٤١م، دخل الأندلس «بلج بن بشر القشيري» الذي حاصره البربر في «سبتة» بعد واقعة الأشراف وهو في ألفين من الموالي وثمانية آلاف من العرب وأغلبهم من القيسيين، وعرفوا بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين. وقد استعان بهم والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري لإخماد ثورة البربر هناك. وعندما تم ذلك بدأ النزاع بين الشاميين[١] والبلديين، ثم تحوّل هذا النزاع إلى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية.

ومن الواضح أن المناطق الخصبة في الأندلس كانت من نصيب العرب الفاتحين، حيث كوّنوا مراكز قوية للعروبة كانت نواة للأرستقراطية العربية التي ظلت متفوِّقة على غيرها من طبقات المجتمع الأندلسي حتى نهاية دولة الإسلام هناك. وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط، يمتلكون إقطاعات كبيرة يقوم على زراعتها فلاحون من الإسبان أو من المولدين. واتخذ العرب، الذين استقروا في المناطق الزراعية بعيداً عن المدن، حصوناً أو أبراجاً للاحتماء فيها. كما أقام بعضهم ضياعاً لأنفسهم سميت بأسمائهم مثل منزل همدان بالقرب من غرناطة، ومنزل طيء في مرسية.

---

(١) الشاميين: القيسيين الذين دخلوا مع بلج بعد واقعة الأشراف.

٢ - البربر:

هم الذين لعبوا دوراً هاماً في فتح الأندلس، إذ كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة في الجيش الذي قاده طارق بن زياد. وكانت انتصارات طارق الرائعة تغري البربر بالعبور إلى الأندلس والإقامة هناك طمعاً بخيراتها، وبذلك كانت بلاد المغرب مصدراً للهجرات البربرية. ويؤكد الأستاذ ليفي بروفنسال أن هؤلاء البربر استقروا جميعهم في المناطق الجبلية التي تكثر في الأندلس، لأن العرب استأثروا لأنفسهم بأكثر السهول والجهات خِصباً من جهة، ولأن البربر قدموا من بلاد جبلية وفي مقدورهم أن يستقروا في مناطق جبلية مشابهة لبيئتهم في بلاد المغرب. ولذلك نعموا في المناطق التي سكنوها بحياة استقلالية لم يخضعوا فيها للسيادة العربية.

وفي الواقع، قام جدال بين المؤرخين حول السبب الذي دعا البربر إلى أن يسكنوا الجبال. ويرى الدكتور حسين مؤنس أن «سبب استيطان البربر للجبال ليس لأن العرب استأثروا بالسهول الخصبة، أو لسوء معاملة العرب لهم»، مشيراً إلى: «إن المسلمين الأُول الذين دخلوا البلاد، عرباً وبربراً، استقرّوا حيث نزلوا أو ساروا، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي. فأمّا العرب، فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحي الدفيئة وقليلة المطر، في الجنوب والشرق والغرب، وناحية سرقسطة. وأمّا البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس فاستقرّوا فيها باختيارهم».

وقد ردّ الدكتور سيد سالم على ذلك بأن أسباب الخلاف بين العرب والبربر ترجع إلى استئثار العرب بالأراضي الخصبة من دون البربر، وقد أضمر البربر للعرب السوء وكانوا ينتظرون الفرصة المؤاتية ليثبوا عليهم. ولذلك نشبت الثورة البربرية في المناطق الشمالية من الأندلس حيث يقيم العدد الأكبر منهم، فطردوا العرب من هناك.

ونحن نرى أن البربر عندما انتقلوا إلى الأندلس نقلوا معهم موقفهم ونظرتهم إلى العرب التي كانوا ينظرون بها إليهم في بلاد المغرب. وبما أن العرب أسياد الدولة

الأموية، فقد وجدوا أنّ من حقهم الاستئثار بالأرض الخصبة. وكما كان بعض الولاة يسيئون معاملة البربر في بلاد المغرب، كما مر معنا، فإن بعض ولاة الأندلس أيضاً ارتكبوا هذا الخطأ. ومن هنا كانت ثورات البربر في الأندلس، ولجوؤهم إلى الجبال ليتخذوها حصوناً طبيعية لهم.

٣ - الموالي:

دخل منهم ألفان في جيش بلج القشيري مع ثمانية آلاف من العرب. وعندما استقرّوا في الأندلس انضمّ إليهم موالي بني أمية وأغلبهم من أهل المغرب الذين أطاعوا بني أمية. وكان قسم منهم من الشرق، فمنهم الدمشقي والأردني، والقنسريني والعراقي والفارسي. وازداد عدد هؤلاء بعد دخول بلج، بحيث أصبحوا يؤلفون طائفة قوية عرفت بالأمويين. كما ازدادت قوة الأمويين في الأندلس بعد سقوط دولة بني أمية في الشرق وفرار عدد كبير منهم إلى أفريقيا والأندلس حيث تغلبوا في أعدادهم على قوة أهل الشام عندما دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس. وقد قامت دولة بني أمية في الأندلس على أكتاف الموالي لاتحادهم والتفافهم حول عبد الرحمن الملقب بالداخل.

يضاف إلى الموالي الأمويين من العرب والبربر والفرس والروم عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا في طاعة بني أمية بعد الفتح العربي.

لقد لعب الموالي دوراً هاماً في تاريخ الأندلس في العصر الإسلامي إذ اعتمد عليهم بنو أمية، وقلّدوهم أهم مناصب الدولة، فكان منهم الوزراء والكتّاب، والقادة، والقضاة.

٤ - المسالمة:

هم جماعة الإسبان الذين دخلوا في الإسلام، وهكذا أسماهم المؤرخون العرب. فقد اعتنق عدد كبير من الإسبان الإسلام حيث جذبتهم سياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون العرب عقب الفتح. والذين ظلّوا على دينهم ما لبثوا تدريجياً أن اعتنقوا الإسلام إيماناً بعدالته وعقيدته، أو بحثاً عن مصلحة شخصية. وفي الواقع أن الفاتحين

العرب ساروا على سياسة «لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّين»،[1] التي نادى بها القرآن الكريم، فلم يكرهوا أهل إسبانيا من النصارى واليهود على ترك ديانتهم، بل دخل هؤلاء الإسلام بمحض إرادتهم. والذين بقوا على دينهم اعتبرهم المسلمون من أهل الكتاب. ويعتقد الدكتور مؤنس أن أغلب الجماعات الأولى التي أسلمت من الأسبان كانت من العبيد ورقيق الأرض، إذ كان هؤلاء يقاسون أنواع القهر الاجتماعي، فجاء الإسلام وأنقذهم من الظلم ورفع من مستواهم حينما اعتنقوه وأصبحوا على قَدَم المساواة مع العرب وغيرهم.

٥ - المولَّدون:

عندما دخل العرب والبربر إلى الأندلس كفاتحين تركوا نساءهم وأولادهم في بلادهم وأوطانهم. وعندما استقروا في الأرض الجديدة أقبلوا على مصاهرة الإسبان وتزوجوا من الإسبانيات عدداً كبيراً، إذ دخل كثير من النساء في ملك اليمين لدى المسلمين. وعندما انتقل الفاتحون بأُسَرِهم إلى الأندلس للاستيطان جاوروا الأسبان واختلطوا بهم، فأخذ الإسلام ينتشر وفي شكل هائل يفوق كل حساب. وامتزجت دماء الفاتحين بدماء أهل البلاد ونشأ بذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين. وكان عبد العزيز بن موسى أول من تزوج بإسبانية، إذ تزوج من أنجولينا أرملة لذريق، واقتدى به كثير من رجال العرب. وقد احتفظ كثير من المولدين بأسمائهم القديمة أمثال: بنو أنجلين، وبنو شبرقة وبنو الجريج وبنو لنتق وبنو القبطرنة وبنو مردنيش وبنو غُرسية وبنو رودولف.

ورغم أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم الذاتية باعتبارهم أسبانيِّي الأصل. فقد تألفت منهم جماعات كبيرة في مدن إسبانيا الهامة مثل طليطلة التي كانت أكبر مركز

(١) لا إكْرَاهَ فِي الدِّين قد تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَاغُوتِ وَيُؤْمِن بالله فقَدِ استَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصامَ لهَا وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ- سورة البقرة/٢٥٦.

لعصبيتهم المولدة. وكذلك كانت أشبيلية معقلاً من معاقلهم حيث شكلوا أكبر طائفة من سكانها. ومن الواضح أنَّهم بسبب تعصّبهم لأصلهم الإسباني، رغم إسلامهم، تحالفوا مع العجم، أو النصارى في الأندلس ضد المسلمين، عندما كانت تنشب بعض القلائل.

ب - العجم أو المستعربون:

هم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية، مع احتفاظهم بدينهم، ولذلك عرفوا بالمستعربين. وكان العرب يسمّونهم بعجم الذمة، أما من كان لهم عهد منهم فقد سُمّوا بالمعاهدين. وكان المستعربون أو العجم في الأندلس يؤلفون جمهرة سكان في البلاد في السنين الأولى التي تبعت الفتح الإسلامي. ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجياً، بينما راح عدد المسالمة يزداد يوماً بعد يوم. وما لبث المستعربون أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية في الأندلس بالنسبة إلى المسلمين والمولدين. وقد عومل هؤلاء المستعربون منذ الفتح معاملة جيدة، فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائرهم الدينية، وعاشوا إلى جانب المسلمين في أحياء خاصة بهم. وكان لهم رئيس في كل مدينة يعرف بالقومس. كما كان لهم قاضٍ نصراني يفصل في نزاعاتهم يعرف بقاضي العجم. وإذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين، فإن القاضي الذي يفصل بينهم كان مُسلِماً يُعرف بقاضي الجند، ثم سمي في ما بعد قاضي الجماعة. وبذلك طبّق المسلمون سياسة من التسامح على أهل الذمّة من النصارى، فتركوا لهم كنائسهم، باستثناء الكنائس التي قسمها المسلمون بينهم وبين النصارى وأقاموا فيها مساجد جامعة مثل جامع قرطبة ومسجد رفينة. وكانت للنصارى كنائسهم في أحيائهم الخاصة بهم في قرطبة وسرقسطة وطليطلة وأشبيلية، وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم ما كان هذا يسببه من إزعاج للمسلمين وإثارة بعض المتعصبين منهم عليهم. وظل النصارى يتمتعون بحريتهم الدينية حتى حدّ المرابطون منها وأخذوا يضطهدونهم. والمرجّح أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع حركة الاسترداد المسيحي في قلب إسبانيا

الإسلامية واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية في شمال إسبانيا. ثم ازداد اضطهادهم في عهد الموحِّدين حيث نفاهم هؤلاء إلى بلاد المغرب حتى يكونوا بعيدين عن مؤازرة الممالك المسيحية في الشمال.

لقد برزت من المستعربين شخصيات لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإسلام بالأندلس. كما نبغ منهم مترجمون قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية إلى العربية، بحكم إجادتهم للغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة. وبهذا كانوا حلقة الاتصال بين الثقافة العربية والأوروبية.

ج - اليهود:

كان عددهم كبيراً في إسبانيا، وكانوا يقومون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة. ولكنهم كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وبسبب تعاطيهم الرِّبا، ولذا تعرضوا للكثير من الاضطهاد، الأمر الذي دفعهم إلى محاولة قلب نظام الحكم عن طريق الثورة حيناً، وعن طريق المؤامرات حيناً آخر. ولما كانوا على اتصال بأبناء ملّتهم في بلاد المغرب، وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم الإسلامي، فقد دفعهم هذا إلى محاولة إسقاط الدولة القوطية والاستعانة بالعرب. ولذلك انعقد المجمع الديني المسيحي في إسبانيا السنة ٦٩٤م، للحكم في المؤامرة التي دبّرها يهود إسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب، فأصدر مرسوماً بمصادرة أملاك اليهود وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة، وتربيتهم في الأوساط المسيحية حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة مسيحية. أثار هذا القرار غضب اليهود وحنقهم على الدولة القوطية. ولذلك وقفوا إلى جانب العرب عند فتح إسبانيا، فعاملهم العرب أحسن معاملة عند دخولهم الأندلس ووثقوا بهم وعهدوا إليهم بحراسة المدن المفتتحة. وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية، وسميت لذلك بغرناطة اليهود. ولعب اليهود دوراً هاماً في نقل العلوم العربية في الأندلس فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية. ونبغ منهم كثيرون في الطب والفلسفة والفلك

والكيمياء أمثال «حسدار بن شفروط» طبيب عبد الرحمن الناصر، و«موسى بن ميمون» الفيلسوف، و«إبراهيم بن سهل الإسرائيلي» الشاعر.

وتجاوز نفوذ اليهود في عصر ملوك الطوائف الحدّ، خاصة في مملكة غرناطة، فكان لابن نغريلي الإسرائيلي كل السلطان في غرناطة.

أمام هذا الخليط العجيب من الأجناس والعناصر السكانية، ظهرت تكتُّلات عنصرية، منها تكتُّل العناصر العربية، وتكتُّل البربر، وتكتل المولدين. وبرز ذلك في جولات الصراعات التي كانت تدور بين العرب من جهة مع البربر، وبين العرب مع المولدين من جهة أخرى.

الفصل الخامس
عصر الولاة

عندما عاد موسى بن نصير إلى الشام ولّى على الأندلس ابنه عبد العزيز. ولكنّ موت موسى في الشام على نحو لا يتناسب وجهاده وفتوحاته في إسبانيا مع مولاه طارق بن زياد، ترك أثراً ما على ابنه عبد العزيز، جعله على ما يبدو عليه. ولذلك رتبوا مَنْ قتله في السنة ٩٧هـ/٧١٥م.(١) واختاروا بعده أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير،(٢) وإليه يعود الفضل في اختيار قرطبة عاصمة للأندلس. كما ينسب إليه بناء قلعة أيوب في جنوب سرقسطة شمالي إسبانيا، ولا يزال اسمه يُطلَق على مدينة القلعة المنسوبة إليه. ولكن ولايته لم تدم سوى ستة أشهر فقط إذ أن تعيينه في الأساس لم ينل موافقة حاكم إفريقيا التي كانت إسبانيا تعتبر جزءاً من إمارته. ورغم المدة القصيرة فإن أيوباً وجّه جهوده نحو الشمال لتطهير البلاد تماماً من كل مقاومة قوطية. وتولّى بعده «الحر بن عبد الرحمن الثقَفي»،(٣) فاستمرّ حتى آخر السنة ٩٩ هـ/٧١٩م، حين توفي سليمان بن عبد الملك وخَلَفه عمر بن عبد العزيز فاختار لولاية الأندلس «السمح بن مالك الخولاني». فقام السمح بأعمال عدة بارزة في الداخل والخارج.(٤)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٤.

(٢) إبن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٩٥.

أولاً: ولاية السمح بن مالك الخولاني (٧١٩م - ٧٢١م)

قام الخولاني بإصلاحات كثيرة، بدأها بعزل ولاية الأندلس عن أفريقيا، وميّز فيها أرض العنوة عن أرض الصلح، من أجل تطبيق نظام تخميس الأرض كما أمره بذلك عمر بن عبد العزيز[١]. ثم نظّم الإدارة المالية في الأندلس، وأعاد بناء سور قرطبة وقنطرتها التي تعدّ إحدى عجائب الدنيا، وكانت تصل بين قرطبة والربض الجنوبي المعروف بشقنده عبر نهر الوادي الكبير. كما أجرى إحصاءً للجنسيات والمذاهب التي كانت تقطن البلاد، وبنى المسجد الجامع في سرقسطة. أما في الخارج فإن أهم عمل قام به هو جهاده في غالة حيث جنوب فرنسا الآن. ولم تكن فرنسا حتى ذلك الحين قد أخذت شكلها السياسي الموحّد، كما أن اللغة الفرنسية لم تكن تكوّنت بعد، وكانت أراضيها انقسمت بعد سقوط الدولة الرومانية إلى دويلات مستقلة، هي:

- في الجنوب: سبتمانيا ثم أكيتانيا.
- في الشرق: ولايتا بروفانس (برغونديا) وبرغونة (برجانديا).
- في الشمال: وراء نهر اللوار، مملكة الفرنجة الميروفنجية التي تمتد شرقاً حتى تشمل ألمانيا الحالية.

بدأ السمح بالاستيلاء على أربونة عاصمة ولاية سبتمانيا، حيث طرمسكونة. ولما كانت أربونا قريبة من البحر فقد قام بتحصينها وتعزيز حاميتها، ثم زحف على طولوشة «تولوز» عاصمة دوقية أكيتانيا وحاصرها بقوة صغيرة. ولكنه، وقبل أن يتمكن من شن الهجوم الأخير عليها، وصل الدوق يودو أمير أكيتانيا على رأس جيش ضخم بحيث كانت نسبة جيش الفرنج عشرة إلى واحد بالنسبة للعرب. ورغم ذلك قاتل العرب بشجاعة نادرة، وكسر قادتهم أغماد سيوفهم تصميماً منهم على الانتصار أو الاستشهاد. ودارت معركة رهيبة استمرت سِجالاً بين الفريقين مدة طويلة، حتى سقط السمح بعد أن أصابه رمح في

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٠.

عنقه واستشهد في يوم عرفه السنة ١٠٢ هـ/٧٢١م.[1] وتولى القيادة فوراً مكانه عبد الرحمن الغافقي الذي نجح في سحب الجند من إقليم بروفانس بمهارة وشجاعة فائقَتَيْن نالتا إعجاب عدوّه، وعاد إلى أربونة التي أصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال ألبرت.[2]

ثانياً: ولاية عنبسة الكلبي (٧٢١م – ٧٢٥م).

تولّى الولاية عنبسة بن سحيم الكلبي فتابع حركة الفتح وأتم فتح إقليم سبتمانيا بمدنه الكبرى. ثم اتجه حتى بلغ نهر الرون وفتح إقليم بروفانس في الجنوب، ثم صعد شمالاً مع النهر حتى بلغ ليون فاستولى عليها. ثم توغّل داخل إقليم برغونه (برجانديا) حتى وصل مدينة أوتون في أعالي الرون فنهبها جيشه السنة ٧٢٥م.

ويذكر بعض المؤرخين الأوروبيين أنّ عبسة اجتاح أيضاً مدينة أوزه وقيقيية وفالانس وليون وماسون وشالون، ومن هناك سار جيشه في طريقين: فألحق القسم الأول الدمار في ديجون وبيز ولانجر، واتجه القسم الآخر إلى أوتون. وظل الزحف مستمراً حتى توقف أمام بلدة سانس حيث تصدّى له أسقفها إيبون. وعندما أراد عنبسة العودة إلى قرطبة بعد أن وصلته أنباء بعض الاضطرابات هناك، اعترضت طريقه فرقة من الإفرنج فاستشهد في أحد المواقع السنة ١٠٧ هـ/٧٢٥م. وهكذا تمت الغارة الكبرى باختراق أرض غالة على يد عنبسة.[3]

ويقول رينو: «إن انتصارات عنبسة تعود إلى اللباقة وحسن الإدارة أكثر مما تعود إلى الثقة، كما أن جهوده التي بذلها لاكتساب ثقة الأهلين قد قوّت مركز العرب في جنوب فرنسا».

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٧.

(٢) د. إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٧٧.

وفي إبّان السنين الخمس التي أعقبت مقتل عنبسة، وحتى إعادة تولية عبد الرحمن الغافقي في السنة ١١٢ هـ/٧٣٠م. تعاقب على حكم البلاد خمسة حكام لم يحكم بعضهم سوى أشهر معدودة، مُنِيَت خلالها البلاد بالشلل التام، واتسعت الاضطرابات، واشتد ساعد الثوار، مما أوقف حركة الفتوح في الخارج. كما أنّ وحشيّة البربر الذين كانوا يؤلّفون القسم الأكبر من الجيش العربي حولت ودّ أهالي سبتمانيا إلى عداء مرير للمسلمين.[١]

ثالثاً: ولاية عبد الرحمن الغافقي: (٧٣٠ - ٧٣٢م)

ولاّه هشام بن عبد الملك على الأندلس السنة ١١٢ هـ/٧٣٠م، فكان لتعيينه صدى حسن في قلوب الإسبانيين الذين اعتبروه فاتحة عهد جديد في البلاد. وكان عبد الرحمن أقدر الحكام الذين شهدتهم الأندلس في أيام الأمويين، إذ كان يجمع إلى القدرة الفائقة في الإدارة المدنية نبوغاً عسكرياً من الطراز الأعلى، وكان ذا نفوذ غير محدود على كل من الحِمْيَريين والمُضَرِيِّين. وفي حين كان محبوباً من جنوده، فإن رقّة قلبه وكرمه وعدله أكسبته محبة الشعب. لقد قام بجولة كاملة في مختلف المدن والمناطق لينظر في الشكاوى التي انهالت من كل جانب، فعزل القضاة والحكام المحليين الذي ثبت لديه إخلالهم أو إساءتهم للأمانة، وعيّن مكانهم رجالاً اشتهروا بالمكانة وحسن السمعة. كذلك عامل عبد الرحمن كل الطبقات على قَدَمٍ المساواة، من دون تمييز بين العنصر أو المذهب، وأعاد الكنائس إلى أصحابها الشرعيين الذين كانت قد اغتُصِبَت منهم. وأعاد النظر في الإدارة المالية، وعاقب كل من أخلّ بالأمن عقاباً شديداً.

غير أن مهمة إعادة تنظيم الحكم لم تصرفه عن ضرورة صيانة الحدود الشمالية، إذ كانت في نفسه رغبة طبيعية للانتقام للهزيمة التي مُنِيَ بها العرب أمام تولوز، وشوق شديد إلى إحراز انتصارات شبيهة

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٩٧.

بانتصارات موسى وطارق. ولذا سعى سعياً موصوفاً إلى إنشاء جيش لا يمكن صده في إبّان زحفه نحو الشمال. وكان الحماس الديني لا يزال في أوجه، كما أن القتال تحت راية مثل ذلك القائد الباسل اجتذب الكثير من المتطوعين.[١]

أ - ثورة مونوزه ومقتله:

كان في الجانب الآخر من جبال ألبرت أو البيرينه حاكم مسلم يدعى «عثمان بن أبي نسعة» وكان كتّاب النصارى يسمونه وقتئذ «مونوزه». وقد تزوج من لامبيكي الجميلة ابنة «يودو» دوق أكيتانيا، وعقد معاهدة دفاعية مع أبيها، واتفق معه على رفع علم الثورة ضد عبد الرحمن. غير أن عبد الرحمن استطاع أن يقبض عليه ويقتله. وقد أدّى ذلك إلى سخط الدويلات المسيحية التي كان متحالفاً معها. ولذا وجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى النزول إلى ميدان القتال قبل أن يُتمّ استعداداته لغزو الشمال.

ب - غزو شمال فرنسا:

سار عبد الرحمن مخترقاً أراغون ونافارا، ودخل فرنسا في ربيع العام ٧٣٢م. وكانت مدينة «أرنس» قد وافقت من قبل على دفع الجزية، إلاّ أن أهلها رفضوا تنفيذ ذلك لدى سماعهم بمقتل «مونوزة». لذلك سار عبد الرحمن إليهم أولاً حيث نشبت معركة هائلة على شواطئ الرون أعقبها سقوط المدينة. ومن هناك سار إلى «بوردو» فاستولى عليها بعد مقاومة ضعيفة، وأنزل بدوق أكيتانيا هزيمة منكرة. وبهذا النصر قضى عبد الرحمن على كل مقاومة في دوقية أكيتانيا، واستولى على بورغاندي، وخفقت راية الإسلام على ليون وبيزانسون وسانس.

ترك عبد الرحمن حاميات قوية في هذه المدن مما أضعف من قوة الجيش الذي بقي معه عندما سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة. وكان الدوق «يودو» بعد هزيمته قد طلب معونة من شارل مارتل الذي كان يتولى الحماية أو رئاسة القصر في الدولة

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٩٨.

الميروفنجية الفرنجية، ويتمتع بنفوذ عظيم.

ورأى شارل أن انتصار العرب على دوقية أكيتانيا يشكل خطراً حقيقياً على بلاده، ولذلك استجاب لدعوة يودو وحشد قوة كبيرة من متوحشي قبائل حدود الدانوب والألب وقفار ألمانيا، وزحف بهم نحو الجنوب. وكان المسلمون في تلك الأثناء قد زحفوا على طوروس واستولوا عليها بعد هجوم عنيف ارتكب فيه البربر كثيراً من القسوة والعنف بالرغم من أوامر عبد الرحمن المشددة بعدم الإفراط في ذلك.

ج - معركة بلاط الشهداء (بواتييه):

في شهر تشرين الأول من السنة ٧٣٢م، وقعت معركة حاسمة في تاريخ المسلمين والأوروبيين، عرّفها المؤرخون العرب باسم «بلاط الشهداء»، والأوروبيون باسم «بواتييه أوتور».

جرت المعركة بين جيش المسلمين بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي وجيش الفرنجة بقيادة حاجب قصر الميروفنجيين شارل مارتيل.

١ - ظروف المعركة:

بعدما استتب الأمر لعبد الرحمن الغافقي في الأندلس، أمر بتجهيز جيش كبير للخروج به إلى الشمال، وطلب من والي أفريقيا عبيدة بن عبد الرحمن أن يمدّه بمقاتلين، فأرسل عدداً كبيراً من الرجال المجهزين تجهيزاً كاملاً. وجنّد عبد الرحمن جيشاً كبيراً لغزو فرنسا.

رغم استعدادات شارل مارتيل الضخمة، ومعه الدوق يودو، تابع عبد الرحمن تقدمه الكاسح حتى وصل إلى قرب مدينة تور، حيث علم أن جيشاً ضخماً يتجمّع لقتاله. فأمر الجنود بالتوقف والإقامة والتخفيف من الاندفاع السريع، وذلك لأن جنوده كانوا قد بدأوا يتململون بعدما شاهدوا كثرة الغنائم بين أيديهم. وكان ذلك سبباً من أسباب تراجع حماسهم للقتال.

٢ - عديد الجيشين:

يختلف المؤرخون في تقدير الجيشين المتقاتلين، فالمؤرخون الغربيون يقدّرون عدد جيش المسلمين بنحو أربعمائة ألف مقاتل، فيما أن المؤرخين المسلمين

يقدرونه بمائة ألف فقط. أما عدد جيش الفرنجة، فيتفق المؤرخون على أنه كان يفوق الجيش الإسلامي عدداً.

٣ - مجرى المعركة:(١)

فيما كان القائد الغافقي يحاول عبور نهر اللوار هاجمه شارل بجيوشه الجرارة في شهر رمضان ١١٤ هـ/٧٣٢م. ولما كان جيش العدو يفوق قواته عدداً، فقد أمر عبد الرحمن في الحال بسحب مراكزه الأمامية ورابط عند نقطة بين تور وبواتييه. وكانت حال جيشه مدعاة لقلقه العظيم، إذ كانت الفصائل القبلية المثقلة بالغنائم، والتي تعمر قلوبها البغضاء والشحناء، قد عصت أوامره وأبت القيام بأي عمل يستدعي اتحادها. وكانت مصمّمة على الانسحاب متمسّكة بالغنائم ممّا أحدث تهاوناً عظيماً في صفوفهم، وقضى على روح النظام فيها. وإذ كان عبد الرحمن يفكّر في حمل رجاله على التخلي عن جزء من الغنائم، فإنه في الوقت نفسه لم يشأ أن يخلق روح السخط بينهم. وكان لهذا الموقف المتردّد أخطر النتائج، إذ أن جيش شارل اجتاز نهر اللوار وناوش المسلمين بضعة أيام كانت الكفة راجحة إلى جانب المسلمين وازدادت غنائمهم وكادوا يفوزون بالنصر. ولكن صرخة دَوَتْ في أحد أيام المعركة بأن الخطر يتهدّد معسكر المسلمين بما فيه من الكنوز، فترك المسلمون صفوفهم وأسرعوا إلى الذود عنه وعن أسلابهم. واختلّ النظام، وذهبت جهود عبد الرحمن أدراج الرياح إلى أن أصابه سهم قاتل. وأثّر موته في الجيش أسوأ تأثير. واغتنم العدو هذه الفرصة فحمل على المسلمين حملة شديدة ولكنّهم جمعوا صفوفهم من جديد وانقضّوا على العدو إلى أن حجز الليل بينهم.

وعندما عاد المسلمون إلى معسكراتهم نشبت نزاعات شديدة بين القادة ورفع كلّ منهم سلاحه في وجه الآخر، وأصبح الانسحاب أفضل الحلول. وهكذا انسحب المسلمون تحت جنح الظلام، ومع ذلك لم

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٠٤.
د. بيضون، مرجع سابق، ص ٩٨.

يجرؤ شارل على تعقّبهم بل عاد فوراً إلى الشمال.

٤ - نتائج المعركة:

خسر العرب في سهول تور السيادة على العالم بعد أن كادوا يقبضون عليها بأيديهم، وليس ذلك إلاّ بسبب العصيان والعصبية القبلية التي ما زالت منذ البدء نقمة عليهم. سُمّي ميدان المعركة في التاريخ الإسلامي العربي «بلاط الشهداء» نسبة إلى طريق روماني قديم بين تور وبواتييه. ويبالغ الرهبان الأوروبيون في وصف خسارة المسلمين إذ يقولون إنها بلغت ٣٦٠ ألف قتيل، وهذا العدد يزيد أربعة أضعاف العدد الحقيقي الذي دخل به عبد الرحمن فرنسة فعلاً. وممّا يدحض هذه المزاعم أن المسلمين أعادوا هجومهم بعد بضعة أشهر بجيش ضخم رغم الفتن والاضطرابات الداخلية التي كانت على أشدّها في بلادهم.

ويلاحظ أن الرواية العربية تمرّ على هذه الموقعة من دون تعليق، كما تذكرها باختصار، بينما يعلق المؤرخون الأوروبيون عليها أهمية كبيرة، إذ اعتبروها من المواقع العالمية الحاسمة في التاريخ. ويقولون: لو أن العرب انتصروا في هذه المعركة لوقعت أوروبا في قبضتهم مثل إسبانيا، ولأصبح القرآن الكريم يُتلى ويدرّس في جامعات باريس وكمبردج وأكسفورد. ولهذا فهم يُشيدون بشارل مارتل ويعتبرونه المنقذ لأوروبا من العرب.(١)

ولكن فريقاً آخر من المؤرخين المحدثين يعتبر أنّ العمليات العسكرية التي كان العرب يقومون بها وراء جبال البيرينه هي مجرد غارات انتحارية بدافع من الحماس الديني، وإن الغزو العربي في إسبانيا كان نطاقه عند هذه الجبال بطبيعة الحال. أما الغزو وراء تلك الجبال فكان مجازفة محفوفة بالأخطار. ولهذا لم تكن لهذه الموقعة أهمية كبيرة في نظرهم، إذ أن المسلمين واجهوا هزائم عدة أمام القسطنطينية، وهي أقرب إلى عاصمة الدولة العربية من فرنسا.(٢)

---

(١) إبراهيم بيضون، دكتور، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ص ٢٧.

(٢) إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٩٦، جزء ٤، ص ١٠٠٢.

٥ - التقييم:

أ - لم يغادر العرب الأراضي التي كانت بأيديهم في غالية (فرنسا)، ولكن غزوة عبد الرحمن الغافقي كانت آخر محاولة جديّة لفتح بلاد الفرنجة.

ب - كان الفرنجة يقاتلون بروح معنوية عالية وتصميم وعناد، كونهم كانوا يدافعون عن بلادهم في وجه الغزاة. أما المسلمون فكانوا قد كرهوا القتال الذي اعتادوه في السابق بسبب وفرة الغنائم في أيديهم.

ج - عندما قُتل قائد الجيش الإسلامي هُزم جنده وبدأوا بالتراجع عن ميدان المعركة. فقد سبق ولاحظنا في معارك عدة أن من أهم أسباب هزيمة أي جيش خلال المرحلة التي نعالجها، هو مقتل قائده خلال المعركة. وهذا رغم أن المسلمين دأبوا على تعيين نائب للقائد يقود الجيش في حال مقتله منذ عهد الخليفة الراشدي الأول.

د - أخطأ شارل مارتيل بعدم استغلال النصر وملاحقة المسلمين المتراجعين بعد المعركة، الأمر الذي سمح لهؤلاء بإعادة التجمع وبغزو فرنسا مجدداً وتخطي منطقة المعركة شمالاً والوصول إلى مشارف العاصمة باريس.

هـ - أصبح قائد الفرنجة شارل مارتيل بطلاً أوروبياً، واتخذ في ذلك اليوم لقب مارتيل أي المطرقة، وبات يُعرف به في التاريخ الأوروبي.

و - اعتبر الأوروبيون معركة بلاط الشهداء رمزاً للانتصار الديني والسياسي. فقد ظلّت فرنسا منذ ذلك الحين المركز الذي خرجت منه معظم الحركات والجيوش لقتال العرب والمسلمين.

ز - أظهرت هذه المعركة أنّ قوّة المسلمين في الأندلس قد بدأت بالتراجع ولم يعد في إمكانهم تجييش الجيوش الضخمة لتهديد أوروبا.

ح - إن انتصار الفرنجة في معركة بلاط الشهداء أخّر نفاذ الحضارة العربية والإسلامية المزدهرة إلى أوروبا التي كانت ما تزال في العصور المظلمة من تاريخ القرون الوسطى.

رابعاً: ما بعد معركة بلاط الشهداء

بعد هذه المعركة توقفت حركة الفتوحات الإسلامية في فرنسا. وأحدثت تلك الكارثة دويّاً هائلاً في الأندلس وإفريقيا، مما جعل والي إفريقيا يسرع بتنصيب والٍ على الأندلس ليضبط الأمور فيها هو عبد الملك بن قُطن الفهري. وكان أهالي المناطق الجبلية في شمالي إسبانيا قد حاولوا الإفادة من مقتل عبد الرحمن لقلب الحكم العربي. ولذا وجّه الحاكم الجديد أول جهوده إليهم، فسار حتى وصل «أراغون» و«نافاره» وهزم الثوار في معارك عديدة إلى أن أجبرهم على طلب الصلح. ثم استولى بعد ذلك على لانكيدوك وعزّز المواقع التي كانت في أيدي المسلمين في تلك المنطقة.

ثم عُزل في السنة ١١٦ هـ/٧٣٤م. وتولّى مكانه «عقبة بن الحجاج السلولي»،(١) وكان رجلاً عادلاً ومحبوباً من كل المسلمين. وفي خلال السنين الخمس الأولى من حُكْمه دخل إلى فرنسة مرات عدة وتوصّل برجاله إلى أبعد مما وصل إليه المسلمون من قبل. وفي عهده أقام المسلمون حاميات في مختلف الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون، وتحولت أربونة إلى قلعة ضخمة ومخزن للأعتدة والأسلحة. وفي السنة ١١٨ هـ/٧٣٦م دخل إلى دوقية بروفنس واستولى بالتتابع على: سان بول، ترواشاتو، دونزير، فالانس. ثم انتشرت الفصائل العربية في بورغاندي وهددت عاصمة فرنسة. وقبل سنة واحدة كان المسلمون قد استولوا على مدينة بيدومون وأنشأوا المعاقل الحربية في الأماكن المهمة، فوجد شارل مارتيل أنه غير قادر على الصمود وحده في وجه المسلمين. ولذلك استنجد بملك لومبارديا، وقام أخوه بجمع جيش من الأراضي الشرقية من مملكة الفرنجة، وزحف الجيشان المتحدان على الممتلكات العربية. وفي الوقت نفسه

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٨.
ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤١٢.

حرّض البشكنس والغسقونيين على إغلاق ممرات البيرينه، وتلقّى المسلمون الهجمات من كل جانب. واستولى الفرنجة على مدينة أفينيون بعد حصار طويل، ثم حاصروا ناربون، ولكن المحاصرين فيها دافعوا عن المدينة بقوة حتى أجبروا شارل على رفع الحصار عنها. وتعبيراً منه عن سخطه قام بتخريب بقعة كبيرة من الأراضي العامرة في جنوبي اللوار، وهدم مدينتي «بيزيه» و«أدج» وأحرق مدينة «ناني».

الفصل السادس

ثورة البربر في المغرب والأندلس

شهدت بلاد المغرب الأقصى ثورة كبرى قام بها البربر في السنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م بزعامة ميسرة المطغري الملقّب بالحقير، وكان قد اعتنق مبادئ الخوارج الصفرية، إلى جانب حقده على عمال بني أمية في المغرب. وزاد حقده أنه سافر إلى الشام لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك ليعرض شكواه عليه، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فعاد غاضباً وأعلن الثورة على الأمويين، واستطاع أن يهزم جيوشهم عند طنجة السنة ١٢٢ هـ. وواصل بعده الثورة خالد الزناتي الذي هزم الأمويين أيضاً بقرب طنجة السنة ١٢٣ هـ، وقتل عدداً كبيراً من الأشراف العرب، واضطر الخليفة هشام أن يرسل جيشاً ضخماً من الشام بقيادة كلثوم بن عياض. ولكن هذا الجيش لم يجد ترحيباً من العرب الحجازيين الذين استوطنوا المغرب منذ أيام الفتح الأولى بسبب نقمتهم على بني أمية والشاميين، لأن هؤلاء استباحوا بلاد الحجاز وقتلوا كثيراً من أهلها في «وقعة الحرّة» شرقي المدينة أيام ثورة عبد الله بن الزبير السنة ٦٣ هـ. وقد جاء الحجازيون بعد تلك الوقعة واستقروا في المغرب والأندلس بعيداً من مركز الخلافة الأموية، واختلطوا مع الأهالي الأصليين حتى عرفوا بالبلديين، ولذلك استاؤوا من قدوم جيش الشام باعتبارهم دخلاء على البلاد، كما أنهم تخوّفوا من سيطرتهم وفرض نفوذهم المباشر عليهم.

وكان من المفروض أن يقف عرب الحجاز إلى جانب جيش الشام العربي ضد العنصر البربري المناوئ للحكم

الأموي العربي، ولكن الذكريات الأليمة التي يحتفظ بها الحجازيون جعلتهم يقفون موقف اللامبالاة أمام ثورة البربر. وبقي جيش الشام بمفرده مما أتاح الفرصة للبربر للانتصار عليه وقتل قائده كلثوم في أواخر السنة ١٢٣ هـ/١٤١م.(١) وكاد الجيش أن يسحق بكامله لولا أن تولّى بلج بن بشر القشيري قيادة فلوله واستطاع أن يدخل بها مدينة سبتة وتحصّن بها، حيث فرض عليه البربر حصاراً رهيباً كاد يهلكه ومن معه جوعاً.(٢)

وكان والي الأندلس في ذلك الوقت عبد الملك بن قطن، وهو من أبناء المدينة المنوّرة. ولما لم يجد بلج نصيراً له في محنته استنجد بعبد الملك ليعينه على عبور البحر ويسمح له بدخول الأندلس. ولكن عبد الملك كان يمتلئ كراهية من عرب الشام بسبب ما ارتكبوه في موقعة الحرّة، وهو واحد من ضحاياها، فلم يصغ لنداءات بلج. وعندما علم أن أحد أشراف اللخميين أرسل مركبين مشحونين بالحنطة مساعدة للمحاصرين في سُبتة، ألقى القبض عليه وجلده سبعمائة جلدة وسمل عينيه وقتله، ثم شنقه، وتمنى أن يموت بلج ومن معه من عرب الشام جوعاً.(٣)

وأيقن بلج بالموت القريب والمحتوم. غير أنه وقع أمر مفاجئ لم يكن في الحسبان قلب الموقف وغيّر نتائجه. فقد انتقلت أخبار الانتصارات الكبيرة التي حققها البربر في المغرب على العرب إلى إخوانهم بربر الأندلس. وعلى الرغم من أن البربر المقيمين في الأندلس كانوا لا يصادفون اضطهاداً مثل إخوانهم في المغرب، إلاّ أنهم كانوا يشاركونهم في كراهيتهم للعرب. فهم يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق في أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، إذ تمّ الفتح على أيديهم بقيادة طارق. كما أن العرب اختصّوا أنفسهم بالأراضي الخصبة واستأثروا بها، وتركوا للبربر المناطق الجبلية القاحلة الشمالية في ليون وغاليسيا واشتورش

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤،ص ٤١٧.
(٢) د. إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص١١٥-١٢٠.
(٣) المرجع نفسه.

حيث وقع عليهم بلا انقطاع عبء التصدي للنصارى. ولما كان العرب أنفسهم يشككون في كل شيء فقد أظهروا القسوة المتناهية تجاه كل ما يتعلق بالبربر الذين كانوا، إذا قبلوا الفدية من النصارى، قام العرب فحملوهم على الجَلْد وقيَّدوهم بالحديد وزجّوهم في السجون.(١)

ومن ثم كان مصير إسبانيا مرتبطاً أشد الارتباط بمصير إفريقيا حتى إنه ما تصيب هذا الجانب من المضيق ضربة من الضربات إلاّ تردد صداها في الجانب الآخر منه. وفي هذه المرة كان رجع صدى ثورة بربر إفريقيا شديداً في إسبانيا التي رحب بربرها بمبعوثي الخوارج من الوافدين من إفريقيا لدعوتهم ولحملهم على امتشاق الحسام لاستئصال شأفة العرب. فشبت في غاليسية فتنة سياسية دينية كبيرة كفتنة إفريقيا وامتدّ لهيبها إلى الشمال بأجمعه، ما عدا إقليم سرقسطة الذي كان البلد الوحيد في هذه المنطقة الذي يغلب عليه العرب.

ولحقت الهزيمة بالعرب في كل مكان وأخرجوا منه، كما اندحرت كل القوات التي ندبها عبد الملك لمحاربة الثوار. وإذ ذاك التأم شمل بربر غاليسية وماردة وقورية وطالبيرة وغيرها من الجهات الأخرى. وانتخبوا من بينهم زعيماً إماماً وقلّدوه أمرهم. وقسّموا أنفسهم ثلاثة أقسام، يحاصر أحدها طليطلة ويمضي الثاني لمهاجمة قرطبة، ويزحف الثالث نحو المضيق لعبوره والقضاء على أهل الشام في سبتة، ونقل جماعة من بربر إفريقيا إلى الأندلس.(٢)

إزاء تحرّج موقف العرب الذي أخذ يُنْذِر بالخطر ويوشك على زوالهم، وجد عبد الملك نفسه مضطراً لالتماس معونة أهل الشام ذاتهم، بعد أن كان يتمنى القضاء عليهم من دون أن تأخذه بهم شفقة أو رحمة. واتفق معهم على إخراجهم من الحصار ونقلهم إلى بلاده شرط أن يقاتلوا البربر إلى جانبه. ولكي يحتاط لنفسه فقد

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، جزء ١، ص ٣٥-٣٧.

أخذ العهد منهم على أن يغادروا الأندلس فوراً بعد الاستغناء عن خدماتهم ويعودون إلى المغرب. وحتى يضمن تحقيق ذلك اشترط أن يأخذ منهم عشرة شيوخ من كل فريق يضعهم في إحدى الجزر. واشترط بلج من جهته أن يتم انتقال جنوده، وكان عددهم نحو تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من جنود مصر، دفعة واحدة إلى إفريقيا بعد انتهاء مهمتهم وأن ينزلهم على ساحل لا يخضع لسيطرة البربر.(١)

وعندما أقرّ الجانبان بالشروط أبحر أهل الشام إلى الأندلس وهم جِياع عُراة منهكون، فأطعمهم عرب الأندلس وكسوهم وجهزوهم بما لديهم.(٢) ووضع بلج خطة حربية بارعة نفذها بدقّة، حيث قام أولاً بالتصدي للفرقة البربرية التي كانت تزحف نحو المضيق بهدف قطع الطريق عليه ومن معه قبل وصوله إلى قرطبة. فرابط لهم بقواته وبمساعدة جماعة من عرب الأندلس عند مدينة أرشذونة وشنّ عليهم هجوماً ساحقاً محرزاً انتصاره الأول، وامتلأت أيدي العرب بالغنائم. ثم أسرع بلج إلى قرطبة قبل أن يدخلها البربر ودارت رُحى معركة عنيفة تكبّد فيها العرب خسائر جسيمة، إلاّ أنهم حققوا الانتصار الثاني في النهاية ونجت قرطبة التي دخلها بلج واتحد جيشه مع جيش عبد الملك وزحفا معاً نحو طليطلة حيث كان البربر يفرضون الحصار عليها منذ ٢٧ يوماً. وكان هذا القسم من البربر يشكّل الجزء الأكبر من قواتهم. وعند نهر التاجو على شواطئ وادي السليط كانت الوقعة الحاسمة فحقّق العرب انتصارهم الثالث وتمزّق البربر في أنحاء شبه الجزيرة، حيث راح العرب يتعقبونهم في كل مكان. وبذلك تم القضاء على ثورتهم في الأندلس.(٣)

وجاء بعد القضاء على الثورة دور تنفيذ الاتفاق المعقود بين عبد الملك وبلج، فقد بادر عبد الملك إلى بلج يطلب منه تنفيذ العودة برجاله إلى إفريقيا. وكان يحرّكه

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص١١٥-١٢٠.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٨.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٥٩.

شعوره القوي بالكراهية لعرب الشام. ولم تنطفئ تلك الكراهية رغم ما أبداه الشاميون من استبسال وتضحية في الدفاع عن عرب الأندلس. فبدلاً من مكافأته لهم على تثبيت حُكمه والقضاء على ثورة أعدائه وإنقاذه، فقد ألحّ في إخراجهم من الأندلس وإعادتهم إلى المغرب، حيث كان البربر لا يزالون يسيطرون على البلاد هناك. ولقد كان من الجنون فعلاً أن يفكّر بلج وأصحابه في العودة إلى المغرب ليقعوا بين براثن عدوهم المتربّص بهم من جديد وهم لا يكادون يصدقون أنهم نجوا من الموت بعد الحصار الرهيب.(١)

ومن العبث أيضاً أن يفكّر بلج وعرب الشام في مغادرة بلاد الأندلس الخصبة التي أصابوا فيها الغنائم والأموال والقصور والنساء ليعودوا إلى المغرب لمواجهة الموت والصحراء والفقر.

وهكذا احتدم الخلاف والجدل بين الطرفين، وأصرّ عبد الملك على موقفه، كما أسفر عن عدم التزامه الدقيق ببنود الاتفاق، إذ رفض أن ينقل الشاميين كلهم دفعة واحدة بحجة أن مراكبه لا تكفي لنقلهم مع خيولهم وعبيدهم ومتاعهم. وإن من المستحيل عليه أن يُسخّر أسطوله لنقل الشاميين، وهو أسطول صغير ويحتاج إليه لحماية سواحله، وإن قسماً من مراكبه يرسو بعيداً في ميناء الجزيرة ولا يمكن استدعاؤها خوفاً من وثوب بربر المغرب على الجزيرة.(٢)

وأخيراً كشف عبد الملك القناع عن مراميه الخطيرة بالنسبة لأهل الشام، فعرض عليهم أن يعيدهم إلى سبتة ممّا أثار ثائرتهم. وصرخ به بلج: «تعرّضنا لبربر طنجة؟ لأن تقذف بنا في لُجَّة البحر أهون علينا من أن تسلّمنا إلى بربر المغرب». وانطلقت عواطف أهل الشام من عقالها ودخلوا على عبد الملك في قصره بقرطبة وأخرجوه ونادوا ببلج والياً على الأندلس السنة ١٢٣ هـ/٧٤١م.

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢٢.

(٢) الدكتور عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص٣٦-٣٧.

أولاً: النزاع بين البلديين والشاميين

رغم أن الشاميين حققوا ما أرادوا بتولية بلج على الأندلس، فإن فريقاً متطرفاً منهم أصر على قتل عبد الملك انتقاماً منه لموت أحد أشرافهم من الرهائن الموجودين في إحدى جزر الأندلس وهو من الغسانيين. وقد أثار مقتل عبد الملك موجة من الغضب واتّحد العرب البلديون مع أهل الحجاز بقيادة ابنيه: قطن وأمية، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل أربونة بجيوشه المرابطة في سبتمانيا، كما انضم إليهم فريق من أصحاب بلج نفسه ممن عارضوا قتل عبد الملك. وإلى جانب هؤلاء انضم البربر، الذين كانوا يعملون لمصلحتهم من دون غيرها بهدف الثأر من أهل الشام. والتقى الجميع بجيش الشاميين بقيادة بلج وانتصروا عليه وأصابوا بلجاً بجراح مميتة. ولكن جنود الشام ما لبثوا أن اختاروا ثعلبة بن سلامة والياً على الأندلس[(١)]. وبذلك بدأت الحرب الأهلية بين الطرفين، وأُصيبت الإدارة في الأندلس بالشلل التام[(٢)]، وهُجرت المراكز الأمامية التي كان العرب قد أنشأوها في فرنسا. كما سارع قائد حامية ناربون أو أرنوبة مع خيرة جنوده إلى نجدة ابنَيْ عبد الملك، وخَلَت كذلك سائر المدن التي كانت في أيدي العرب من حامياتها. ولو أن «بابين القصير» الذي خلف والده شارل مارتيل قام بهجوم على المراكز العربية المتقدمة في ذلك الوقت لأحرز نجاحاً محقّقاً، ولكنّه آثر التريث حتى تقضي الفِتَن الداخلية على قوة العرب، وعندئذ يوجّه إليهم ضربته.

وصلت أخبار الفتنة الطاحنة إلى الخليفة هشام فتأثر لما أصاب اليمنية على أيدي القيسية والشامية. ولذا أشار عليه أخوه العباس بن الوليد بأن يعيّن على الأندلس والياً من اليمنيين، فوافق هشام، ووقع اختياره على أبي الخطار الكلبي وأمره

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٥٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٦٤.

أن يضع حداً للفِتْنة القائمة. فقَدِم إلى الأندلس في السنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م وبرفقته ثلاثون رجلاً، فاعتبروا الطالعة الثانية من العرب الشاميين، بعد أن كانت طالعة بلج هي الأولى.(١)

وقبل وصول أبي الخطار إلى مقر ولايته كانت الحرب ما تزال على أشدّها بين الشاميين والبلديين ومن ولاَّهم من البربر وغيرهم. وكان ثعلبة قائد الشاميين قد قام بمحاربة حشود العرب والبربر في ماردة واستطاع أن يهزمهم ويُسرف في مقتل الكثير منهم. وعاد من الموقعة إلى قرطبة بعشرة آلاف من الذراري الذين أخذهم أسرى، وهناك أخذ يبيع شيوخ البلديين من العرب بأثمانٍ زهيدة تحقيراً وامتهاناً لقدرهم، حتى إنه باع أحد رجال عرب المدينة بكلب.(٢)

وعندما وصل أبو الخطار برجاله الثلاثين أمر بإطلاق سراح الأسرى، فسُمي عسكره لذلك عسكر العافية. ورحب بمقدمه العرب البلديون وعرب الشام لأنه كان يَمَني الأصل، وفي الوقت نفسه من أعيان الشام. فدانت له الأندلس، وجمع كلمة المسلمين ووحّد بينهم. وقضى على الفِتْنة، وقام بإخراج ثعلبة وجماعته من قواد الشام من الأندلس وسيّرهم إلى طنجة، وعالج الأمور بسياسة الحزم والاعتدال. ويقول المؤرخون: «إنه لم يكد يصل إلى الأندلس حتى جنحت جميع الطوائف إلى السِّلْم وتصالح الثوار».(٣)

وقام أبو الخطار بتنفيذ سياسة توزيع جند الشام على مناطق خارج نطاق العاصمة قرطبة ليقضي على تجمعهم في مكان واحد. ولكنه راعى أن تنزل كل جماعة في منطقة تشبه المنطقة التي أتوا منها بالشام: فجُنْد دمشق مثلاً أنزلهم في غرناطة بكورة البيرة وسماها دمشق. وجُند حمص أنزلهم بمدينة أشبيلية وسماها

(١). د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.
(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ص ١٢٦-١٢٧.
(٣) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٨.

حمص. وأنزل جُند الأردن في مدينة مالقة بكورة رية وسمّاها الأردن، وجُند فلسطين بمدينة شذونة وسمّاها فلسطين، وجُند قنسرين بجيان، وجند مصر بباجة وتدمر (مرسية).[١]

وأعطى لكل طائفة من أولئك الجنود الحق في أن تحصل على الجباية في المنطقة من أهل الذمة فتأخذ نصيبها من العطاء، وما يفيض تؤدّيه لبيت المال. وفي مقابل ذلك لم يمسّ غنائم البلديين من البربر، وبذلك سوّى الأمور بين الطائفتين، وبدأ عهده بداية طيِّبة. ولكن هذا العهد لم يستمر إلاّ مدة قصيرة إذ سرعان ما قامت الحروب من جديد، لكنها هذه المرة أخذت طابع الحروب العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية، أو بتسمية أخرى بين العدنانية والقيسية. ولعبت النعرة القبلية دورها في نفس الوالي المتعصب لليمنيين فشارك في إشعال الحرب.

ثانياً: الصراع بين اليمنية والمضرية

(عرب الشمال وعرب الجنوب)

بدأ الصراع بحادث فردي وقع من أحد القيسيين إذ قتل أحد أصحابه، ثم اختلف أحد المضريين مع أحد اليمنيين، فاشتكى اليمني إلى أبي الخطار، فحكم لصالحه. وظنّ المضري أن أبا الخطار كان قاسياً في حكمه وأنه تعصّب لخصمه لكونه يمنياً أيضاً. ولذلك لجأ المضري إلى زعيم المضرية الصُميل بن حاتم بن شمّر، فأقبل الصُميل إلى مجلس أبي الخطار لتوضيح الأمر ولكن سرعان ما نشب خلاف حاد بينهما. وقام أبو الخطار بإهانة الصُميل في المجلس، فخرج وهو مصمِّم على الانتقام من اليمنيين. ودعا رؤساء المضرية من اللخميين والجذاميين وحرّضهم على محاربة اليمنيين، ثم قام بدعوة ذكية وهي أن يتزعّم الثورة رجل غيره يختارونه هم بقوله لهم: «نقدّم رجلاً يكون له الاسم ولنا

(١) المرجع نفسه.

الحظ». واتفقوا على ثوّابة بن سلاّمة الجذامي من جند فلسطين. وعندما علم أبو الخطار بذلك خرج لقتالهم، لكن ثوابة هزمه بالقرب من نهر شذونة وأسره في جنوب قرطبة. ثم قام الصميل بتعيين ثوابة والياً على الأندلس السنة ١٢٨ هـ/٧٤٥م فلبث سنة واحدة توفي بعدها، فوقع الاختيار بعده على يوسف بن عبد الرحمن الفهري أحد أحفاد عقبة بن نافع، وكان طاعناً في السن، ضعيف الإرادة. وبذلك كان الحكم الفعلي بيد الصميل، حيث استمر بحكم الأندلس من خلال يوسف الفهري قرابة عشر سنين من دون أن يأخذ أي موافقة من الخليفة الأموي بدمشق ودون أن ينازعه أحدٌ في الداخل.(١)

لكن عبد الرحمن اللخمي حاكم أربونة الملقب بفارس الأندلس ثار على يوسف الفهري، لكنه قُتِل غِيلةً بيد أعوانه. وثار زعيم آخر في باجة، وثالث في الجزيرة، ورابع في أشبيلية؛ ومع ذلك استطاع يوسف القضاء على هذه الثورات جميعاً. وفي ذلك يقول المؤرخ «سيد أمير علي»: «ولولا قدوم حفيد هشام إلى الأندلس فاراً من وجه العباسيين في شهر حزيران من السنة ٧٥٥م لاستطاع يوسف عل الأرجح أن يؤسس أسرة حاكمة باسمه، ولكن وصول ذلك الأمير الأموي إلى الأندلس غيّر مجرى الأمور فيها».(٢)

ثالثاً: بابين القصير يبدأ حركة الاسترداد المسيحي Pépin Le Bref

من الواضح أن فتح المسلمين للأندلس تمّ من دون وضع خطة مدروسة، فقد كان الحماس الديني هو الغالب في نفوسهم على ما عداه. كما أن الظروف التي كان عليها أهل البلاد من القوط قد أغرتهم ودفعتهم إلى هذا الفتح، فاكتسحوا شبه الجزيرة الإيبيرية بزمن قياسي، ودخلت جيوشهم أراضي فرنسة من دون سابق

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٠.

(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ١٣٠.

تخطيط. ولقد كانت موقعة وادي لكّة السنة ٩٢ هـ/٧١١م، فاصلاً حاسماً مكّنت المسلمين من السيطرة على كامل شبه الجزيرة باستثناء منطقة جبلية وعرة في أقصى الشمال الغربي عند خليج بسكاية، لم يفكر المسلمون باقتحامها إذ استخفوا بمن فر إليها من القوط وبقايا الإيبيريين والرومان، ولم يقيموا لهم وزناً. ولكن هؤلاء أقاموا في تلك المنطقة مدة طويلة ينتظرون الفرصة المؤاتية لاسترداد أراضيهم وردّ المسلمين عنها. وفي مرحلة الانتظار كانوا يواصلون تدريباتهم ويزيدون من أعدادهم واستعداداتهم العسكرية، إلى أن حانت الفرصة المؤاتية عندما انقسم المسلمون على أنفسهم، وانتشر الخلاف في صفوفهم، وضربتهم الفرقة، وانشغلت البلاد بالفتن والثورات والحروب التي كانت تنشب بين العرب والبربر تارة، وبين العرب أنفسهم تارة أخرى. وأدى ذلك إلى وقوع هجرة كبيرة من المناطق الجبلية قام بها البربر باتجاه الجنوب لمزاحمة العرب في مناطقهم الخصبة. وبذلك انكشفت المناطق الحدودية المتاخمة لإمارات الفرنجة، ممّا أغرى القوط وحفّزهم لبدء حركة استرداد الأراضي ولو في شكل بطيء في أول الأمر، حيث خرجوا من كهوف الجبال وراحوا يتقدمون لاحتلال الأراضي التي نزح عنها البربر. ولم ينتبه وُلاة الأندلس لهذا الخطر الداهم لانغماسهم في الخلافات والمنازعات الداخلية. وانتهز المسيحيون فرصة وقوع الحرب بين أبي الخطار وثوابة بن سلامة الجذامي، فقاموا بضمّ المناطق التي هجرها المسلمون في ليون وسمورة وشلمنقة وشنت مانكش وشقوبية وابلة وغيرها، وذلك على يد الملك ألفونسو الأول (٧٣٩-٧٥٧م) الذي يسميه العرب إذفونش الكاثوليكي (القاطوليكي).

وفيما كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري منهمكاً في القتال ضد الثوار الذين خرجوا عليه في أربونة ثم باجة ثم الجزيرة ثم أشبيلية، قام بابين القصير ابن شارل مارتيل بالإغارة في جيش ضخم من البرابرة على لانكدول وسبتمانيا وسافوى الغربية التي كانت ما تزال في أيدي العرب. وأشعل بابين النيران في هذه المدن الجميلة، وهدم

المساجد والمستشفيات والمدارس، وقتل أهاليها، فاستحالت البلاد بأسرها إلى سراب، ونجمت عن وحشية الفرنج مجاعة هائلة مات خلالها عدد كبير من الناس. ورغم ضعف موقف العرب في جنوب فرنسا فقد دافعوا دفاعاً بطولياً طيلة ثلاثة أعوام متشبّثين بكل شبر من الأرض حتى لم يبق في أيديهم سوى مدينة أربونة التي حوصرت أربعة أعوام. ثم سقطت عن طريق خيانة أهلها من النصارى الذين غافلوا حرّاسها وانقضوا عليهم، وفتحوا أبواب المدينة حيث تدفق البرابرة وأعملوا السيوف في رقاب المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ثم دكّوا المدينة إلى الأرض. وبذلك انسحب المسلمون إلى المناطق المتاخمة لخليج بسكاية، بعد أن أنهكتهم الفِتَن والحروب الداخلية والنزاعات العصبية القبلية، ومهّدت الفرصة للبرابرة ليؤسسوا نواة مملكة عظيمة في شمال الأندلس.(١)

رابعاً: قيام الإمارة الأموية في الأندلس

ترافقت هذه الأحداث الخطيرة مع سقوط الخلافة الأموية على أيدي العباسيين الذين تصدوا لأمراء بني أمية وبطشوا بهم عقب موقعة الزاب الكبرى من دون رحمة السنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م. لكن عبد الرحمن الأول نجا وفرّ إلى الأندلس في السنة ١٣٨ هـ/٧٥٦م. فلقد شاءت الأقدار أن ينجو الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام عبد الملك بن مروان من المذبحة الهائلة التي ارتكبها الأمير العباسي عبد الله بن علي الملقب بالسفاح، عندما دعا مئات الأمويين إلى وليمة كبرى ثم غدر بهم عند نهر أبي فطرس بين فلسطين والأردن. ثم فرش على جثثهم بسطاً وأخذ يتناول طعامه وهو يقول: «ما أكلت أكلة أطيب من هذه الأكلة».(٢)

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تمثل دوراً روائياً رائعاً. فقد كان يختبئ في

(١) د. بيضون، المرجع نفسه، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) د. بيضون، المرجع نفسه، ص ١٦٨-١٦٩.

أحد الأيام بين مضارب خيام البدو على ضفة الفرات، فإذا بفرسان من العباسيين يقتربون من هناك، ففرّ عبد الرحمن واجتاز النهر سباحة وكان عمره آنذاك عشرين عاماً. وقد حاول أخ له وعمره ثلاثة عشر سنة عبور النهر فعجز عن السباحة وعاد حيث أمسك به العباسيون وذبحوه وأخوه ينظر إليه من الضفة الأخرى. وهام عبد الرحمن على وجهه مُتنكِّراً من دون المال والأصدقاء، وسار مترجِّلاً إلى أن وصل فلسطين وهناك لحق به مولاه بدر واتجها إلى شمال أفريقيا. وعندما علم عامل أفريقيا به ألحّ في القبض عليه، ولكن عبد الرحمن كان يفر من قبيلة إلى أخرى إلى أن وصل إلى سبتة بعد خمسة أعوام، وهناك رحّب به أخواله وهم من البربر إذ كانت أمه تنسب إلى قبيلة نغرة البربرية.

ويبدو أن عبد الرحمن تطلّع إلى أن يؤسِّس بنفسه مُلكه في المغرب بمساعدة أخواله، ولكنه لم ينجح في ذلك. ولما كان قد أوتي عزيمة الشباب والإرادة فقد تطلّع إلى الأندلس، في الوقت الذي كانت الحروب الأهلية بين اليمنية والمضرية، حيث وجد في ذلك فرصة سانحة. وقد تمّ له ما أراد بعد أن رحَّب به موالي بني أمية الذين كانوا يكثرون في الأندلس، وكان بدر رسوله إليهم. وعمل بدر على أن يستميل المضريين إلى سيده لأنهم يشكلون النفوذ، ولكن الصميل خاف أن يفقد سلطانه ونفوذه بوصول عبد الرحمن وأعلن عدم قبوله بالولاء له. ويذكر المؤرخون أنه قال لبدر يصف عبد الرحمن: «إنه من قوم لو بَالَ أحدهم في الجزيرة لغرقنا في بحر بوله. وإن أول سيف يسل عليه هو سيفي»[1].

(١) «... وقال إني رويت في الأمر الذي أردته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله. وهذا رجل نتحكم عليه ونميل على جوانبه ولا يسعنا بدل منه. ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي فإني أعلمكما أن أول سيف مسل عليه سيفي. فبارك الله لكما في رأيكما. فقالا له ما لنا رأي إلاّ رأيك ولا مذهب لنا عنك ثم انصرفنا عنه». نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٨، تحقيق د. إحسان عباس. الجزء الثالث ص ٣٢.

ونجح بدر أخيراً باستمالة اليمنيين إليه، إذ رأوا أن اتفاقهم مع الأمويين سوف يمكّنهم من الانتقام من خصومهم المضريين. وعندما عبر عبد الرحمن ونزل على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس عند ثغر المنكب في ربيع الثاني من السنة ١٣٨ هـ/٧٥٥م، انتقل إلى حصن طرش وهو من أهم المراكز الأموية، واتخذه قاعدة له حيث جمع فيه أنصاره، ومنه انطلق نحو قرطبة. وعند بساط الوادي الكبير القريب منها جرت الموقعة بين جيشه وجيوش الصميل بن حاتم ويوسف الفهري في وقفة عيد الأضحى السنة ١٣٨هـ. ونجح عبد الرحمن في عبور النهر بعد أن خدع خصومه بأنه يتجه إلى الصلح في ذلك اليوم المبارك. وفي الليل كشف عبد الرحمن عن موقفه بأن يُنادى به أميراً على الأندلس لأنه من سلالة الأمويين. ونشبت الحرب عند بلدة «المصارى» قرب قرطبة وأسفرت عن انتصار ساحق للأمير الأموي في ١٠ ذي الحجة السنة ١٣٩ هـ/١٥ أيار ٧٥٦ م.(١) وعُرفت هذه الموقعة في المراجع العربية باسم «المصارى»، وفي المراجع الأوروبية باسم الأميدا.

وبذلك تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة، وقام يوم الجمعة خطيباً وأعلن قيام دولته الجديدة من مسجد قرطبة. وعمل منذ ذلك الوقت على إحياء دولة الأمويين في الأندلس بعد انهيار دولتهم في المشرق والمغرب، وقام بعمل يشبه الإعجاز بعد أن كان طريداً شريداً وتحقق له المجد بعد دخوله للأندلس، ولذا لُقِّب بالداخل.

وشهدت الأندلس صراعاً متواصلاً بين الأمير الأموي وبين خصومه من القيسية الموتورين واليمنية الذين انقلبوا عليه ومن أنصار العباسيين. لكن عبد الرحمن انتصر عليهم جميعاً بفضل دهائه وقوة شكيمته، حتى لقّبه أحد خصومه بـ «صقر قريش».(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٧٧.
(٢) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٤٥-٤٦.
وكرم ملحم كرم، «صقر قريش»، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠.

الفصل السابع
عبد الرحمن الداخل يعيد توحيد الأندلس

مقدّمة

بقيت الأندلس تتخبط في الثورات الداخلية والخلافات بين الأمراء وحكام المقاطعات حتى تمكن أمير من أمراء أمية من إعادة توحيدها، بعد أن فرَّ من الشرق وخاض صراعاً مريراً في سبيل السيطرة على الحُكْم الأندلسي، وهو أحد أحفاد هشام بن عبد الملك، عبد الرحمن المُلقَّب بالداخل.

فرّ عبد الرحمن بن معاوية هارباً من الأسنة العباسية التي لاحقته منذ عام ٧٥٠ م، بعد مذبحة أبي فطرس ولجأ إلى المغرب مع ابنه سليمان وخادمه بدر، واستقر بين أخواله من قبيلة نغرة البربرية.(١)

ولم تكن ولاية المغرب تكفي طموح الأمير الأموي الهارب. حتى ولو رغب في ذلك، فإن السيطرة عليها لم تكن بالأمر اليسير، كما أن حاكمها الفهري لا يرغب في الأمير الشاب، وكان قد قام بتصفية أميرين من الأمويين لجآ إلى المغرب. لذلك تجنّب عبد الرحمن الظهور لحين انجلاء الموقف، وذلك طيلة أربع سنين كان ينتقل خلالها بين قبائل البربر في المغربين الأوسط والأقصى، متطلعاً إلى الأندلس التي كانت تمزّقها الحروب الأهلية.

وفي نهاية العام ١٣٦ هـ/٧٥٤م، شق خادمه بدر طريقه عبر المضيق إلى الأندلس، في مهمة سرية هي الاطلاع على الأجواء السياسية والتمهيد لعبور سيده. واتصل بدر أولاً

(١) سيمون الحايك، عبد الرحمن الداخل، بيروت، ١٩٨٨.

بأنصار الأسرة الأموية من بقايا الفرقة الشامية التي كانت بقيادة بلج بن بشر. اللقاء كان ودياً وصف فيه بدر صفات سيده ومؤهلاته كحفيد لهشام ومقدرته على ردّ الإعتبار إلى الأمويين في الأندلس.(١)

وفي هذه الأثناء كانت السلطة الفعلية في الأندلس بيد الصميل بن حاتم وصنيعته يوسف الفهري الذي كان يتولى الإمارة، وكلاهما من أعيان الحزب القيسي.

ونشطت الاتصالات بين أوساط الحزب الشامي وحلفائه الذي استهوتهم زعامة الأمير الأموي وتلمّسوا طريق الخلاص من فوضى الحروب الأهلية. واتجهت الاتصالات نحو الحزب اليمني المعارض، الذي استجاب زعماؤه للفكرة وكانوا في غالبيتهم من زعماء لخم وجذام ويحصب. وكان هدف هؤلاء التخلص من هيمنة الحزب القيسي بزعامة الصميل ويوسف الفهري.(٢)

عند هذا الحد عاد بدر إلى سبتة واصطحب سيده عبد الرحمن، الذي نزل في ضيافة الزعيم الشامي أبي عثمان عبيدالله على ساحل البيرة (قرية طرش)، حيث اجتمع إليه الأنصار مأخوذين بشخصيته القوية وجرأته النادرة، بعد أن وجدوا فيه طرازاً جديداً من الزعامة السياسية.

في هذا الوقت كان الصميل والفهري يلاحقان ثوار سرقسطة من اليمنيين والبربر بزعامة عامر والحبحاب، كما أعلن البشكنس سكان البيرينه أيضاً عصيانهم في بنبلونة Pampalona. ولم تتمكن الفرقة التي أرسلها الصميل من إنهاء العصيان فعادت مذعورة بعد اشتباك سريع مع عصاباتهم.(٣)

تحرّك الأمير الأموي من البيرة بغالبية جنده من الحزب اليمني نحو قرطبة، بعد أن استقطب مدينة أرشذونة وجند حمص

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٢٢-١٢٣.
(٣) المرجع نفسه، جزء ٥، ص ١٢٢.

في أشبيلية، وتلاقى جيشه مع جيش الصميل والفهري على ضِفَّتَيْ الوادي الكبير. وبعد أن أوهم عبد الرحمن خَصْمَيه بميله نحو المصالحة، التي كانت نوعاً من الاستدراج لهما، هاجم بجيشه معسكرهما فانجلت المعركة الأولى لمصلحته بسرعة، فدخل قرطبة بعد القضاء على أسطورة الصميل.

كتب ابن الأثير عن هذه المعركة ما يأتي:(١)

«ونهض (أي الأمير عبد الرحمن) إلى قرطبة، فبلغ خبره إلى يوسف - وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة فأتاه الخبر وهو راجع إلى قرطبة - فسار عبد الرحمن نحو قرطبة فلما أتى قرطبة تراسل هو ويوسف في الصلح فخادعه نحو يومين أحدهما يوم عرفة. ولم يشكّ أحد من أصحاب يوسف أن الصلح قد ابترم وأقبل على إعداد الطعام ليأكله الناس على السماط يوم الأضحى، وعبد الرحمن مرتِّب خيله ورجاله. وَعَبَرَ النهر في أصحابه ليلاً ونشب القتال ليلة الأضحى وصبر الفريقان إلى أن ارتفع النهار. وركب عبد الرحمن على بغل لئلا يظن الناس أنه يهرب فلما رأوه كذلك سكنت نفوسهم وأسرع القتل في أصحاب يوسف وانهزم. وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته ثم انهزموا فظفر عبد الرحمن. ولما انهزم يوسف أتى ماردة وأتى عبد الرحمن قرطبة فأخرج حشم يوسف من القصر على عودة ودخله بعد ذلك».

تقييم:

أحسن عبد الرحمن في إدارة معركته من خلال قيامه بالآتي:

- استبدل حصانه العربي الأصيل ببغل بطيء الحركة بهدف طمأنة أنصاره لجهة صموده في القتال وعدم رغبته في الانهزام مهما كانت الظروف.

- اعتمد الخدعة فأوهم خصمه بميله إلى المصالحة فيما كان يجهّز جيشه للمواجهة التي كانت نوعاً من الاستدراج.

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٢٣.

وهكذا تمكن من تطبيق مبدأيْ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل)، فانتصر في معركته.

أولاً: إنجازات عبد الرحمن الهادفة إلى السيطرة على الأندلس

قرّر عبد الرحمن بناء جهاز بشري مطلق الولاء له على الصعيدين السياسي والعسكري، مركّزاً على الجيش كونه الدعامة الأولى للسيطرة على البلاد. ونواة الجيش كانت تلك الفئة التي أوصلته إلى قرطبة. كما أعلن أن الأندلس مشرّعة الأبواب أمام المُلاحَقين من الحكم العباسي، فتدفّق إليها المئات منهم.

كذلك قرر البدء بعهد جديد، فرفض الانتقام من الحزب القيسي، ورغب بالقضاء على رواسب التعصب وإنهاء الحروب الأهلية. وكان أمام الأمير الشاب القضايا الآتية لمعالجتها:

أ - إصلاح الإدارة وتوحيد المجتمع الممزّق وخلق جيش جديد تذوب فيه التناقضات القبلية. وكان لهذه القضية الأولوية المطلقة.

ب - مطاردة فلول الحاكم السابق الفهري والصميل.

ت - العلاقة مع الخلافة العباسية التي كانت تعتبر الأندلس من ممتلكاتها التي ورثتها عن الأمويين.

ث - العلاقة مع المسيحيين الفرنجة والإسبان.

- الثورات ضد عبد الرحمن:

وبعد أن كانت سيادة عبد الرحمن محصورة بقرطبة وجوارها، خاض الزعيم الأموي الشاب صراعا طويلاً ضد آل الفهري، حيث تمكن أخيراً من قتل الفهري ثم الصميل، قبل أن يقطع رؤوس أنصارهم المتحمسين من الحزب القيسي، بعد أن كان قد حاول سلوك طريق الوِفاق والمهادنة. لقد اضطر أخيراً عبد الرحمن إلى الإسراف في العنف، ووجد المؤرخون أنه كان ذلك مسوّغاً وذلك بهدف الثبات في وجه العواصف والعراقيل.

لقد خاض الأمير الأموي حرباً طويلة ضد الثوار الكُثُر الذين حاولوا متابعة الصراع ضده، وهم من الحزب القيسي ومن الفهريين، وحتى من بعض زعماء اليمنيين (العلاء بن مغيث اليحصبي، وهو من زعماء جذام اليمنية وكان قائداً لحامية باجة).

كتب ابن الأثير عن القتال ضد العلاء ما يأتي:[١]

«سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقيا إلى مدينة بناحية من الأندلس، ولبس السواد، وقام بالدولة العباسية، وخطب للمنصور، واجتمع إليه خلق كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأموي، فالتقيا بنواحي أشبيلية، ثم تحاربا أياماً فانهزم العلاء وأصحابه، وقُتِل منهم في المعركة سبعة آلاف وقُتِلَ العلاء. وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان، وإلقائها بالسوق سراً ففعل ذلك. ثم حُمِل منها شيء إلى مكة فوصلت وكان بها المنصور، وكان مع الرؤوس لواء أسود، وكتاب كتبه المنصور للعلاء».

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، بعد أن تخلص من رجل الثورة العباسية أبي مسلم الخراساني، تطلّع إلى الأندلس لتصفية حسابه مع عبد الرحمن، واتصل بالعلاء للقيام بمهمة تصفيته العام ١٤٦ هـ/٧٦٣م. وهكذا ارتفعت أعلام العباسيين السوداء في باجة معلِنَةً الثورة على أمير قرطبة العام ١٤٧ هـ/٧٦٤م. وتعاطف الحزب القيسي مع الثوار واتجهت جيوشهم نحو أشبيلية واحتلتها.[٢]

أرسل عبد الرحمن مولاه بدر لإخضاع أشبيلية ولاقاه بجيش آخر إلى المدينة، فانتصر انتصاراً كبيراً على الثوار. وأمر عبد الرحمن بجمع رؤوس القتلى ووضعهم في أكياس مع اسم كل منهم وأرسلهم إلى القيروان، حتى إذا وصل الخبر إلى مسامع المنصور ذُهل من جرأة الأمير الأموي وصرخ غاضباً – حسب الرواية التاريخية –

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٧٨-١٧٩.

(٢) المرجع نفسه، جزء ٥، ص ١٨٧.

«الحمد لله الذي جعل بيني وبين هذا الشيطان بحراً».

وهذا ما أفهم المنصور أن الأندلس قد أمست في عهدة الأمير الأموي الذي يُعتبر طرازاً فذّاً من الرجال، فأطلق عليه، وِفْق رواية ابن الخطيب، لقب «صقر قريش» تقديراً لكفاءته وشجاعته النادرة.(١) بعد ذلك أرسل عبد الرحمن مولاه بدراً إلى طليطلة على رأس قوة تمكّنت من القضاء على ثورة الفهريين.(٢)

ثم قام اليمنيون بثورة جديدة (١٤٩ هـ/٧٦٦م) في مدينة لبلة بزعامة سعد اليحصبي المُلقَّب بالمطري، وذلك قبل أن يستولي الثوار على أشبيلية ويتخذوا إحدى القلاع المجاورة لها معسكراً لهم (قلعة رغواق). لكن عبد الرحمن تمكن من سحق الثورة بسهولة.(٣)

كما ثار يمني آخر في أشبيلية يدعى أبو الصبّاح، الذي قاد جيشاً يفوق حجم جيش نسيبه المطري، مما أدى إلى تردّد عبد الرحمن في مجابهته قبل أن تتهيأ له فرصة مناسبة. فقد دعاه عبد الرحمن إلى قرطبة فقَدِم بعد تردُّد على رأس ٤٠٠ فارس كإجراء احتياطي. لكنه، عندما دخل منفرداً إلى مقر عبد الرحمن، انقضَّ عليه هذا الأخير متخلِّصاً منه.

وبعد أن تمكّن عبد الرحمن من تطويع القبائل العربية من الحزبَيْن القيسي واليمني، دخل البربر دائرة الصراع على السلطة معلنين الثورة على الأمير الأموي في مقاطعة شنتبريه (شرق وادي الحجارة)، في إقليم أراغون حيث كانت تقيم أغلبية من قبائل البربر، خاصة مِكْناسَة التي تصدَّرت الثورة. وامتدّت الثورة، بقيادة قائد أَطلقَ على نفسه اسم «الفاطمي»، إلى ماردة والمدن الأخرى حتى نهر تاجو جنوباً. وفيما كان عبد الرحمن يقوم بقمع الثورة في الشمال، وصلته أخبار من مولاه عن اندلاع

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٢) سيمون الحايك، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٧٨.

ثورة في أشبيلية تحت شعار الثأر لأبي الصباح.

ولم يتمكن عبد الرحمن من القضاء على ثورة شنتبريه إلاّ بعد أن قضى على ثورة أشبيلية، فقام على رأس قوة كبيرة بحملة إلى المنطقة. لكنه لم يستطع الحسم نظراً لمهارة الفاطمي في حرب العصابات، بحيث كان يتحاشى الصدام المباشر مع قوات السلطة مؤثِراً الهجمات السريعة ثم الاختفاء في كهوف الجبال. وبقي حتى العام (١٦٠ هـ/٧٧٦م) حين نجحت حملة بقيادة عبيدالله بن عثمان وتمام بن علقمة في سحق حركته بعد تدبير اغتياله بطريقة متقنة[١].

ثانياً: علاقات عبد الرحمن مع الإسبان

بعد عشرين عاماً على حكم عبد الرحمن (٧٥٦ – ٧٧٦م)، تمكن من القضاء على الثورات الداخلية التي لم تدع له الفُرَص للاهتمام بشؤون العلاقات الخارجية. لقد غدت الحرب صفته الأولى فارضة عليه القسوة والعنف والتشكيك بكل الناس حتى المخلصين له.[٢] وهذا ما أتاح لبقايا القوط تحضير نواة فكرة وطنية لتحرير الأرض من العرب المسلمين، ازدادت توسّعاً على حساب حكومة قرطبة الأموية المُنْهَكَة.

وكانت مملكة أشتوريش أخطر هذه التجمعات، وعاصر ملكها فرويلة Fruela عبد الرحمن، فقام بسلسلة هجمات في المناطق الشمالية، مما دعا عبد الرحمن إلى إرسال حملة تأديبية قادها بدر فأقنع مملكة أشتوريس بعقد هدنة طويلة مع الأمير الأموي أدت إلى مرحلة سلام بين الدولتين الأموية والإسبانية. هذا في وقت لم يكن النشاط المسيحي الإسباني قد وصل إلى مرحلة تؤهله للتصدي للعرب المسلمين.[٣]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٦٨.

(٢) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٦.

(٣) د. بيضون، مرجع سابق، ص ١٩٤.

ثالثاً: العلاقة مع الإمبراطور شارلمان

تميّزت هذه المرحلة بتولّي كلٍّ من أوروبا من جهة والأندلس من جهة أخرى رجل تتملّكه الحماسة في الدفاع عن الوجود والعقيدة. وتشبه هذه المرحلة مرحلة الصراع بين عبد الرحمن الأول (الغافقي) وشارل مارتيل. فقد اعتبر شارلمان المدافع عن العالم المسيحي الأوروبي، وعبد الرحمن الداخل اعتبر المدافع عن الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

وأصبحت دولة الفرنجة في عهد شارلمان القوة الرئيسية المسيحية في أوروبا بعد انهيار العلاقة بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية. واقترن اسم شارلمان في تاريخ الأندلس بالحملة الشهيرة التي اخترق بها البيرينه ووصل إلى سرقسطة. واكتسبت هذه الحملة بُعدين:

الأول: أوروبي مسيحي، كونها أول بادرة هجوم قام بها الكارولنجيون جنوب جبال البيرينه.

الثاني: دُولي، إذ يرى بعض المؤرخين أن شارلمان نسّق مع الخليفة العباسي المنصور للقيام بالحملة. (وهذا أمر بحاجة لإثبات).

إنما المعروف أن علاقات ودّ ربطت بين شارلمان والخلفاء العباسيين. كما ترافقت حملة شارلمان مع ثورة في شمال الأندلس ضد الحكم الأموي قام بها اثنان من زعماء العرب هما سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالإعرابي، الذي كان حاكماً على سرقسطة، وحسين بن يحيى الأنصاري. أما عبد الرحمن بن حبيب الفهري المُلقَّب بالصقلبي والذي كان على صلة ببغداد، فقيل إنه لعب دور الوسيط بينهما وبين شارلمان.

ونقل بعض المؤرّخين(١) أن مبعوثاً للثوار قابل شارلمان العام ١٦٠ هـ/٧٧٧م حيث تم الاتفاق على القيام بالحملة العسكرية ضد الإمارة الأموية، على أن يمهّد لها الثوار المسلمون في سرقسطة.

(١) لين بول، العرب في إسبانيا، ص ٢٩.

وفي صيف ٧٧٨م قام شارلمان بحملته الضخمة على شمال الأندلس، مخترقاً البيرينه إلى سرقسطة التي أغلقت أبوابها في وجهه وصممت على المقاومة (وهذا ما ينفي ما جاء به بعض المؤرخين عن اتفاق شارلمان مع ثوارها). إضافة إلى ذلك، وردت معلومات إلى شارلمان عن تمرّد القبائل السكسونية في منطقة الراين واقترابهم من مدينة كولون في ظل فراغ عسكري في إمبراطوريته بسبب الحملة.(١)

علاوة على ذلك ثار البشكنس في ممرات البيرينه وأمست طريق عودة شارلمان إلى عاصمته محفوفة بالخطر، مما دفع به إلى أن يصبّ غضبه على عاصمتهم بنبلونه رغم أن سكانها من المسيحيين.(٢)

وكان شارلمان قد كلَّف بحماية مؤخِّرة جيشه المنسحب فرقة عسكرية بقيادة رولان، وذلك بسبب وعورة الممرات الجبلية في البيرينه المعروفة بالرونسڤال.

وقد نشأت ملحمة شعرية في ما بعد دُعيت أنشودة رولان La chanson de Roland (أحد قادة جيش شارلمان)، وفيها تمجيد لبطولاته ولبطولات جيش شارلمان، محوِّلة الهزيمة إلى انتصار معنوي، ما زالت تعتبر أنشودة شعبية في فرنسا حتى الآن لأن فرقة رولان أُبيدت بكاملها.(٣)

وبعد ذلك اعتمد شارلمان خطة دفاعية على حدوده مع إسبانيا، حيث أقام شريطاً دفاعياً ومراكز محصَّنة على الحدود لمراقبة تحركات جيوش الأندلس. كما أنه عمل على مهادنة الأمير عبد الرحمن فجَرَت اتصالات ومصاهرة بينهما (رغم أنها بقيت غير مؤكدة).

ويمكننا اعتبار حملة شارلمان أحد مظاهر الصراع بين الشرق والغرب، أو بين المسيحية والإسلام في الأندلس. وقد استغلت هذه الحملة وفشلها لإثارة الشعور الصليبي في أوروبا على نطاق واسع، فأصبحت أنشودة رولان على كل لسان

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ١٩٦.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٠ – ٢٠١.
(٣) د. بيضون، المرجع نفسه، ص٢٠٢ – ٢٠٣.

يتغنى بها الشعراء مضيفين إليها أخباراً هي من عالم الأساطير.

إنما، ومع خروج عبد الرحمن منتصراً من التجربة مع شارلمان، أصبح الأمير المطاع الذي يسيطر على الأندلس، وذلك بعد صراع دام ثلاثين عاماً خرج منه الأمير الأموي منتصراً بقوة شكيمته وتصميمه الدائم وإرادته الفولاذية والتي اختلطت بلمحات من الخيال والأسطورة.

رابعاً: إصلاحات عبد الرحمن

بعد استتباب الأمر للأمير الأموي وانتهاء الصراع على السلطة، بدأ دور عبد الرحمن في تنظيم الحكم وتطوير الإدارة والأعمال العمرانية. وأعظم إنجازاته كان خلق دولة موحدة تتمتع بأجهزة مدنية وعسكرية لأول مرة في تاريخ الأندلس بعد أربعين سنة من القلاقل والثورات والحروب الداخلية. والأداة الرئيسية لتحقيق الدولة كان الجيش المِطْواع الكثير العدد، قال عنه المقرّي إنه بلغ ١٠٠ ألف (نفح الطيب) معظمهم من البربر والصقالبة. وكان للأمير حرس خاص مهمته حماية الإمارة في قرطبة بلغ عديده ٤٠ ألفاً وِفْقَ المقرّي (وهذه أرقام مُبالَغ فيها من دون شك).

إدارياً عمل عبدِ الرحمن على إصلاح إدارة الأندلس التي كانت تسودها الفوضى وعلى إخراجها من دائرة الولاية الضيقة المتعثرة بمشاكلها إلى إطار الدولة المتطورة المحصّنة بالقوانين وهيبة النظام. لقد اكتسبت كلمة إمارة الأندلس في عهد عبد الرحمن بُعداً جديداً، تميز عن كلمة «الولاية»، رغم أن الأمير لم يعلن الأندلس خلافة أو دولة رغم عدم اعترافه بالسلطة العباسية. فالسلطة كانت محصورة بيد الأمير، فهو المسؤول السياسي وهو القائد العام للجيش، وإليه يعود أمر البتّ بكل القضايا المصيرية.[1]

وكان لدى الأمير مستشارون يقومون بأعباء كثيرة في الحكم، وعلى رأسهم الحاجب أو الوزير. إلاّ أن الأمير بقي لا

(١) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٤٧-٤٨.

يأتَمِن أحداً بسبب طبيعته الحذرة ونظراً لما تعرّض له من مؤامرات أثناء رحلته نحو إمارة الأندلس. لذلك تحولت حكومته المركزية إلى أداة مِطْواعة بيده تعمل لتحقيق أهدافه السياسية.

وتوزعت الأندلس مقاطعات إدارية عدة أو «كور» وفق التعبير المُتداوَل، يتولى شؤون كل منها حاكم باسم الأمير يتخذ مركزه في إحدى المدن. وإدارتها هي صورة مصغّرة عن حكومة قرطبة.

وكان الأمير يخلد إلى قصره حيث عرف عنه نَظْم الأشعار الرقيقة التي اعتبرت أرقى الفنون الأدبية. ونقل عنه شعراً رقيقاً من خلال تلك الأبيات التي يتحرَّق بها شوقاً إلى الشرق:

«أيُّهَا الرَاكِبُ المُيَمِّمُ أَرضِي
إقرَ مِن بَعضِي السَّلامَ لِبَعضِي
إنَّ جِسمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرضٍ
وفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرضٍ
قَدَّرَ البَينُ بَينَنَا فَافْتَرَقْنَا
وَطَوَى البَينُ عَن جُفُونِي غَمْضِي
قَدْ قَضَى اللهُ بالفُراقِ عَلَينَا
فَعَسى باجتِمَاعِنَا سَوفَ يَقضِي»

وفي النخلة يقول:

«تَبَدَّتْ لَنَا وَسْطَ الرُصَافَةِ نَخلَةٌ
تَنَاءَتْ بأَرضِ الغربِ عَنْ بَلَدِ النَخْلِ

فَقُلتُ: شَبِيهِي فِي التَّغَرُّبِ والنَوَى
وطُولِ ابتِعَادِيَ عَن بلادِي وعَن أَهلِي»

ولقائل: سعده أعانه، لا عقله وتدبيره، أجاب:

لا يُلْفَ مَمتَنٌ عَلينا، قائلٌ
«لَولايَ مَا مَلَكَ الأَنَامَ الدَاخِلُ»
إنَّ المُلُوكَ مَعَ الزَمانِ كَوَاكِبٌ
نَجمٌ يُطَالِعُنَا، ونَجمٌ آفِلُ
والحَزمُ كُلَّ الحَزمِ ألاَّ يَغفلُوا
أيَرُومُ تدبيرُ البَرِيَّةِ غافِلُ
ويقول قوم: «سعدٌ، لا عقلُه»
خيرُ السعادةِ ما حَمَاهَا العاقلُ.

الفصل الثامن
عبد الرحمن الداخل وبناء الدولة

مقدّمة

يعود الفضل إلى عبد الرحمن الداخل في بناء الدولة في الأندلس، وفي نقلها من مفهوم الإمارة إلى مفهوم الخلافة المستقلة. لقد عمل على نقل مفاهيم الدولة الأموية إلى الأندلس، بما فيها إدارة الحكم والوزراء والحجّاب وقادة الجيوش، وحتى مظاهر العَظَمَة وفخامة الملوك وأبّهة الخلافة. ويعود له الفضل في تنظيم الإدارة والحكم. فقد كانت الإدارة قبله مُزَعْزعة بسبب عدم المركزية في الحكم، لا بل حتى التنافس عليه من قبل الأمراء المحليين. يُضاف إلى ذلك النزاع القبلي بين اليمنية والمُضَرية، كما الخلافات بين أركان المجتمع الأندلسي غير المتجانس. وتعتبر ثورة البربر التي سبقت وصوله إلى الأندلس مثالاً على الحركات التي هزّت دعائم الحكم الإسلامي في الأندلس وعمِلَت على حصره في وسط وجنوب البلاد مساهمة في تعزيز الوجود الإسباني في شمال البلاد. وهذا ما سيكون له أثر فعال في بدء ومتابعة عملية الإسترداد الإسبانية للأندلس.(١)

وكانت حركة الإسترداد هذه قد بدأت بالفعل مع بابين القصير. إلاّ أن وصول عبد الرحمن إلى الأندلس وتسلُّمه الحكم فيها وإقامة الدولة المركزية القويّة ساهمت في إرجاء

(١) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٤٧-٤٨.

حركة الإسترداد ما يقارب ٧٠٠ سنة. فلما استقرّت دولة عبد الرحمن في قرطبة، عمل على تمكين النظُمُ الإدارية التي كانت سائدة في الشرق الإسلامي، فارتفعت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى خلافة قائمة بذاتها. ويعود الفضل أيضاً في توطيد حكمه إلى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيارهم.(١)

وعمد عبد الرحمن إلى إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلافة، فزوّد حاضرته قرطبة بروائع المنشآت والعمار، فقامت بها حركة عمرانية لم تشهد لها مثيلاً من قبل. واتخذت منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبرى وأصبحت جديرة بأن تكون عاصمة الأندلس. فقد بنى قصر الإمارة والمسجد الجامع وأصلح المساجد الأخرى وكان عددها ٤٩٠ مسجداً (وفق المقرّي). ثم بنى مدينة الرصافة تيمّناً برصافة جدّه هشام وجعلها متنزهاً له، وجلب لها الأشجار والأزهار من بلاد الشام.(٢)

ويُلاحَظ في منشآت عبد الرحمن الطابع الشامي، كونه أراد للخلافة في الأندلس أن تكون استمراراً للحضارة الأموية في بلاد الشام. فقصور قرطبة ومساجدها، ولا سيما الجامع الأموي، تأثرت بالعمارة السورية وبالزخرفة ونظام العقود والسقف.(٣)

بشرياً، بنى عبد الرحمن جهازاً بشرياً مطلق الولاء له على الصعيدين السياسي والعسكري مركّزاً على الجيش، فكان سياسياً بعيداً عن التعصب فاتحاً أبواب الأندلس أمام المُلاحَقين من الحُكم العباسي وموحِّداً المجتمع في مختلف فئاته. كما حسّن علاقته مع البربر ومع أقسام المجتمع الأندلسي جميعها.(٤)

كان يتولى شؤون المقاطعات حاكم معيَّن من قِبَل الأمير، يتخذ مركزه في أكبر مدن المقاطعة. أما إدارتها فكانت صورة

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) د. سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٤٩-٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٤) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

مصغرة عن حكومة قرطبة من حيث صلاحيات الحاكم والجهاز الإداري والحامية العسكرية.

وفي وسط هذه الإجراءات، سطعت قرطبة التي أراد لها عبد الرحمن أن تخطف بريق دمشق الأموية وبغداد العباسية. وكانت أكثر تأثراً بالأولى في طراز البناء وهندسة البيوت فضلاً عن الأنواع نفسها من الأشجار. كما أقيم حولها سور منيع وإنشاءات عظيمة سواء من ناحية الحدائق وجرّ المياه بواسطة القنوات، أو المسجد الكبير الذي ما زال حتى اليوم الأعظم. كما أنشأ عبد الرحمن قصراً على سُفُح إحدى التلال في قرطبة.(١)

وكانت الحضارة والأدب صدى لحياة الشام الأدبية، فالشعر الأندلسي في هذه الحقبة كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير في المشرق.

والواقع أن موقع قرطبة كان يشبه إلى حد كبير موقع دمشق، فكلتاهما تقعان على ضفة النهر اليسرى (بردى للأولى والوادي الكبير للثانية). وكلتاهما يطل عليها جبلٌ (قاسيون للأولى و Sierra de Cordoba للثانية). حتى من الناحية الدينية، تقاربت الحضارتان لجهة اعتماد مذهب الإمام الأوزاعي، ثم مذهب الإمام المالكي.

وهكذا نرى أن عبد الرحمن الداخل استطاع بمفرده أن يخلق حضارة أندلسية، بعد أن جاءها شريداً. لقد استطاع بذكائه وشجاعته وحسن سياسته أن يجعل من الأندلس دولة مستقلة بعدما كانت ولاية.

وتوفي عبد الرحمن السنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م ودُفن في قصر الإمارة بقرطبة.

أوّلاً: تدفق التأثيرات الشرقية على الأندلس

منذ عصر عبد الرحمن تفتحت الأندلس، وخاصة قرطبة، على تيارات حضارية مختلفة، بعضها من الشام والحجاز وبعضها من العراق في ظل الخلافة العباسية. ففي مجال الفقه سُجّل دخول المذهب

(١) د. سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٥١ -٥٣.

المالكي إليها، وأسباب انتشاره تعود إلى النفور بين الدولتين العباسية في الشرق التي كانت تتبع المذهب الحنفي والأموية في الأندلس التي اعتمدت المذهب المالكي.

وفي مجال الإدارة، حَذَت الأندلس حَذْوَ أبي جعفر المنصور في توطيد أركان الدولة. فقد جنّدت المرتزقة على نحو ما فعل المأمون والمعتصم بالأتراك، واتخذت المماليك كحرس خاص للخليفة، ونظمت الشرطة وأحدثت دار السكة، وضربت الدراهم باسم الخليفة، واتخذت للوزارة بيتاً كما اتخذ الخلفاء القصور والمنتزهات وكرسوا أبهة الجلالة.(١)

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط شهدت قرطبة سيلاً من التأثيرات العراقية في الفنون والآداب، فاحتضن الخليفة العلماء والأدباء ورفع من قَدْر رجال العلم. واستقدم روائع الحُلى والجواهر من قصور بغداد وذلك بعد مقتل الأمين. كما قَدِم قرطبة المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب (٨٢١م) فاعتُبر المؤسّس الحقيقي لمدرسة الغناء والموسيقى الأندلسية. وهكذا اهتم الخلفاء برعاية الآداب والعلوم والفنون حتى ضاهت قرطبة دمشق وبغداد.(٢)

كذلك اقتنى الأمير عبد الرحمن الأوسط الكتب النادرة التي استقدمها من الشرق. وبالغ الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر في تطعيم حضارة الأندلس بالتقاليد الشرقية، فاستقدم المغنين والمغنيات من المشرق واعتمد الصقالبة في القيادات العسكرية والمناصب الإدارية(٣).

ثانياً: السفارات السياسية الأجنبية في الأندلس

اعتُبر عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء بني أمية في الأندلس، فقد توحّدت البلاد في عهده بعد انقسامها وقضى على الثوار والمتمردين وبلغت الأندلس ذروة

(١) د. سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٥٤-٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٦-٥٧.

(٣) د. بيضون، مرجع سابق، صفحة ٢٥٠-٢٥١.

الازدهار السياسي الاقتصادي. وهابت الناصر الأمم المسيحية وأرسلت إلى مقرّه في قرطبة السفراء، وأوّلها كانت سفارة بيزنطية في عهد الإمبراطور تيوفيل Theophile (٨٢٩ - ٨٤٢م)[١].

بعدها أرسلت بيزنطية سفارة ثانية في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع السنة ٩٤٩م. ثم أرسلت الدول المسيحية في إسبانيا سفارات واستعانت بالناصر في القتال في ما بينها واحتكمت إليه في خلافاتها.[٢]

كما وفد أمراء المغرب الموالون للخلافة الأموية إلى قرطبة كبني إدريس وملوك زناتة الذين دعمهم في قتالهم ضد أعدائهم، ولاسيما الفاطميين مستولياً على مِعْبَرَي الأندلس:[٣]

- طنجة العام ٩٢٧م.
- سُبتة العام ٩٣١م.

وهكذا لعبت الخلافة في الأندلس دوراً بارزاً في الصراعات الإقليمية، خاصة بين الدول المسيحية في الشمال ودول المغرب في الجنوب، وسنتطرق لاحقاً إلى هذا الموضوع.

ثالثاً: الصعوبات المعترضة

اعترضت عبد الرحمن في مسيرته نحو بناء الدولة الأموية في الأندلس صعوبات، منها ما هو داخلي سببه الثورات والمقاومة العسكرية من قبل الذين كانوا يديرون شؤون البلاد قبل وصوله، ومنها محاولات الخلافة العباسية القضاء على حكمه وهو ما زال في بدايته. ومنها ثورات البربر. ومنها أيضاً ما هو خارجي متمثل بمحاولات التحرّر الإسبانية ومحاولات استرداد إسبانيا من قبل ملوك أوروبا المدعومين من البابا، وأبرزهم الإمبراطور شارلمان.

(١) د. سالم، مرجع سابق، صفحة ٢٥٠-٢٥١.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٩-٧٣.

أ - الصعوبات الداخلية:

١ - معارضة أصحاب السلطان القديم:

حاول أصحاب السلطان القديم الوقوف بوجه عبد الرحمن من دون نتيجة، وكان أبرزهم يوسف الفهري والصميل. وكانت سياسة الوفاق قد بدأت بعد أن حلّت المفاوضات محل الحرب وانتهى الأمر إلى وِفَاق بين الطرفين تعهّد فيه الأمير بعدم التعرض للأُسَر وللممتلكات. إلاّ أن الفهري عاد وثار، لكن الأمير هزمه قرب قرطبة، كما قام بتصفية الصميل. وهكذا سيطر على البلاد.(١)

٢ - محاولة الخلافة العباسية القضاء على الأمير:

بعد أن وقعت بعض الانتفاضات التي قضى عليها الأمير عبد الرحمن، اعتبر الخليفة العباسي المنصور أن الوقت حان للقضاء عليه، فاتصل سرّاً بأحد زعماء القبائل اليمنية واسمه العلاء الذي أعلن الثورة في مدينة باجه. لكن الأمير استدرج الثوار إلى معركة جانبية وهزمهم مما أفهم الخليفة العباسي أن أمير الأندلس قد ثبّت حكمه فعلاً فأطلق عليه لقب «صقر قريش» نظراً لكفاءته وشجاعته النادرتين.(٢)

٣ - ثورة البربر:

المعارضة الثالثة جاءت من البربر الذين ثاروا على السيادة العربية في أخطر ثورة قاموا بها بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي استمرت عشر سنين (١٥١-١٦٠ هـ/٧٦٨-٧٧٧م). وعمت الثورة كل هضبة وسط وشمال إسبانيا المدعوة باسم «الجوف»، ولقب زعيم الثورة بالفاطمي نسبة لأمّه فاطمة.(٣)

سيّر عبد الرحمن إلى البربر جيوشاً كثيرة انتصر عليها الفاطمي جميعها كونه كان يتجنب المعارك في السهول ويلجأ إلى قمم الجبال عند الخطر.

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص١٦٩-١٨٤.

(٢) د. سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٤٥-٤٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٠٠.

أخيراً دبّر عبد الرحمن مؤامرة على الفاطمي حين اغتاله عدد من معاونيه العام ١٦٠ هـ/٧٧٧م[١].

٤ - معارضة داخل الأسرة الأموية:

حتى داخل الأسرة الأموية في الأندلس سجلت مقاومة ومؤامرة العام ١٦٨ هـ/٧٨٥م ضد عبد الرحمن قام بها أحد أولاد أخيه، المُغَيْرة بن الوليد اشترك فيها ابن الصميل. لكن عبد الرحمن اكتشفها وقتل كل أفرادها. حتى مولاه بدر، الذي كان قد ترقّى إلى مرتبة قائد للجيش، تنكرً لسيده بسبب بعض المال، مما اضطرّ عبد الرحمن إلى مصادرة أمواله ونفيه إلى الثغور الشمالية. لكنه أعاده في ما بعد وعفا عنه وأعاده قائداً لأحد الجيوش.

ب - الصعوبات الخارجية:

أمضى الأمير ٢٠ عاماً في حروبه الداخلية فلقيت سياسته الخارجية بعض الإهمال.

١ - دولة أشتوريش:

كانت دولة أشتوريش في الشمال أخطر التجمعات الإسبانية المعادية للعرب، وكان مَلِكُها قوي الشخصية. حاول التوسع جنوباً فقام ببعض التجمّعات، لا سيما أمام هجرة البربر من الشمال جنوباً، وأوقع الخسائر في صفوف المسلمين.

قام بدر على رأس جيش قوي بالتصدي له معيداً السيادة العربية على المناطق التي احتلّها، فسادت مرحلة هدوء في الشمال بين الدولتين الأموية والإسبانية.

٢ - العلاقة مع شارلمان:

كان عبد الرحمن وشارلمان رجلَيْن تجمع بينهما مواصفات الزعامة السياسية والقيادة العسكرية والحماس في الدفاع عن الوجود والعقيدة. وقُدّر لعبد الرحمن أن يلعب نفس الدور الذي لعبه الغافقي في الدفاع عن الوجود العربي في الشمال. وكما أحبط شارل مارتيل مشاريع الغافقي، فقد أحبط عبد الرحمن مشاريع حفيده

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ١٩٢.

شارلمان الذي كان أعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية وعلى علاقة متينة بالكنيسة التي دفعته لاسترداد إسبانيا.[1]

فقد جهز شارلمان حملة قوية اخترق بها جبال البيرينه إلى سرقسطه، فكان لهذه الحملة أهمية كبرى وخطر على الوجود الإسلامي في الأندلس لسببين:

الأول: كونها أول مبادرة هجومية ضد العرب.

الثاني: كونها جسّدت العلاقة الجيدة بين شارلمان والخليفة العباسي ورغّبتهما المشتركة في إنهاء الوجود الأموي في الأندلس. (غير أن هذا الرأي شكك فيه العديد من المؤرّخين).

وكانت حملة شارلمان أول محاولة لطرد العرب المسلمين من إسبانيا ضمن برنامج حركة الاسترداد المسيحي لها، لكنها فشلت. إلاّ أنّ هذا الفشل استُغل لتحريك الشعور الوطني الصليبي في أوروبا على نطاق واسع ضد الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

(١) المرجع نفسه، ص١٩٥-١٩٧.

الفصل التاسع
خلفاء عبد الرحمن

توفّي عبد الرحمن في سن الرابعة والخمسين من دون أن يعلن الدولة الأموية في الأندلس (١٧٢ هـ/٧٨٨م) تاركاً وراءه الفراغ التقليدي الذي يتركه عادة اختفاء القادة الكبار في التاريخ. وفشل عبد الرحمن في إيجاد حل لمعضلة ولاية العهد إذ وقع في الحيرة ما بين اختيار ابنه البكر سليمان الذي اصطحبه معه من الشام وكان طفلاً، وبين هشام الذي وُلد في الأندلس من أُمٍّ إسبانية والذي دفعه والده لتسلّم مهام كبرى، مما يعني أنه يفضّله على الآخر.

أوّلاً: هشام الأول (الرضا)

(١٧٢-١٨٠ هـ/٧٨٨-٧٩٦م)

وبالفعل فاز هشام بالإمارة، ورفض شقيقه سليمان الاعتراف به معلناً العصيان وزاحفاً إلى قرطبة بدعم من شقيقه الثالث عبد الله. إلاّ أن هشاماً تمكن من قمع الثورة في مركزها طليطلة، ومن نَفي شقيقه إلى خارج الأندلس.(١)

في هذا الوقت عادت حوادث الشمال للانفجار مجدداً (٧٨٨-٧٨٩ م). لكن هشاماً تمكن من قمعها وقتل زعمائها (مطروح بن سليمان في سرقسطة. وسعيد بن الحسين الأنصاري في طرطوشة Totosa).

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٠.

ونَعِمَت الأندلس في بداية عهده بمراحل من الهدوء كانت قد فقدتها في ظل والده رغم ثورة للبربر نشبت في رندة Ronda في الجنوب (١٧٨ هـ/٧٩٥م)، غرب مدينة مالقة، قضى عليها الأمير بشدة وعنف.[١]

وبعد الهدوء الداخلي وجّه هشام اهتمامه إلى الشمال وأرسل حملات عدة لتأديب الممالك المسيحية، خاصة إلى أشتوريش العاصية، هزمت إحداها الملك ألفونس الثاني (أذفونش) الذي كاد يقع أسيراً. وسُمّيت هذه الحملات «الصوائف» تيمُّناً بالحملات الأموية في آسيا الصغرى، ولأنها كانت تتم تقليدياً في فصل الصيف.

واخترقت إحدى الحملات البيرينه إلى إقليم سبتمايا في جنوب فرنسا، فيما كان شارلمان يحارب السكسون في إقليم الراين (ألمانيا). هذه الحملة أكّدت أنّ الحكم الأموي في الأندلس خرج معافى من كل المؤامرات الداخلية ضده.[٢]

إدارياً، أحاط هشام نفسه بعدد من المثقفين، كانت قراراته غالباً ما تتأثر بآرائهم، كالقرار بتعميم اللغة العربية في معاهد غير المسلمين، بهدف تحقيق التآلف بين عناصر السكان المختلفين. كما اهتم بالمساجد مضيفاً جناحاً مهماً إلى المسجد الكبير في قرطبة، ورمّم القنطرة الشهيرة فيها.

فُقهياً، أُعجب هشام بالمذهب المالكي الذي شاع في عهده في الأندلس، فأمّ مجلسه الفقهاء ورواد الحديث. إلاّ أنّ هذا التحول كاد أن يطيح بالأمير المتديّن بسبب تحكّم رجال الدين وازدياد نفوذهم، مما انعكس سلباً بعد وفاته إذ ظهرت أرستقراطية دينية مثقفة لها مكانتها الاجتماعية ونفوذها الذي بدأ يتعارض مع نفوذ الأمير الحاكم.[٣]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٠٤.
(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ص٢١٥-٢١٦.
(٣) د. بيضون، المرجع نفسه، ص٢١٧-٢١٨.

ثانياً: الحَكَم الأول (الربضي)

(١٨٠-٢٠٦ هـ/٧٩٦-٨٢٢م)

تسلّم الإمارة ابن هشام الحكم وعمره ٢٦ سنة رغم أنه ليس كبير إخوته. فجاءته المشكلة من عمّيه الطامحيْن إلى الإمارة منذ عهد أبيه.(١) لكنه عاد وقمع حركتهما، حيث قتل سليمان في الأندلس السنة ٨٠٠م، وهرب عبدالله إلى المملكة الكارولنجية لمقابلة شارلمان طالباً منه الدعم ومشاركاً في حملته إلى إسبانيا، قبل أن يثير أزمة ضد الحكم في بلنسية التي قبل الحكم بمنحه إدارتها.(٢)

ورداً على لجوء عمه عبد الله إلى المملكة الكارولنجية، سيّر الحكم حملة إلى بلاد الفرنجة، كتب عن أخبارها ابن الأثير ما يأتي:(٣)

«في هذه السنة(٤) سيّر الحكمُ صاحبُ الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فدخل البلاد وبثّ السرايا ينهبون، ويقتلون، ويحرقون البلاد. وسيّر سرية، فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه؛ وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج، ظناً منهم أنّ أحداً لا يقدر أن يَعْبُر إليهم، فجاءهم ما لم يكن في حسابهم، فغنم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال، وقتلوا منهم فأكثروا، وسبوا الحريم، وعادوا سالمين إلى عبد الكريم. وسيّر طائفة أخرى فخربوا كثيراً من بلاد فرنسية، وغنِم أموال أهلها، وأسروا الرجال، فأخبره الأسرى أن جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسلك على طريقهم. فجمع عبد الكريم عساكره وسار على تعبية وجدّ السير، فلم يشعر الكفّار إلاّ وقد خالطهم المسلمون، فوضعوا السيف فيهم، فانهزموا، وغنم ما معهم، وعاد سالماً هو ومَن معه».

---

(١) هما سليمان وعبد الله.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٠٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٤) السنة ١٨٠ هـ.

وامتاز عهد الحَكَم بالترف والذوق الاجتماعي الرفيع وكان قصره على الوادي الكبير يغرق في مظاهر الفخامة.

أ - ثورة طليطلة:

نشبت ثورة ضد الحكم في عاصمة القوط القديمة طليطلة (١٨١ هـ-٧٩٧م) وذلك بهدف التخلص من زعامة قرطبة التي تألقت على حسابها.

وطليطلة بقيت، بحكم استمرار الأسقفية الكاثوليكية فيها، تستقطب نسبة كبيرة من نصارى الإسبان والمولدين والمستعربين. كما أنها كانت محصنة بأسوار عالية ورابضة فوق منحدر يطل على نهر تاجة Tago. وهكـــذا أعلنت ثورتها وانفصالهـــا عن قرطبة بعد وفاة هشام وبروز المنافسات العائلية.

لكن الحكَم، الذي اكتسب الدهاء من جدّه، عالج الثورة بمنتهى الهدوء والذكاء، فأرسل أحد قادته (عمروس بن يوسف) حاكماً على المدينة الثائرة ليقوم بإنهاء حركة تمرد المولدين وهو مولّد من وشقة. وتظاهر عمروس بأنه حاقد على الأمير الأموي فتقرّب من الثوار الذين وثقوا به داعياً إياهم إلى وليمة بعد أن بنى لهم قلعة على نهر تاجه. وطلب عمروس قوة من الحَكَم أُرسلت له، بعد أن ادعى الأمير الأموي أنها حملة موجهة إلى الحدود الإسبانية في الشمال. وهكذا حصلت مجزرة خلال المأدبة لم يتفق المؤرخون على عدد قتلاها (ابن عذارى يقول ٧٠٠ سبعماية). وكان بين القتلى زعماء الثورة.

كتب ابن الأثير عن ثورة طليطلة وقمعها ما يأتي:[١]

«خالف بهلول بن مرزوق، المعروف بأبي الحجاج في ناحية الثغر من بلاد الأندلس، ودخل سرقسطة وملكها؛ فقَدِم على بهلول فيها عبد الله بن عبد الرحمن، عمّ صاحبها الحَكَم ويُعرف بالبلنسي، وكان متوجهاً إلى الفرنج. وخالف فيها عبيدة بن حميد بطليطلة، وأمر الحَكَم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣١٥.

القائد عمروس بن يوسف وهو بمدينة طلبيرة[1] أن يحارب أهل طليطلة، فكان يكثر قتالهم وضيّق عليهم. ثم إن عمروس بن يوسف كاتب رجالاً من أهل طليطلة، يُعرفون ببني مخشي، واستمالهم، فوثبوا على عبيدة بن حميد وقتلوه وحملوا رأسه إلى عمروس، فسُيِّر الرأس إلى الحكَم. وأنزل بني مخشي عنده، وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة ذحول، فتسوّر البربر عليهم فقتلوهم. فسيّر عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم، وأخبره الخبر من باب آخر، فمن دخل منهم عدل به إلى موضع آخر فقتلوه حتى قُتِل منهم سبعمائة رجل، فاستقامت تلك الناحية».

ب - ثورة قرطبة: (الربض):

أسباب هذه الثورة نقمة طبقة رجال الدين الذين برزوا في السياسة منذ عهد هشام. وقد نما تأثير هؤلاء في الأوساط الشعبية في ضواحي العاصمة التي دُعيت (الربض) والتي كانت قد استقطبت الكثير من التجار والحِرَفيين والعمال، فضلاً عن الفقهاء المالكيين الذين مارسوا تأثيرهم على خليط المولدين هؤلاء للضغط على الأمير الجديد المناوئ لهم.

وكان الحكم قد رفض فعلاً وصاية رجال الدين الذين عملوا على تأليب الفقراء عليه من خلال الطعن بسلوكه الأخلاقي واتهامه بالهرطقة الدينية والتركيز على الهوّة الفاصلة بين أغنياء السلطة في قرطبة وبين فقراء الربض المُعدَمين.

وانتقلت الحركة إلى قلب العاصمة لتضم إليها الزعماء السياسيين الذين رأوا تأثيرهم قيد التراجع. ومرّت الثورة بمرحلتين:

الأولى: محاولة قلب الحكم من قِبَل أحد أقارب الحكم من الأسرة الحاكمة. لكن هذا القريب باح بالسر إلى الحكَم ففشل الانقلاب. وهنا فتك الحكَم بسبعين من المتآمرين وصلبهم أمام دار الإمارة. كما أمر بتحصين العاصمة وترميم

(١) طَلْبيرة: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة.

المتصدّع من أسوارها وأحاطها بالخنادق مع تكثيف الحرس، بعد أن اكتشف مصدر الخطر.

الثانية: انفجار ثورة عارمة اتفق خلالها كل المتضررين، من السياسيين إلى رجال الدين وعامة الشعب. ففي العام ٢٠٢ هـ/٨١٨م، وبإيعاز من رجال الدين، عَبَرَت قوافل الربضيين الجسر إلى قرطبة متسلّحة بما وصل أيديها من سيوف وخناجر وعصيّ، وأحاطوا بقصر الأمير وفي طليعتهم الفقيه يحيى بن يحيى الذي كان زعيم الثورة.

لم يأخذ الاضطراب الأمير، بل نفَّذ خطة هجومية ممتازة قضت بتكليف القائدَيْن عبد الكريم بن مغيث وعبيد الله بن عبد الله باختراق الحاجز البشري بفرسانهما والتوجه إلى الربض وإشعال النار فيه. وهذا ما أدّى إلى بلبلة بين المهاجمين بعد رؤية منازلهم تحترق، فعاد الكثيرون لتخليص عائلاتهم، فيما وقع الباقون تحت هجوم عام لحرس الأمير الذي فتك بهم. وقام الأمير بصلب ٣٠٠ من قادة الثوار على ضفة الوادي الكبير.(١)

بعد ذلك أمر الأمير بإلغاء مظاهر الحياة في الربض، وأعطى سكانه مهلة أيام لمغادرة الأندلس، ومن بقي منهم كان مصيره القتل.

كتب ابن خلدون عن ثورة قرطبة ما يأتي:(٢)

«كان الحكَم في صدر ولايته قد انهمك في لذّاته، واجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به، وامتنع فخلعوه وبايعوا محمد بن القاسم من عمومة هشام. وكان بالربض الغربي من قرطبة محلّة متّصلة بقصره، وحصروه سنة تسعين ومائة، وقاتلهم فغلبهم وافترقوا، وهدم دورهم ومساجدهم. ولحقوا بفاس من أرض العُدوَة، ولحقوا بالإسكندرية، ونزل بها منهم جمع، وثاروا بها فزحف إليهم عبدالله بن طاهر صاحب مصر وافتتحها، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش».

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٢٢٣-٢٢٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٢٧٤-٢٧٥.

ج - العلاقة مع الفرنجة:

خلال عهد الحكم تمكن الكارولنجيون من احتلال برشلونة (السنة ١٩٥ هـ/٨١١م)، من دون أن تتمكن الحملة التي أرسلها الأمير الأموي من استردادها، مما أدى إلى عقد معاهدة بينه وبين شارلمان نصّت على احترام الهدنة في منطقة الحدود بين الطرفين والتي ظلّ مفعولها سارياً حتى وفاة شارلمان.

علاوة على ذلك، ورداً على غارات ملك أشتوريش ألفونسو الثاني، أرسل الأمير الحكم حملة تأديبية إلى منطقة القلاع قادها وزيره ابن مغيث واقتصرت على الفرسان، حيث خرّبت عدداً من الحصون والقلاع. وبعد خمس سنين (١٨٧ هـ/٨٠٣م) أرسل حملة ثانية إلى الشمال ضمن مخطط الصوائف الذي كان معمولاً به. وفي العام (٢٠٠ هـ/٨١٦م) أرسل حملة ثالثة توغلت حتى جليقية حيث أنزلت ضربة قوية بها.

وتوفي الحكم بعد ولاية مديدة (عام ٢٠٦ هـ/٨٢١م) بعد أن اختار ابنه الأكبر عبد الرحمن للولاية بعده، وهو الذي سيطلق عليه لقب عبد الرحمن الثاني أو الأوسط.

ثالثاً: عبد الرحمن الثاني: الأوسط

(٢٠٦-٢٣٨ هـ/٨٢٢-٨٥٢م)

تسلّم الإمارة من والده الحَكَم في أجواء هادئة. وكان يختلف مع والده في النظرة إلى طريقة الحكم حيث كان أقلّ تمسّكاً منه بنظرية الحكم المطلق وأكثر اعترافاً برجال الدين أسوة بجده هشام[١].

انعكست شخصية عبد الرحمن الثاني على الأندلس طوال ٣٠ عاماً كان خلالها متربعاً على عرش الإمارة في الأندلس. وكان عهده عهد انتقال إلى مفهوم الدولة ومؤسساتها الإدارية والثقافية والعسكرية المتطورة. كما كان عصر الانصهار الاجتماعي بين مختلف العناصر العربية والمستعربة[٢].

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٦٦.

(٢) أنظر ملحق رقم ٣: إنجازات عبد الرحمن الأوسط العسكرية.

أ - السياسة الداخلية:

في بداية عهد عبد الرحمن عاد للتمرّد عبد الله بن عبد الرحمن، الثائر التقليدي والذي حاول الانطلاق من بلنسية نحو قرطبة، لكن المرض الشديد أدى إلى وفاته قبل أن يقوم بحملته.

من جهة أخرى عادت الخلافات لتستعر بين الحزبين القيسي واليمني منذ العام (٢٠٧ هـ -٨٢٣م)، وذلك في تدمير والتي حسمت لصالح اليمنيين. لكن الأمير تمكن من السيطرة على المدينة واستبدل بها مدينة أخرى هي مرسيه Murcia التي أصبحت عاصمة إقليم تدمير.

ب - ثورات البربر:

تحرك البربر بدورهم وأعلنوا العصيان في أكثر من منطقة حيث يتمتعون بأغلبية ساحقة (السنة ٢١١ هـ/٨٢٦م) في إقليم الجزيرة الخضراء، خاصة قبل أن تخمد الثورة.

وبعد سنتين (٢١٣ هـ/٨٢٨م) قام البربر بثورة أخرى في مدينة ماردة حيث تلقوا دعماً خارجياً من الملك ألفونسو الثاني وغيره من الأمراء الإسبان ومن الملك الكارولنجي لويس. لكن الأمير الأموي تمكن من قمع هذه الثورة أيضاً (٢١٨ هـ - ٨٣٣م).[1]

رابعاً: المستعربون وبداية المقاومة الإسبانية من الداخل

قمع الأمير عبد الرحمن بسهولة الثورات التي قامت بوجهه، خاصة ثورة طليطلة، قبل أن تشهد العاصمة قرطبة تطورات داخلية كانت المؤشر الأول لحركة التحرّر الإسباني من الداخل.

وفي التفاصيل أن مسيحيّي العاصمة والمستعربين وجدوا فرصة للتحرك، في وقت بدأت أجواء الاستقرار والانفتاح ترتسم بتشجيع من الأمير المثقف والمسالم. وكانت أوضاع المستعربين قد تحسّنت في هذا العصر بحيث بلغ عدد منهم مراتب عليا في الإدارة بفضل كفاءاتهم.

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٢٣٣-٢٣٤.

تـزعّـم هـذا الـتـيـار الـمُـعَـارِض أحـد المتحدّرين من عائلة مستعربة على جانب من الثراء. وامتد إلى خارج العاصمة، إلاّ أنه بـقـي مـحـصـوراً بـعـد أن دعـا عـبـد الـرحـمـن أسـاقـفـة إمـارتـه إلـى مـؤتـمـر عـام لـمـنـاقـشـة تطورات هذه القضية. وعُقد المؤتمر فعلاً في قرطبة (٢٣٧ هـ/٨٥٢م) برئاسة أسقف أشبيلية Recafredo، فاستنكر أفعال التيار المعارض(١).

أ - الحملات العسكرية الجهادية:

مع تـحـسـن الأوضـاع الـداخـلـيـة بـدأت العمليات العسكرية الجهادية نحو الشمال:

- فـي الـعـام ٢٠٨ هـ/٨٢٣م أُرسـلـت حملة بقيادة عبد الكريم بن مغيث بعملية عسـكـريـة إلـى قشـتـالـة وأشـتـوريش حيث دمّرت بعض القلاع من دون أن تشتبك مع جيوش ألفونسو الثاني.

- الـعـام ٢١٠ هـ/٨٢٥م قـام قـائـد الصوائف عبيد الله البلنسي بحملة أخرى هزم فيها ألفونسو الثاني الذي تراجع نحو جليقية.

- العام ٢٢٩ هـ/٨٤٢م قام الأمير بنفسه بحملة تأديبية على بلاد البشكنس أدت إلى عقد صلح بينه وبين عاصمتهم بنبلونة.(٢)

ب - العلاقات مع النورمان Vikings

شهد النصف الأول من القرن التاسع م اتصالات مهمة بين حكومة عبد الرحمن والنورمان، وهم من القبائل الوثنية المعروفة بـ Vikings في أقاصي الشمال الأوروبي، وذلك في أعقاب سلسلة هجمات بحرية اسـتـهـدفـت شـواطـئ الأنـدلـس. وأخـطـر الـغـارات حـدثـت الـسـنـة ٢٢٩هـ/٨٤٤م، حين تعرضت مدينة لشبونة لهجوم بحري من سفن عدّة عَبَرَت إليها من مصب نهر تاجة. إلاّ أنها قاومت الغزو وأحبطته.(٣)

كـمـا قـامـت مـجـمـوعـة مـن الـنـورمـان Normands بالتقدم في مياه النهر حتى أشبيلية حيث سيطرت عليها ونهبتها خلال

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٢) د. بيضون، المرجع نفسه، ص٢٤٣-٢٤٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٨٣-٨٤.

أيام. وقد تصدّى عبد الرحمن للغزاة وردّهم ومنعهم عن الوصول إلى قرطبة.

بعد ذلك وجّهت السلطة اهتمامها للدفاع ضد النورمان بإقامة سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبات الأنهر وزيادة الأسطول الغربي خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر. كما عَمَدَ الأمير عبد الرحمن إلى إقامة نوع من الصداقة مع الملك النورماندي، فأرسل بعثة إلى بلاده السنة ٢٣٠ هـ/٨٤٥م، أي بعد سنة من غزوة أشبيلية.(١)

ج- العلاقات الدبلوماسية مع البيزنطيين:

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ علاقات دبلوماسية بين الإمارة الأموية والإمبراطورية البيزنطية كانت تحمل طابع الاستمرارية لسياسة الأسلاف في دمشق. كما نشأت علاقات تجارية بين الجانبين مع تبادل الخبرات في الحقول الثقافية والعمرانية وغيرها. وكان الإمبراطور تيوفيل قد أوفد سفيراً يونانياً إلى قرطبة هو قرطيوس السنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩م. وردّ الأمير على المبادرة بإرسال الهدايا النفيسة موفداً سفيراً هو الغزال إلى القسطنطينية.(٢)

وقد تتابعت هذه الاتصالات، خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر، لا سيما بعد خروج قرطبة عن هواجسها تجاه بغداد العباسية وتخلّيها عن الإمارة بمعناها الضيّق، مستعيضة عنها بالخلافة.(٣)

د - مظاهر الحياة الاجتماعية:

يمثل هذا العهد مرحلة حضارية خاصة، تجمّعت فيها تيارات وثقافات مختلفة أعطت إشعاعاً أندلسياً، لا سيما في العهود التالية من تاريخ الأندلس. فالسلام الطويل خلق ظروفاً ملائمة للإنتاج وللمواهب والطاقات. كما ساهم مجيء عبد الرحمن الثاني في دفع الحركة الثقافية والفكرية، فيما كانت عاصمة العباسيين في الشرق تسطع

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٦٥-٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٧-٦٩.

أيضاً بمجدها الثقافي في عهد الخليفة المأمون.

وأفادت قرطبة من إشعاع بغداد الحضاري في الفلسفة والطب والهندسة والرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم خلال مرحلة نقل التراث اليوناني والهندي والفارسي إلى العربية التي قام بها الرهبان السريان. وكان عبد الرحمن الثاني رائد الانفتاح الثقافي على بغداد، وكانت قرطبة مشرّعة أبوابها أمام العلماء والشعراء والتجار القادمين من الشرق.

ملحق رقم ٢
إنجازات هشام العسكرية

كتب ابن خلدون عن إنجازات هشام العسكرية ما يأتي:(١)

«ولما هلك عبد الرحمن كان ابنه الأكبر سليمان والياً على طليطلة وكان ابنه هشام على ماردة، وكان قد عهد له بالأمر. وكان ابنه عبد الله المسكين حاضراً بقرطبة فأخذ البيعة لأخيه هشام، وبعث إليه بالخبر فسار إلى قرطبة، وقام بالدولة، وغصّ بذلك أخوه سليمان فأظهر الخلاف بطليطلة، ولحق به أخوه عبد الله. وبعث هشام في أثره فلم يلحق. وسار هشام في العساكر فحاصرهم بطليطلة، وخالفه سليمان إلى قرطبة فلم يظفر بشيء منها وبعث هشام بن عبد الملك في أثره فقصد ماردة فحاربه عاملِه، وهزمه الله بغير أمان ودخل في طاعته فأكرمه.

ثم بعث سنة أربع وسبعين ابنه معاوية لحصار أخيه سليمان بتدمير فدوّخ نواحيها، وهرب سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها، ورجع معاوية إلى أبيه بقرطبة. ثم طلب سليمان العبور إلى عُدْوَة البربر بأهله فأجازه هشام، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه. وأقام بعدوة المغرب، وسار معه أخوه عبد الله. ثم خرج على هشام سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بطَرسوسة من شرق الأندلس، وكان قد التجأ إليها حين قُتِل أبوه. ودعا إلى اليمانية فملكها، وأخرج عاملها يوسف العبسي فعارضه موسى بن فرقوق في المضريّة بدعوة هشام. وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٠-٢٧٤.

يقظان بمدينة برشلونة، وملك مدينة سرقُسطة وواشقة، وكان هشام في شغل بأمر أخويه. فلما فرغ منهما بعث أبا عثمان عبيد الله بن عثمان بالعساكر إلى مطروح فحاصره بسرقسطة أياماً، ثم أفرج عنه ونزل بطرسوسة قريباً، وأقام بتُحيفة. ثم غدر بمطروح بعض أصحابه، وجاء برأسه إلى أبي عثمان فبعث به إلى هشام وسار إلى سرقسطة فملكها. ثم دخل إلى دار الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع فلقي العدو وظفر بهم، وفتح الله عليه وذلك سنة خمس وسبعين.(١) وبعث هشام العساكر مع يوسف بن نِحيَة إلى جليقة فلقي ملكها ابن مند، وهزمه، وأثخن في العدو.

وفي سنة ست وسبعين(٢) بعث هشام وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع وأثخن في نواحيها. ثم بعثه في العساكر إلى أربونة وجرَنْدة فأثخن فيهما. ووطئ أرض سلطانية، وتوغل في بلادهم، ورجع بالغنائم التي لا تُحصى. واستمدّ الطاغية بالبشكنس وجيرانه من الملوك فهزمهم عبد الملك، ثم بعث بالعساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى بلاد جليقة فأثخنوا في بلاد العدو، وغنموا ورجعوا. وفي هذه السنة هاجت فتنة بتَاكدنا، وهي بلاد رندة من الأندلس، وخلع البربر هنالك الطاعة فبعث إليهم هشام بن عبد القادر بن أبان بن عبدالله مولى معاوية بن أبي سفيان فأبادهم، وخرّب بلادهم، وفرّ من بقي منهم فدخلوا في القبائل، وبقيت تاكدنا قفراء خالية سبع سنين. وفي سنة تسع وسبعين بعث هشام الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في العساكر إلى جليقة فانتهى إلى ميورقة فجمع ملك الجلالقة واستمد بالملوك ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه، وأتبعه عبد الملك وتوغّل في بلادهم. وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد. واعترضهم عسكر الإفرنج فنالوا منهم بعض الشيء، ثم خرجوا ظافرين سالمين».

(١) أي سنة ١٧٥ هـ.

(٢) أي سنة ١٧٦ هـ.

ملحق رقم ٣
سيرة عبد الرحمن الأوسط وإنجازاته العسكرية

كتب ابن الأثير عن عبد الرحمن الأوسط ما يأتي:[١]

«هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي صاحب الأندلس. وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة وولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وكان أسمر طويلاً أقنى أعين عظيم اللحية مخضباً بالحناء، وخلف خمسة وأربعين ولداً ذكوراً. وكان أديباً شاعراً وهو معدود في جملة من عشق جواريه، وكان يعشق جارية له اسمها طروب وشُهر بها. وكان عالماً بعلوم الشريعة وغيرها من علوم الفلاسفة وغيرهم. وكانت أيامه أيام عافية وسكون وكثُرت الأموال عنده وكان بعيد الهمة واخترع قصوراً ومنتزهات وبنى الطرق وزاد في الجامع بقرطبة رواقَيْن، وتوفي قبل أن يستتم زخرفته وأتمّه ابنه. وبنى جوامع كثيرة بالأندلس. ولما مات ملك ابنه محمد فجرى على سيرة والده في العدل وتمّم بناء الجامع بقرطبة. وأُمّه تُسمى بهتر، ووُلد له مائة ولد كلهم ذكور. وهو أول من أقام أبهة الملك بالأندلس ورتّب رسوم المملكة وعلا عن التبدل للعامة فكان يُشبّه بالوليد بن عبد الملك في أبهة الملك. وهو أول من أجلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها وجعل يفصل للماء مصنعاً كبيراً يَرِدَه الناس».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص١١٧-١١٨.

وعن إنجازاته العسكرية كتب ابن خلدون ما يأتي:[١]

«غزا لأول ولايته إلى جليقية فأبعد وأطال الغيبة وأثخن في أمم النصرانية هناك ورجع...

نشأت الفتنة بين المضرية واليمانية واقتتلوا، فهلك منهم نحو من ثلاثة آلاف. وبعث عبد الرحمن إليهم يحيى بن عبد الله بن خالد في جيش كثيف، ليكفهم عن الفتنة فكفّوا عن القتال لما أحسوا بوصوله. ثم عاودوا الحرب عند مغيبه، وأقاموا على ذلك سبع سنين.

وفي سنة ثمان[٢] أغزا حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى ألبة والقلاع فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها. وفتح كثيراً من حصونهم، وصالح بعضاً على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً. وفي سنة ثلاث عشرة انتفض عليه أهل ماردة وقتلوا عامله فبعث إليهم العساكر فافتتحوها، وعاودوا الطاعة، وأخذوا رهائنهم وخرّبوا سورها، ورجعوا عنهم. ثم أمر عبد الرحمن بنقل حجارة السور إلى النهر فعاودوا الخلاف، وأسروا العامل، وأصلحوا سورهم، فسار إليهم عبد الرحمن سنة أربع عشرة، وحاصرهم فامتنعوا عليه. ثم بعث العساكر سنة سبع عشرة فحاصرها فامتنعوا، ثم حاصرها سنة عشرين وافتتحها، ونجا فلّهم مع محمود بن عبد الجبار منهم إلى ملت شلوط فاعتصم بها سنة عشرين ومائتين. فبعث عبد الرحمن العساكر لحصاره فلحق بدار الحرب، واستولى على حصن من حصونهم، أقام به خمسة أعوام حتى حاصره أدفونش ملك الجلالقة وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة خمس وعشرين.

وفي سنة خمس عشرة خرج بمدينة طُليطلة هاشم الضراب من أهل واقعة الربض، واشتدت شوكته واجتمعت له الخلق، وأوقع بأهل شنت بري[٣]، فبعث

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٢٧٧-٢٨٣.
(٢) أي سنة ٢٠٨ هـ.
(٣) أي شنتبرية.

عبد الرحمن العساكر لقتاله فلم يصيبوا منه. ثم بعث عساكر أخرى فقاتلوه بنواحي دورقة فهزموه، وقتل هو وكثير من أصحابه. واستمر أهل طليطلة على الخلاف. وبعث عبد الرحمن ابنه أميّة لحصارها فحاصرها مدة، ثم أفرج عنها ونزل قلعة رباح، وبعث عسكراً للإغارة عليها. وكان أهل طليطلة قد خرجوا في أتباعه إلى قلعة رباح فكمن لهم فأوقعوا به فاغتمّ لذلك، وهلك لأيام قليلة. وبعث عبد الرحمن العساكر لحصارها ثانياً فلم يظفروا وكمن المغيرون عليها بقلعة رباح يعاودونها بالحصار كل حين.

ثم بعث عبد الرحمن أخاه الوليد في العساكر سنة اثنتين وعشرين لحصارها، وقد أشرفوا على الهلكة، وضعفوا عن المدافعة فاقتحمها عنوة وسكن أهلها، وأقام إلى آخر ثلاث وعشرين، ورجع. وفي سنة أربع وعشرين بعث عبد الرحمن قريبه عبيد الله بن البَلَنسي في العساكر لغزو بلاد ألبة والقلاع، ولقي العدو فهزمهم، وكَثُر السبي والقتل. ثم خرج لذريق ملك الجلالقة، وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرنون بن موسى وقاتله فهزمه، وأكثر القتل في العدو والأسر. ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه. ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقة فدوّخها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم.

وفي سنة ست وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض سرطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة. ولقيهم العدو فصبروا حتى هزم الله عدوهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود. ووقعت بينه وبين بعض قواد عبد الرحمن ملاحاة، وأغلظ له القائد فكان ذلك سبباً لانتفاضه فعصا على عبد الرحمن، وبعث إليه الجيوش مع الحرث بن بزيغ فقاتله موسى، وانهزم وقتل ابن عمه. ورجع الحرث إلى سرقسطة. ثم زحف إلى تطيلة، وحاصر بها موسى حتى نزل عنها على الصلح إلى أربط وأقام الحرث بتطيلة أياماً. ثم سار لحصار موسى في أربط فاستنصر موسى بغرسية من ملوك الكفر فجاءه. وزحف

الحرث وأكمنوا له فلقيهم على نهر بلبة، فخرجت عليه الكمائن بعد أن أجاز النهر، وأوقعوا به وأسروه، وقد فقئت عينه. واستشاط عبد الرحمن لهذه الواقعة، وبعث ابنه محمداً في العساكر سنة تسع وعشرين.

وحاصر موسى بتطيلة حتى صالحه، وتقدم إلى بَنبَلونة فأوقع بالمشركين عندها، وقتل غرسية صاحبها الذي أنجد موسى على الحرث. ثم عاود موسى الخلاف فزحفت إليه العساكر فرجع إلى المسالمة، ورهن ابنه عند عبد الرحمن على الطاعة، وقبله عبد الرحمن وولاّه تطيلة فسار إليها، واستقرت في عمالته. ثم كان في هذه السنة خروج المجوس في أطراف بلاد الأندلس، ظهروا سنة ست وعشرين بساحل أشبونة فكانت بينهم وبين أهلها الحرب ثلاثة عشر يوماً. ثم تقدموا إلى قادس، ثم إلى أشدونة، فكانت بينهم وبين المسلمين بها وقعة. ثم قصدوا أشبيلية ونزلوا قريباً منها، وقاتلوا أهلها منتصف المحرّم من سنة ثمان وعشرين فهزمهم المسلمون وغنموا. ثم مضوا إلى باجة، ثم إلى مدينة أشبونة. ثم أقلعوا من هنالك، وانقطع خبرهم وسكنت البلاد، وذلك سنة ثلاثين. وتقدم عبد الرحمن الأوسط بإصلاح ما خربوه من البلاد، وأكثف الحامية بها. وذكر بعض المؤرخين حادثة المجوس هذه سنة ست وأربعين، ولعلها غيرها والله أعلم.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعث عبد الرحمن العساكر إلى جليقة فدوّخوها وحاصروا مدينة ليون، ورموا سورها فلم يقدروا عليه، لأن عرضه سبعة عشر ذراعاً فثلموا فيه ثلمة ورجعوا. ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم بن مغيث في العساكر إلى بلاد برشلونة فجاز في نواحيها، وأجاز الدروب التي تسمى السرب إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتهم العظمى وعاث في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية توفلس بن نوفلس بن نوفيل بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية، ويطلب مواصلته فكافأه عبد الرحمن عن هديته، وبعث إليه يحيى العزال من كبار الدولة. وكان مشهوراً في الشعر والحكمة فأحكم بينهما المواصلة، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس».

الفصل العاشر
مرحلة التراجع والتمهيد لقيام الخلافة الأموية
(٢٣٨-٣٠٠ هـ/٨٥٢-٩١٢م)

تلت مرحلة عبد الرحمن الثاني حقبة اختلال المركزية في قرطبة. وكان على خليفته التصدي لقضيتين مهمتين:

الأولى: تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي المفكّك الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب متعددة (سبق ووصفنا هذا المجتمع).

الثانية: العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة والإمارات الإسبانية في الشمال.

وهكذا كانت ظروف الإمارة في هذه المرحلة تحوي الكثير من التناقضات والرياح التغييرية التي تنتظر الوقت المناسب للانفجار. ولم يتمكن أي من الأمراء الذين تناوبوا على الإمارة بعد عبد الرحمن من ضبط الوضع والسيطرة على كامل الأندلس، ممّا ساهم في وصول عبد الرحمن الناصر الذي سنتكلم عنه بالتفصيل.

أما الأمراء الذين تتالوا على الحكم فهم:

أولاً – محمد بن عبد الرحمن
(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ/٨٥٢ - ٨٨٦م)

ما أن تسلّم الحكم حتى قام الأنصار والمؤيدون بمحاولة قلبه. وهكذا لم تعد الإمارة تمتد إلى أبعد من إقليم قرطبة. ففي الشمال أعلن موسى بن موسى، من المولدين، منطقة الثغر الأعلى، ولاية مستقلة عاصمتها سرقسطة. وفي غرب

الأندلس استقلّ عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي من المولدين. وفي الجنوب ركّز ابن حفصون، مولدي أيضاً، نشاطه في منطقة جبلية وعرة بين مالقة ورندة (حصن ببشتر) (Babastro).[١]

البربر من جهتهم سيطروا على طليطلة (موسى بن ذي النون)، وعلى جيان. وثار العرب على الحكم المركزي واتخذوا أشبيلية وقرمونة قواعد نفوذ لهم (بنو الحجاج من اليمنيين).[٢]

لقد كانت إمارة محمد وابنيه من بعده تمثّل انتكاسة لإنجازات الأمراء الأوائل. وأول عصيان جاء من طليطلة حيث سيطر المولّدون والمستعربون بتشجيع من قادة الدويلات الإسبانية الذين قام أحدهم، أردونو الأول Ordono،[٣] ملك أشتوريش، بإرسال جيش لمساعدة الثوار في سابقة لم تحصل قبلاً في الأندلس. لكن الأمير تمكن من سحق ثورة طليطلة والقوة التي أرسلها ملك أشتوريش. إلاّ أن مشكلة طليطلة ظلّت قائمة تنذر بالخطر بين الحين والآخر، وأضحت المدينة ملجأ مختلف التيارات السياسية والدينية قبل أن تقع تحت سيطرة بني ذي النون البربر وتتحوّل إلى إقليم مستقل بموافقة الأمير الأموي.[٤]

أعلنت ماردة أيضاً الثورة بزعامة عبد الرحمن بن مروان الجليقي، لكن الأمير قمع الثورة، فهرب الجليقي. والتجأ إلى أحد الحصون وتابع نشاطه الثوري الذي امتدّ حتى جوار أشبيلية، قبل أن يلجأ إلى بطليوس السنة ٢٧١هـ/٨٨٤م، حيث اعترف به الأمير حاكماً عليها وعلى المنطقة المجاورة لها[٥].

إلا أن الثورة الكبرى والتي اعتبرت الأخطر هي ثورة عمر بن حفصون المولد وذلك بسبب شخصية صاحبها. لكن الأمير أرسل وزيره هاشم فتمكن من القبض على ابن حفصون وسوقه إلى قرطبة. غير أنه

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٤.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٨٠-٢٨١.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣١٢.
(٥) المرجع نفسه.

ارتكب الخطأ الذي ارتكبه مع الجليقي فعفا عن ابن حفصون وعيّنه في منصب هام في الجيش ليشارك في العمليات ضد المتمردين فاستغل الفرصة وعاد إلى قلعته في ببشتر وأعلن الثورة مجدداً.[1]

ثانياً: المنذر بن محمد
(٢٧٣ - ٢٧٥ هـ/٨٨٦ - ٨٨٨م)[2]

تسلّم من والده إرثا ثقيلاً من المشكلات، بعد أن بلغ التمزق السياسي والحركات الانفصالية أشدّهما، كذلك المؤامرات التي زحفت إلى القصر حيث دبّر الوزير هاشم بن عبد العزيز ضربة موجعة أدت إلى وفاة الوزير.

بهذا الوقت قويت حركة ابن حفصون فأخذ المولّدون يتوافدون إليه بعد أن اتخذت شكلاً من الحكومة الثورية لم يستطع الأمير القضاء عليها بسبب وفاته المبكرة.

ثالثاً: عبد الله بن محمد
(٢٧٥ - ٣٠٠ هـ/٨٨٨ - ٩١٢م)

انتقل الحكم إليه من دون عراقيل، ربما بسبب التركة الثقيلة من المشكلات والأخطار والثورات والمؤامرات. العلاقة مع ابن حفصون بدأت بمعاهدة سلمية تداعت بعد أشهر قليلة، فاستأنف الثائر الخطير حركته ضد الأمير، فوسع دائرة نفوذه شمالاً واستولى على أستجه. إلاّ أن محاولته لاحتلال قرطبة فشلت فاعتمد المهادنة كونه بحاجة لها. كما أنه تصدى لثائر مجاور لمنطقته وقتله وأرسل رأسه للأمير في محاولة للتقرب منه.[3]

وبعد سنتين (١٧٨ هـ/٨٩١م) عاد ابن حفصون لتصعيد الحرب المسلحة بعد أن أعاد تنظيم قواته، وشن هجوماً على إقليم جيّان، وتقدم حتى مشارف العاصمة ليفاجئ الأمير بحرب العصابات التي اعتمدها. واستنفر الأمير كل طاقاته للدفاع عن عاصمته التي أشاعت فيها هجمات ابن حفصون الذعر.

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤٣.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٥٦.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٨٨-٢٨٩.

كلف الأمير سلاح الفرسان بقيادة أبي العباس بالتصدي للهجمات، فتمكن من تشتيت الثوار الذين هربوا إلى الجبال المجاورة، فاستعاد سيطرته على أستجه وما جاورها. وهذا ما ساهم في تحجيم ابن حفصون واختلال مركزه في أذهان أنصاره. كما أعطت هذه المعركة دعماً جديداً للأمير في قرطبة من دون أن تتمكن من القضاء على ابن حفصون الذي سيظهر مجدداً[1].

ثم انصرف الأمير إلى معالجة قضية أشبيلية فتمكن من إخضاعها. وكانت أشبيلية، المدينة النائية حيث تزدحم فيها القبائل العريقة والنافذة، إلى جانب عدد كبير من المولدين والبربر. لكن الزعامة الحقيقية فيها كانت معقودة للعرب بقيادة بني الحجاج الذين صنعوا أحداثها رغم أن بواكير ثورتها لم ترتبط مباشرة بهم. وقد أرسل الأمير حملة كبيرة إلى أشبيلية بقيادة ولده المطرّف أوقعت بالثوار هزيمة من دون أن تحسم المشكلة نهائياً. لذلك اتفقت إمارة قرطبة مع أبرز زعماء أشبيلية (إبراهيم بن الحجاج) من قبيلة لخم اليمنية على أن يحكم المدينة في ظل وصاية محدودة للأمير، فنشأت بذلك دويلة شبه مستقلة على مقربة من العاصمة دامت أعواماً، وبقيت حتى قيام الخلافة الأموية.[2]

وهكذا تراجع نفوذ قرطبة تدريجياً وفقدت مركزيتها السياسية والوهج الذي تألقت به في ظل الأمراء الأوائل.

إنما نجد من الخطأ الفادح وضع مسؤولية الانهيار السياسي على عاتق أمراء هذه المرحلة، خاصة الأمير عبد الله الذي عمل جاهداً خلال ربع قرن بكل كفاءة وذكاء. لكن المرحلة التي جاءت به إلى العرش كانت غير عادية وتحتاج إلى رجل فذ وحاكم غير عادي. فالأندلس لم يعد بالإمكان أن تُحكم من قبل أقلية عربية ذات مزاج شرقي وطبيعة لا زال فيها من البداوة نصيب كبير، لأن فئات أخرى تطلعت إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به معتمدة على تفوقها البشري وارتباطها التراثي القديم بالبلاد.

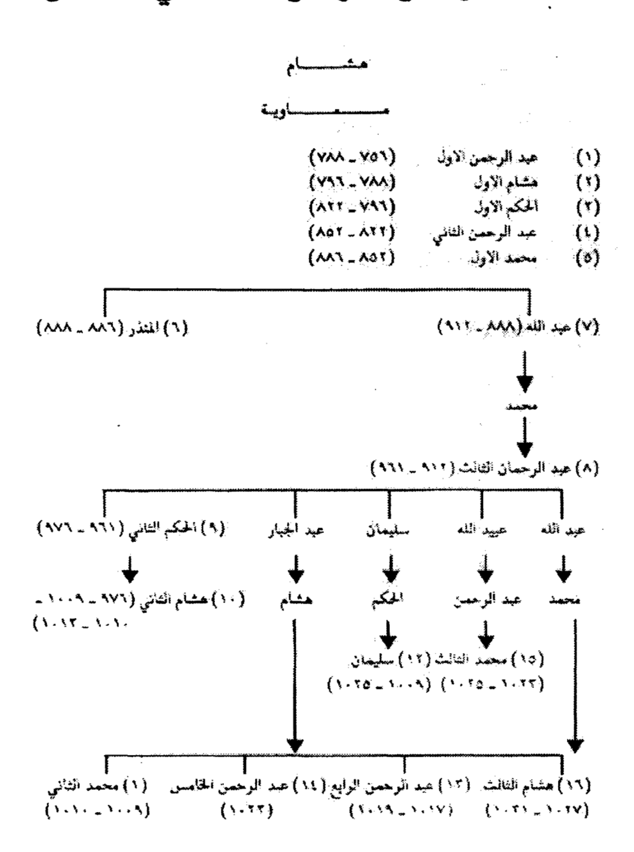
---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص٢٨٨-٢٩٦.

(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٢٧١-٢٧٤.

ملحق رقم ٤

لائحة الولاة والأمراء والخلفاء في الأندلس



الفصل الحادي عشر
الخلافة الأموية في الأندلس
(٣٠٠-٣٥٠ هـ/٩١٢-٩٦١م)

كانت الإمارة في الأندلس غارقة في الفوضى لمّا آلت إلى الأمير عبد الله جدّ عبد الرحمن الثالث السنة ٨٨٨م. وكانت الأخطار تحوطها عندما سلّمها إلى حفيده عبد الرحمن من دون أعمامه وأعمام أبيه، وكانوا أحق منه بها شرعاً. فالثائرون كثر، ونار المتغلبين مضطرمة في كل الأندلس، حتى خُيّل أن اعتلاء الإمارة كان ضرباً من المغامرة الفاشلة.(١)

كان عبد الرحمن يتيم الأب، متوقد الذكاء، يتحرّق شوقاً لتوحيد دولة الأندلس. اتُّهم أبوه محمد بمداخلاته مع ابن حفصون الثائر،(٢) والذي اختلفت الروايات حول قاتله. فمنهم من يقول إنه والده عبدالله الذي كان كثير الشكوك في من حوله، ومنهم من يقول إنه أخوه الذي كان قلبه يتأجج حسداً من ولي العهد أخيه محمد.

كان عبد الرحمن في الثالثة والعشرين من عمره عندما ارتقى الإمارة، فقبل به الجميع ولا سيما من كان لهم الحق في الاستخلاف وذلك:

١ - إما عن قناعة بضرورة احترام إرادة جدّه عبد الله الذي قرّبه منه ورمى بخاتمه إليه في مرضه الأخير كعلامة لاستخلافه.

٢ - وإما لأن عبد الرحمن هو الوريث الشرعي لوالده المقتول وصاحب الحق في ولاية العهد الرسمية.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٧٧.

(٢) مسيحي ارتد إلى الإسلام ثم قام بثورة عليهم.

٣ - إما لأن اعتلاء الإمارة في قرطبة أصبح لا قيمة له بمجرد أن أصبحت طاعة البلاد كلها باستثناء قرطبة إسميــة لا فعلية.

وهكـذا أصبـح أمير قرطبـة. وبمـا أن الفوضى كانت قد دبّت في الأندلس، فقد قرّر أن يعيدها إلى وحدتها التي كانت عليها في عهد أمراء بني أمية الأقوياء. لذلك استعمل الشدّة في سياسته حيناً واللين حيناً آخر كي يصل إلى غايته.[١]

أوّلاً: إخضاع الأندلس

اتّصف عبد الرحمن بالعزم والشجاعة والفطنة، وكان لديه عمل وواجب ضخم عليه القيام بهما، وكانت آماله كبيرة. إنه رجل الساعة. ولاسترداد الضائع كان عليه أن يحارب:

أ - المولدين: الذين كانوا يطمعون في إزالة الإمارة الأموية في قرطبة والحلول محلها، ثم القضاء على الحكام العرب وإبدالهم بحكام وطنيين. وقد قام بهذه الثورة ابن حفصون.

ب - بني مروان الجليقي في الثغر الأدنى Merida وبني حجاج في أشبيلية، هؤلاء الذين طمعوا بالثروة والرخاء فاقتطعوا من الإمارة الضعيفة المفكّكة مناطق استقلوا فيها. وقد مكّنهم غنى هذه المناطق من إقامة دويلة فيها.

ج - العصاة الصغار الذين اقتنعوا بحصن أو بعدد من الحصون أقاموا فيها وبسطوا سلطانهم عليها وعلى المناطق القريبة منها.

لقد قام عبد الرحمن بهذه الحروب التحريرية على مراحل وطيلة نصف قرن من مدّة حكمه.

ثانياً: المراحل

أ - المرحلة الأولى

إخضاع أشبيلية وقرمونة:

استعمل عبد الرحمن في فتوحاته اللين والشدة. أرسل الكتب إلى العمال أولاً في مختلف أرجاء الأندلس وأطرافها للطاعة والاستسلام فأذعن له البعض وأوّلهم الأمير

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٩٨-٢٩٩.

محمد التجيبي أمير سرقسطة. ثم تتابعت البيعات والاستسلام في مختلف مدن الأندلس حتى استبشر الناس خيراً وأحبّوه لما أبدى من ضروب التسامح للخارجين عن السلطة المركزية بعد أن استسلموا له. أما باقي الثوار الذين رفضوا الطاعة فجهّز الحملات ضدهم.(١)

وفي أول حملة كبيرة قام بها افتتح سبعين حصناً من الحصون التي تتحكم فيها الإدارة مباشرة. ثم راحت قاعدته تتسع شيئاً فشيئاً نحو الشمال عندما قتل أحد الثوار في قلعة رباح، ونحو الجنوب الغربي عندما استسلمت له مدينة أستجة Ecija التي كانت منطلق الثوار إلى قرطبة، فهدم جسرها وأسوارها. عند ذلك أعلن عرب Elvira ولاءهم وبايعوه بالإمارة.(٢)

١ - إخضاع أشبيلية:

لم يتبع عبد الرحمن سياسة جده، أي الاعتراف بالأمر الواقع لقاء حفنة من المال، بل بدّل في هذه السياسة عندما أنس من قوة إمارته، وعندما شعر بأن الخلاف دبّ في صفوف الثائرين. فعندما شعر أنّ مملكة آل حجاج في أشبيلية وقرمونة قد انقسمت إلى قسمين متناحرين، رأى أن الفرصة ثمينة لكي يخضعهما.

وعندما رفض حاكم أشبيلية ابن مسلمة المثول بين يديه أعلن الحرب وحاصره بجيشه الذي انضم إليه جيش صاحب قرمونة وقاتله بضراوة. استنجد صاحب أشبيلية بابن حفصون الثائر المخيف. لكن عبد الرحمن غلبه وغلب الجيشين معاً، وأرغم صاحب أشبيلية على الاستسلام السنة ٩١٣م.(٣)

٢ - إخضاع قرمونة:

أما والي قرمونة فقد فكّر باحتلال أشبيلية بعد أن عيّن عبد الرحمن والياً عليها. وكان قد فكر بأن حكم المدينتين يعود إليه عن طريق الإرث من أبيه وأخيه،

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٩٩.

(٢) Una Gronica Anomina, Levie Provincal Abd Al Rahman III Al Nasir p:38-39.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٠-٣٠٢.

ولا سيما للمساعدة التي قدمها للأمير عند فتحها. ولكنه أدرك أنه لا يمكنه حتى الدفاع عن قرمونة نفسها وسوف تؤخذ قهراً، وأن قوة الأمير هائلة، لذلك جاء قرطبة مستسلماً السنة ٩١٤م.

ب - المرحلة الثانية

إخضاع ابن حفصون:

كان على عبد الرحمن بعد ذلك التوجه نحو الجنوب لإخضاع المولدين بقيادة ابن حفصون. ولكي يصل إلى ببشتر، قاعدته الأساسية، كان عليه أن يقضي على العُصَاة الصغار أولاً، الذين كانت حصونهم تحيط بحصون ابن حفصون الذي كان يريد تحرير بلاده من العرب المستعمرين، لذلك كانت له اتصالات مع كل أعداء الأمويين في الخارج. كما أجرى اتصالات مع الأدارسة في الشمال الإفريقي وأخرى مع الفاطميين أصحاب الدولة القوية في المغرب.(١)

١ - الغزوة الأولى:

في ربيع ٩١٣ قام عبد الرحمن بالغزوة الأولى، بعدما خطط لها في شكل قوس من جنوب شرقي قرطبة في منطقة حيان حتى حصن شلوبينية على البحر.

استغرقت الغزوة ثلاثة أشهر، وكانت النتيجة إخضاع كثيرين من أتباع ابن حفصون، فقتل منهم من كانوا مسيحيين وألحق الآخرين بجيشه. وقد أبقى العديد من الحصون التي ملأها بجنده، ودمر الباقي.(٢)

٢ - الغزوة الثانية:

قام في السنة التالية، أي السنة ٩١٤م، بغزوة ثانية بلغ خلالها عمق المنطقة التي يسيطر عليها ابن حفصون. ووصل إلى البحر وسيطر على كل المدن الساحلية من المنكب حتى الجزيرة الخضراء، وبذلك قطع كل اتصال لابن حفصون مع شمالي أفريقيا حيث كانت تأتيه الإمدادات.(٣)

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٢٨٠-٢٨٤.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٣.
(٣) المرجع نفسه.

توقّف عبد الرحمن بعدها سنتين بسبب الجفاف الذي حلّ بالأندلس، والذي منع عنه المؤن لجيشه والعلف للخيل. لذلك اكتفى بحملات عسكرية صغيرة كافية لوقف ابن حفصون حيث هو ولمنعه من استعادة ما فقد من مواقع استراتيجية.

في هذه الأثناء مات ابن حفصون الشيخ السنة ٩١٧م، فحزن المسيحيون عليه وتنفّس عبد الرحمن الصعداء. ورغم أن الثورة دامت عشر سنين بعد موته، فقد تناحر أولاده مع بعضهم البعض ولم يتفقوا لمواصلة عمل أبيهم التحريري فضعفت الثورة.

وإن بقيت الثورة طيلة هذه المدة بعد وفاة ابن حفصون فلأن بعض المولدين قد ارتبطوا بها بشدة، فقاوموا فتوحات الأمير بضراوة، ولأن المنطقة الجبلية، حيث حصن ببشتر، كانت منيعة طبيعياً.

من جهة أخرى، حاك سليمان، أحد أولاد ابن حفصون، مؤامرة قتل خلالها أخاه الأكبر جعفراً السنة ٩٢٠م.[1] لذلك لم يغفر المسيحيون لسليمان قتله جعفر الذي كان مسيحياً فتآمروا عليه. وهنا انتهز عبد الرحمن هذه التفرقة وانقض على سليمان في عقر داره وقتله السنة ٩٢٧م. ولم يترك الوقت لأخيه حفص الذي خلفه لكي يستعيد قواه، بل راح يفرض حصاراً دائماً على حصن Babestro. ولم يطل الوقت حتى استسلم حفص ودخلت قوات عبد الرحمن الحصن السنة ٩٢٨م.

وهكذا قضى الأمير على ابن حفصون وعلى ثورته التي دامت ٥٠ عاماً، والتي كان خطرها، ليس فقط بمدتها، بل بقربها من مركز الخلافة، الأمر الذي جعلها تهدّد عرش الأمويين بالذات. وأخطر ما فيها أن ابن حفصون كان يطمع بإمارة الأندلس، يساعده في ذلك التفاف غير الراضين على الوضع حوله من مولدين ومستعربين، والذين كانوا يبغون، ليس فقط إبعاد الأمير عن العرش، ولكن القضاء على الحلم العربي، وحتى تغيير دين الحاكمين. لذلك يمكن تبرير طريقة المعاملة لبني حفصون.

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

فبينما كان يعامل باقي العصاة بالحسنى إذ ينقلهم إلى قرطبة ويعطيهم المناصب العالية، كان يقتل بني حفصون ويمثّل بأجسادهم حتى بعد موتهم.

لذلك، ما أن انتهى من بني حفصون، حتى أعلن تقلّده منصب الخلافة. وهذا الانتصار كان المبرر الكافي أن يلقب بالخليفة، آخذاً لقب «الناصر» لدين الله أسوة بالخلفاء العباسيين في بغداد.(١)

ج - المرحلة الثالثة

إخضاع الثغور وشرقي الأندلس.

لم يغيّر عبد الرحمن سياسة جده عبدالله بخصوص حكام الثغور. فالمهم أن يرسلوا له العون أثناء حملاته، حتى ولو اختلفوا في ما بينهم واعتدوا على الأراضي الأميرية ذاتها. فقد كان هؤلاء الحكام شبيهين بالأُسَر المالكة التي لها شأنها بالإمارة والتي تنتمي إلى عائلات إقطاعية قديمة أو إلى محاربين ارتقوا إلى مرتبة الملك بفضل شجاعتهم وبلائهم الحسن في الحرب. لذلك تركهم عبد الرحمن أحراراً في قطاعاتهم ولم يحاربهم طيلة مرحلة إخضاع الثوار، لأنه كان يخاف تحالفهم مع الدويلات المسيحية ضده بسبب قربهم منها وبعدهم عن العاصمة قرطبة. إنما ولما انتهى من العصاة، وخاصة ابن حفصون، تحوّل إلى إخضاع الثغور في الشمال وباقي المناطق سالكاً في إخضاعها خطة بسيطة، وهي بسط سلطانه على الواحد تلو الآخر، مبتدئاً بالأقرب منالاً في الغرب ومنتهياً بالأبعد في أقصى الشمال الشرقي. وطريقته هي الحصار المستمر حتى الاستسلام.(٢)

١ - إخضاع بطليوس والثغر الأدنى:

كانت مدينة ماردة Merida الواقعة على نهر آنو في بادئ الأمر مركز الثغر الأدنى، الذي ما لبث أن انتقل إلى مدينة بطليوس التي بناها وحصّنها المولد ابن مروان

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

(٢) د. بيضون، مرجع سابق، ص٢٧٩-٢٨٠.

الجليقي الذي حكمها وأنشأ أسرة حاكمة من بعده. وجاورت بطليوس ميدنتان في الغرب الجنوب حكمتهما أسرتان من المولدين وهما:

١ - باجه Beja غربي بطليوس.

٢ - أكشونبة Oscanoba غلى المحيط.

وقد كوّنت هذه المدن الثلاث قوة موحّدة ضد كل معتد.

قرّر عبد الرحمن مهاجمة هذا الثغر السنة ٩٢٨م، معتمداً خطة احتلال المراكز المحيطة به. لذلك احتل ماردة Merida، ولم يطل به الوقت حتى قام السنة ٩٢٩م بحملة كبيرة قادها بنفسه ضد بطليوس. ولما رأى أن حصارها سوف يطول نظراً لقوة تحصيناتها، ترك أمرها لأحد قواده بعد أن أحرق كل المزروعات التي حولها. وراح يضرب الحصار على باجه التي استسلمت بعد أن أنهك سكانها العطش وأودى بحياة الكثيرين منهم.

أمام هذا الواقع خاف صاحب أكشونبة من المصير نفسه له ولشعبه، فراح يعلن خضوعه لعبد الرحمن الذي رضي بأن يبقى حاكماً للمدينة نزولاً عند رغبة أهلها. أما بطليوس التي أنهكها الحصار، فقد استسلم صاحبها بعد قتال ومقاومة مريرين فنقل هو وأصحاب القرار من رفاقه إلى قرطبة حيث أعطوا مراكز مهمة.[1]

٢ - إخضاع طليطلة وشنتبرية أو الثغر الأوسط:

طليطلة هي عاصمة القوط القديمة، الواقعة على نهر تغو ومنبع الثورات والحركات التحريرية المتكررة ضد الأمراء الأمويين. لذلك كانت من أهداف عبد الرحمن الأولى ولا سيما أنها اشتهرت بعصيانها المتكرر على الأمويين وباستقلالها التام في أثناء الحرب الأهلية.

ولم يرد عبد الرحمن القضاء عليها قبل أن يدعو أهلها للإذعان والطاعة. ولذلك أرسل إليهم أعوانه الكبار للمفاوضة. ولما كان استقبالهم لأعوانه هؤلاء غير مرضٍ هاجمهم بحملة عسكرية قوية، فدحرهم إلى حصنهم الذي كانوا قد أقاموه بالقرب من المدينة للدفاع عنها، ولشن الهجمات على

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

المناطق الخاضعة للإمارة. وبما أن المدينة كانت محصنة تحصيناً شديداً وإخضاعها سوف يأخذ وقتاً طويلاً، راح يحاصرها تدريجياً مضيّقاً عليها الخناق. وفي نفس الوقت أمر ببناء مدينة جديدة على مقربة منها تدعى «الفتح»، وأقام فيها الأسواق وكل متطلبات المدينة، ثم عاد إلى قرطبة.

دام الحصار سنتين، استنجد أهالي طليطلة خلاله بالمسيحيين في الشمال. ولكن، ولما لم يستطع هؤلاء نجدتهم وتحريرهم، خرج زعماء المدينة مستسلمين وطالبين الأمان عليهم وعلى سكان المدينة. قَبِل عبد الرحمن بخضوع هؤلاء ودخل المَدينة فهدم ما ارتأى هدمه وأقام فيها قصبة تكون مقراً للقادة، وذلك السنة ٩٣٢م.

وعلى أثر سقوط طليطلة قرّر عبد الرحمن توجيه ضربة قاضية للبربر الذين يقطنون شنتبرية ووبذة واقليش، وقد استقلوا بهذه المدن وأعلنوا العصيان مراراً على الأمير عبد الله والأمير عبد الرحمن بالذات. ففي السنة ٩٣٣م، ضربهم الأمير ضربة قاضية فاستسلم منهم الكثير. واستطاع البعض من زعمائهم الفرار واللجوء للثغر الأعلى حيث انضموا للثائرين فيه ضد الخليفة.

٣ - إخضاع سرقسطة والثغر الأعلى:

الثغر الأعلى، ونعني به مدينة سرقسطة الاستراتيجية الواقعة على نهر Ebro والمنطقة المحيطة بها شمالاً حتى مملكة بمبولونا Pamplona، ثم المنطقة الجنوبية التي تحاذي منطقة الثغر الأوسط.

شكّل العرب أقلية في هذه المنطقة لبعدها عن قرطبة. أما سرقسطة فقد سكنها العرب بكثرة، وتوصلت أسرة بني قُسي الإقطاعية إلى أن تسيطر على المدينة وتستقل فيها. ولكي يضعف الأمير عبد الله هذه الأسرة، أقام في الحصون القريبة منها على الحدود ضد المسيحيين عائلة بني تُجيب وكلفها محاربة بني قسي لقاء مبلغ من المال. لذلك ضعفت أسرة بني قسي وأُبعدت عن المدينة إلى أقصى الشمال الشرقي من المنطقة، وحلت مكانها أثناء الحرب الأهلية أسرة بني تجيب. لكن هذه

الأخيرة، وعندما لم يعد بإمكان الأمير دفع المال المتفق عليه لها، أقدمت على احتلال كلّ أملاك الإمارة الأموية في الثغر الأعلى.

وعندما تولى عبد الرحمن عرش الإمارة كانت أسرة بني قسي قد تلاشت لتترك المجال لأسرة بني الطويل التي ظهرت حديثاً على مسرح الأحداث. وراح زعماء بني الطويل يحتلون آخر معقل لبني قسي، وهو مدينة وشقه ويبسطون سلطانهم على مدينة بربشتر في الوسط وعلى مدينة طرطوشة القريبة من الشاطئ.

وكانت سياسة عبد الرحمن تقضي بترك الأسر تتحارب بعضها مع بعض لتضعف أو تقيم مع بعضها البعض علاقات ود وصداقة وحتى مصاهرة مع المسيحيين، ما دامت المعونة العسكرية تقدم له عندما يقوم بالغزو في الشمال.

وبعد سقوط طليطلة غيّر عبد الرحمن سياسته هذه، ولم يعترف بسلطة أي أمير في منطقته إلاّ إذا أتى بين يديه وقدم له الطاعة. وهكذا أتاه أمراء بني تجيب وبني الطويل الذين ثبتهم على مقاطعاتهم لقاء دفع ضريبة إضافية على المعونة العسكرية.

دُفعت هذه الضريبة لمدة سنتين ثم دبّ الخلاف بينهم وبين الأمير الذي اتهم صاحب سرقسطة بالنكوص عن دفع الضريبة وعن تقديم المعونة العسكرية. حاصر عبد الرحمن المدينة التي كان يدافع عنها صاحبها ابن هاشم التُجيبي، وقد انضم إليه كل من أمراء الثغر الأعلى من بني تجيب وبني الطويل. ولكن الأمير انتصر عليهم واستولى على سرقسطة وعلى كل مراكز الثغر، فعاملهم معاملة إنسانية، إذ أبقى الكثيرين منهم في مراكزهم شريطة تقديم المعونة العسكرية والالتزام بدفع الضريبة الإضافية. لقد أبقاهم في مراكزهم لأنه بحاجة إليهم ضد الدويلات المسيحية التي هي تهديد متواصل لإمارته. وبقي يتبع هذه السياسة حتى نهاية خلافته.(١)

---

(١) ملاحظة: المعلومات عن إخضاع الثوار مستقاة من ابن خلدون. لذلك للمزيد من المعلومات يمكن مراجعة ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٩٨-٣١١.

ملحق رقم ٥
سيرة عبد الرحمن الناصر

كتب ابن كثير عن عبد الرحمن الناصر ما يأتي:[١]

«صاحب الأندلس، وكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر، وله من العمر يوم مات ثلاث وسبعون سنة، وترك أحد عشر ولداً. كان أبيض حسن الوجه عظيم الجسم طويل الظهر قصير الساقين. وهو أول من تلقّب بأمير المؤمنين من أولاد الأمويين الداخلين إلى المغرب، وذلك حين بلغه ضعف الخلفاء بالعراق، وتغلُّب الفاطميين، فتلقب قبل موته بثلاث وعشرين سنة. ولما توفي قام بالأمر من بعده ولده الحكم وتلقب بالمستنصر. وكان الناصر شافعي المذهب ناسكاً شاعراً، ولا يعرف في الخلفاء أطول مدة منه، فإنه أقام خليفة خمسين سنة، إلاّ الفاطمي المستنصر بن الحاكم الفاطمي صاحب مصر، فإنه مكث ستين سنة».

وكتب عنه ابن الأثير ما يأتي:[٢]

«عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله صاحب الأندلس الملقب بالناصر لدين الله. فكانت إمارته خمسين سنة وستة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة. وكان أبيض أشهل حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين، كان ركاب سرجه يقارب الشبر، وكان طويل الظهر، وهو أول من تلقب من

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٥٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٧٠.

الأمويين بألقاب الخلفاء وتسمى بأمير المؤمنين. وخلف أحد عشر ولداً ذكراً. وكان من تقدّمه من آبائه يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف. وبقي هو كذلك إلى أن مضى من إمارته سبع وعشرون سنة. فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق، وظهور العلويين في أفريقيا ومخاطبتهم بأمير المؤمنين، أمر حينئذ أن يلقب الناصر لدين الله، ويخطب له بأمير المؤمنين».

الفصل الثاني عشر

استراتيجية الخلفاء تجاه الممالك الإسبانية

مقدّمة

بعد توحيد الأندلس الذي استغرق ١٨ سنة من الجهود (٣٠٠ - ٣١٨ هـ) أصبح عبد الرحمن مؤهلاً لإعلان نفسه خليفة. فبعد القضاء على ابن حفصون وجد أن اللقب الذي توارثه عن أسرته أي الإمارة لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأجاز لنفسه لقب الخلافة تيمّناً بأجداده الأمويين خلفاء دمشق.

أولاً - إعلان الخلافة

كان عبد الرحمن مدفوعاً في إعلانه الخلافة باعتبارات عدة:

١ - إعادة الوحدة السياسية للأندلس.

٢ - انحدار سمعة الخلافة العباسية إلى الحضيض وتحوّلها مطية لأطماع القادة الأتراك، رغم الأهمية الدينية والدنيوية التي يجب أن تتمتع بها.

٣ - ظهور دولة إسلامية أخرى سبقت الأندلس إلى الخلافة، هي الدولة الفاطمية المعروفة بعدائها للعباسيين وللأمويين.

٤ - اعتبار داخلي يقضي بإعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية بما للخلافة من تأثير معنوي يتعدّى لقب الإمارة.

٥ - الظروف الداخلية والخارجية التي كانت متاحة لإعلان هذه الخطوة.

وبالفعل، ومنذ الثاني من ذي الحجة السنة (٣١٦-هـ/٩٢٩م) أصبح عبد الرحمن أول خليفة أموي في الأندلس وغلب عليه لقب «أمير المؤمنين الناصر لدين الله».

ثانياً – استراتيجية عبد الرحمن الناصر تجاه الممالك الإسبانية[1]

بعد توحيد الأندلس وإعلان الخلافة وقمع الثورات أصبحت الكلمة الفصل في يد عبد الرحمن مع جيش مِطْواع جلّه من الصقالبة الموالين للخليفة. تطلّع عبد الرحمن إلى الشمال الإسباني حيث كانت الدويلات المسيحية آخذة في الاتساع وازدياد النفوذ. وكانت بقايا القوط الذين التجأوا إلى الشمال قد أقامت في أقاليم جليقية وقشتالة. وكان رائد المجموعة التي اعتصمت في هذه المنطقة الجبلية رجل يدعى بلاي Pelayo اتّخذ مقرّه في كهف أونجا Cavadongo أو صخرة بلاي كما أسماها العرب. ومن هذا الكهف بدأت فكرة القضاء على الحكم العربي وتحرير إسبانيا. وحملت لواء التحرير أقدم دويلات إسبانيا التي كانت جليقية نواتها الأولى وأصبحت تعرف بمملكة ليون أو أستورقة بزعامة ألفونسو الأول (حفيد بلاي).

لقد ساهمت الطبيعة الجبلية الوعرة، إضافة إلى مشكلات الحكم العربي في الأندلس، في تمدّد هذه الدويلات الإسبانية وانتظامها في وجه الحكم العربي تمهيداً لتحرير إسبانيا نهائياً ضمن ما سمي بـ «حركة الاسترداد المسيحية».

كما أن الحرب الأهلية التي وقعت في الإمارة الأندلسية، ودامت قرابة نصف القرن الأخير من عصر الإمارة، أتاحت لدول مسيحية عدة التمركز والتعاظم بقرب الحدود الشمالية للأندلس.

أ – الدويلات المسيحية في شمال إسبانيا.

من أشهر هذه الدويلات:

١ – دولة قشتالة Castille

– هي كونتية ظهرت إلى الوجود خلال

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٢٨٤-٢٩٠.

الحرب الأهلية في عصر الإمارة ، وتركزت حتى أصبحت لها القيادة بين الدول في الشمال في الآونة الأخيرة في وجود العرب المسلمين في الأندلس.

- تقع هذه الكونتية في منطقة القلاع Castillas في السفوح الشرقية لجبال الكانتابريك على مقربة من مدينة Burgos الحالية. ولا تبعد كثيراً عن الحدود التي تدخل منها الجيوش العربية لغزو دولة أشتوريش Asturias. لقد أصبحت هذه المنطقة كياناً مستقلاً ودولة لها أهميتها يحكمها وفق التسمية العربية قمط Comte.

- وفي عهد ألفونس الثالث، عهد الحروب الأهلية في الأندلس، طلب إلى أهالي الشمال لا سيما قشتالة أن ينزلوا إلى السهول لإعمارها. وهناك بنوا مدناً جديدة منها Burgos ثم شنت أشتبين San Esteban de Gornos على ضفة نهر Duero الشمالية. وفي عهد الخلافة الأموية حكم قمط Comte قشتالة القديمة كل هذه المناطق الجديدة وأصبحت دولة لها شأنها وقوتها الحربية.

٢ - دولة ليون Leon:

- في بداية عصر الإمارة أصبحت دولة أشتوريش تعرف باسم ليون. وهذا التغيير لم يكن شكلياً بل كان مرهوناً بذلك التطور الطبيعي الذي حصل بسبب الحروب الأهلية بين المسلمين. فسكان الجبال قاموا بعملية إعمار في السهول خوفاً من هجمات المسلمين على المستوطنات المسيحية سواء كانت في الجبال أو في السهول.

- وعندما رأى ألفونسو الثالث أن العاصمة Oviedo أصبحت بعيدة عن المستوطنات الجديدة في السهول نقلها إلى مدينة ليون الرومانية القديمة الأكثر قرباً من حدود المسلمين، والواقعة على الطريق بين بوردو وأشترقة Astarga، وهي طريق رومانية رئيسية للمواصلات.

- واتخذ ملوك ليون لقب إمبراطور لأنهم أقوياء واعتبروا أن لهم حق السيادة على تلك الدويلات التي ساعدتهم وكان لها شأنها في تاريخ القوى المسيحية الإسبانية مثل بمبلونا.

٣ - دولة بمبلونا Pamplona:

- تقع في أقصى الغرب من جبال البيرينه. أفادت من ضعف الإمارة الأموية في قرطبة في حروبها الأهلية ووطّدت سلطتها ولعبت دوراً هاماً في هجومها مع باقي الدويلات المسيحية على المسلمين.

- لقد كانت بمبلونا نقطة انطلاق للعرب على بلاد غالة قديماً، وكان لها مركزها الاستراتيجي الهام. أهملها العرب لمّا احتدم النزاع القبلي والعنصري في الأندلس. وعلى أثر اندحار العرب في بلاط الشهداء، استغل أهل تلك المنطقة الفرصة وأعلنوا عصيانهم على العرب وقتلوا قادة حملات عدّة وجّهت ضدهم، وقد ساندتهم أشتوريش ضد الحكم في قرطبة.

- صادق حكام بملبونا الكارولنجيين الذين كانوا يحكمون غالة من الشرق. وصادقوا بني قسي أصحاب الثغر الأعلى الإسلامي في سرقسطة وأتباع الأمير، كونهم كانوا يشعرون بضعفهم مقابل القوى التي كانت تحيط بهم، ولما شعروا بقوة دولة أشتوريش وقلة اهتمام الكارولنجيين بثغرهم. وبسبب المشكلات التي كانت تعصف بالإمارة في قرطبة، مالوا إليها وراح ملك بمبلونا يطلب مصادقتها.

٤ - الثغر الإسباني:

- هي الأملاك الكارولنجية التي تقع على الحدود الإسبانية، وكانت تشتمل على مقاطعات متعددة على رأسها برشلونة وامبورياس Ampurias. لقد كان هذا الثغر تحت سلطة قائد القوات العسكرية الذي بدوره يتعلق بسلطة كونتية سبتمانيا الواقعة في الجنوب الغربي من غالة.

- ولما شعر شارل الأصلع Charles Le Chauve ملك فرنسا بأنه من الخطر جمع هذه القوى في يد مركيز سبتمانيا، فصل الثغر عنها. ومع مرور الزمن، ولما شعرت برشلونة وباقي المقاطعات في إسبانيا بضعف الكارولنجيين، استقلّ ملوكها عنهم وحكموا ذاتهم بذاتهم.

ب - عبد الرحمن الناصر ودول الشمال الإسباني.

اتّبع عبد الرحمن في أول عهده سياسة اللين والمداهنة تجاه الممالك الإسبانية

لأن قوته لم تكن قد تركزت بعد. ولما قوي راح يغزو هذه الممالك ويبسط سلطان قرطبة عليها.

لكن أول احتكاك بين الجانبين كان في مطلع عهد عبد الرحمن إذ شن ملك ليون هجوماً السنة ٣٠١ هـ/٩١٣م على غرب الأندلس اقتحم خلاله مدينة يابرة التي أبيدت حاميتها. وتكررت عمليات الملك اليوناني أردونيو الثاني على الأقاليم الغربية للأندلس فيما كان الناصر غارقاً في مشكلاته الداخلية. إلاّ أن نجاح إحدى حملات أردونيو (٣٠٥هـ/٩١٦م) في احتلال مدينة ماردة (شرقي بطليوس) وتدمير الجيش الأموي بعد الاستيلاء عليها حملا الناصر على تغيير مخططاته العسكرية وتصميمه على توجيه ضربة انتقامية إلى الشمال.

وهكذا قاد عبد الرحمن الناصر حملة عسكرية (٣٠٨ هـ/٩٢٠م) إلى الشمال واقتحم بها معاقل أردونيو منتصراً عليه رغم مساعدة مملكة نافار له ومستولياً على مواقع عدة. هذه الحملة أعادت الحرارة إلى الجبهة الشمالية وأكّدت إمكان الحكم الأموي حماية حدوده الشمالية.

نافار من جهتها قامت بعملية عسكرية (٣١١ هـ/٩٢٣م) بقيادة ملكها شانجة الأول فاجتاحت بعض المواقع الأموية المتاخمة لحدودها، مما دفع بالناصر إلى قيادة حملة إلى عاصمتها (٣١٢ هـ/٩٢٤م) اعتبرت إحدى أنجح حملاته الشمالية، حيث حرّرت العديد من الحصون والمواقع في بلاد البشكنس.

١ - موقعة الخندق:

إلاّ أن الناصر، ورغم حنكته العسكرية، هزم في إحدى الحملات أمام عدوه راميرو الثاني ابن أردونيو وخليفته، وذلك في معركة «الخندق» بجانب مدينة «سانت مانكش» التي كانت أعظم موقعة بين عبد الرحمن من جهة وملوك ليون وقشتالة وبمبلونا من جهة أخرى. فقد أسفرت المعركة عن هزيمة كبرى للعرب كان لها وَقْعٌ عظيم، إذ أن قلة قليلة، بما فيها الخليفة، نجت من سيوف الأسبان. وهذا ما دفع الخليفة إلى عدم قيادة الحملات العسكرية بنفسه بعد هذه الموقعة[1].

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٩.

ومن أسباب هزيمة الخندق عدم التجانس داخل الجيش الإسلامي بين العرب والبربر والصقالبة. ويؤكد ذلك أن عبد الرحمن، عندما عاد إلى قرطبة، قبض على ما يقارب الـ ٣٠٠ من الفرسان وصلبهم في الساحة العامة، وهم من الذين خانوه أثناء المعركة، مثل أمية بن اسحق أحد أقربائه.

كان لهذا النصر رنّة فرح في إسبانيا وفي أوروبا وخاصة غالة. ولم تكن الدول الإسبانية موحّدة كالأندلس، لذلك دبّ الخلاف بين قادتها بسبب طلب كل منهم للزعامة والاستقلال.

احتدم النزاع بين قمط قشتالة وملك ليون عندما طلب الأول الاستقلال عن الثاني لأن دور قشتالة، التي تقع على حدود موقعة الخندق، كان حاسماً.

٢ - **بناء مدينة سالم:**

- انتهز عبد الرحمن النزاع وقام بغارات عديدة فأحرز انتصارات عدة وبنى مدينة سالم السنة ٩٤٦ في أقصى الشرق من الثغر الأوسط تجاه قشتالة. وقد قام ببناء المدينة قادة الثغور، لا سيما غالب الذي أوفده عبد الرحمن من قرطبة خصيصاً لذلك وأقامه قائداً للثغر الأعلى.

- في هذه الظروف مات رزمير الثاني السنة ٩٥١ فاصطدم ابنه أرذون بتحالف ضده، يتألف من قمط بمبلونا وقمط قشتالة. فانتهز عبد الرحمن الصراع وأغار على دولة ليون رغم انتصارها على التحالف وأجبرها على الاستسلام، فصالحه أرذون متنازلاً عن حصون عديدة. ثم لم يطل الأمر حتى انضمت قشتالة إلى هذه الهدنة.

- توفي أرذون الثالث السنة ٩٥٦ وخلفه أخوه شانجه الضخم(١) على عرش ليون ورفض الشروط التي فرضها عبد الرحمن فعادت الغارات تجتاح أراضيه. هزمه الناصر، مما زاد من ضعف مركزه الداخلي، فانتهز النبلاء في ليون الفرصة مع قمط قشتالة وخلعوه عن عرشه وأقاموا محله أرذون الرابع بطريقة الاقتراع.

- هرب الضخم إلى جدته طوطة ولية العرش في بمبلونة التي راحت تعمل

(١) دعي الضخم نظراً لسمنته.

لإعادته إلى عرشه، فوضعت يدها بيد الناصر الذي أرسل لها الطبيب اليهودي حسداي ليشفي حفيدها من السمنة، ثم ليدعوها إلى زيارة قرطبة. وقد اتخذت الإجراءات لتنفيذ الاتفاق في قرطبة السنة ٩٥٩م، فقام الناصر بغارة على ليون وكان برفقة الجند الملك المخلوع شانجة.

- في الوقت نفسه قامت بمبلونا بهجوم على قمط قشتالة لمنعه من مساعدة ملك ليون.

تم النصر للناصر وأعاد شانجة لملكه، واستطاعت قوات بمبلونا هزيمة قشتالة وأسر قمطها. وبذلك اكتمل ولاء الدول المسيحية للناصر، حتى أن برشلونة ذاتها طلبت صداقته.

ثالثاً – الحَكَم المستنصر ودول الشمال الإسبانية[١]

توفي الناصر السنة ٩٦١ فتنفس المسيحيون الصعداء وقاموا يرفضون تسليم الحصون ويتنكرون لكل الشروط التي قبلوا العمل بها. عندها راح المستنصر يهدّد شانجة بمساعدة أعدائه عليه لا سيما الملك المخلوع أرذون، فخاف وقبل ببيعة المستنصر، وبالشروط التي أبرمت في أيام الناصر وهي:

- هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

إنّما، ولمّا مات أرذون أعلن شانجة عصيانه من جديد على المستنصر بالتحالف مع قمط قشتالة وملك بمبلونة وقمط برشلونة. فما كان من المستنصر إلاّ أن ردّ بسرعة على هؤلاء فأخضعهم. وعِوَضَ أن يهدم الحصون كما كان يفعل في السابق أخذ يرمّمها من جديد ويضع فيها حاميات للسهر على الحدود.

وفوق كل ذلك تعرضت بلاد الشمال لهجمات أعداء جُدد هم النورمان Normands الذين اجتاحوا شواطئ جليقية. ثم لهزّات داخلية بسبب وفاة شانجة وارتقاء العرش مكانه من قبل ابنه القاصر بوصاية عمه طلورة Elvira.

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٣٠٤-٣٠٦.

استغل النبلاء في المملكة ضعف العرش فاستقلّوا في إماراتهم وحكّموا الخليفة المستنصر في كل خلاف ينشب بينهم. عند ذلك قرر المستنصر توطيد سلطانه على شمالي أفريقيا وفرض إرادته، فكلّف قائده في الثغر الأوسط بذلك.

– انتهز قمط قشتالة من جديد الوضع، كذلك ملك ليون وملك بمبلونة وأعلنوا الحرب على المستنصر، لكنهم هُزموا وأعاد الخليفة سلطته حتى داخل تلك البلاد.

رابعاً – ابن أبي عامر المنصور ودول الشمال الإسبانية[١]

قام ابن أبي عامر بغزوات عدّة على دول الشمال عندما كان في منصب الحجابة، لكي يثبت مركزه أمام الخليفة، ولكي يبهر أبصار الناس بالخروج للجهاد والعودة ظافراً مع الأسرى والغنائم التي كان الشعب يهلّل لها. وفي إحدى غزواته الثلاث ضد ليون وقشتالة وبمبلونة، أحرز انتصاراً باهراً وهدم إحدى المدن وأسر عدداً كبيراً وهدّد البلاد بالخراب. عند ذلك خرج ملك بمبلونا إلى ابن أبي عامر وقدّم له ابنته التي أصبح اسمها عبده وأضحت من حريم ابن أبي عامر وأطلق عليها المسلمون لقب «البشكنشية»، وأعطت المنصور ولداً دعته شنجول Sanchoello وهو تصغير لاسم أبيها Sanchuo.

ثم تبعت قشتالة وليون بمبلونا في المصالحة، فتمّ للمنصور النصر على كلّ البلاد الشمالية المسيحية، التي كانت قد ضعفت بسبب الخلافات الداخلية والصراع الدائم على السلطة مما دفع بحكامها إلى أن يحكّموا المنصور في أمورهم ليفض مشكلاتهم.

خامساً – نتيجة غزوات الحلفاء في الشمال الإسباني

كان لغزوات الحلفاء في الشمال الإسباني نتائج مهمة في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، وحتى الاجتماعية:

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٣٢٦-٣٢٨.

أ - النتائج العسكرية:

استطاع العرب أن يسيطروا على المراكز الحصينة التي أقامتها الدول المسيحية دفاعاً عن نفسها على مقربة من الحدود. فهدموا البعض من الحصون وأبقوا على البعض طبقاً لما كانوا يرونه مناسباً للمستقبل.

ب - النتائج السياسية:

تمكّن العرب من بسط سيطرتهم وسيادتهم على البلاد المسيحية وإخضاع الملوك المسيحيين بكل معنى الكلمة (من تقديم المال أو التنازل عن الحصون أو تقديم الاثنين معاً للعرب).

ج - النتائج الاقتصادية والاجتماعية:

- جلبت هذه الحروب الرابحة أعداداً وافرة من العبيد والجواري في وقت كانت أسعارهم مرتفعة، لا سيما في الدول الإسلامية، وقد أسهم بيع هؤلاء في تغذية مال الخزينة في الدولة.

- كما تمّ اختلاط الإسبان الأصليين بالعرب في الأندلس بالزواج. وهذا الزواج أوجد ذرية جديدة كانت المساهمة الكبرى في خلق جمالات تذكر على المستوى الفني كالموشّحات الأندلسية؛ وعلى المستوى الخلقي أيضاً كجمال الطلعة.

الفصل الثالث عشر

استراتيجية الخلفاء تجاه أفريقيا الشمالية

أولاً – قبائل أفريقيا الشمالية

تقسم القبائل التي كانت تعيش في أفريقيا الشمالية في عهد الخلفاء الأمويين في الأندلس إلى مجموعات قبلية ثلاث وهي:

أ – قبيلة مصمودة.
ب – قبيلة صنهاجة.
ت – قبيلة زناتة.

أ - قبيلة مصمودة:

هم مزارعون يسكنون الأطلسي الأعلى وما وراء الأطلسي وينتسب إليهم سكان المغرب الأقصى، فكانوا من أكثر البرابرة عدداً وأكثرهم أهمية لمراكش الداخلية ومراكش الجبل. لقد كانوا يشكلون مجموعات لها قوّتها السياسية والاجتماعية.

ب - قبيلة صنهاجة:

من أكبر المجموعات القبلية عدداً وأوسعها انتشاراً في أرض المغرب. لقد كانت، في صورة عامة، بدوية تسكن الصحراء عادة وتنتقل من واحة إلى واحة.

اعتنق ابناؤها الدين الإسلامي، لكنهم بقوا محافظين على الكثير من طقوسهم القديمة، وسيطروا على الأقسام

الغربية من الصحراء الأفريقية. ساعدهم على السيطرة، وأحياناً حتى على قبيلتي مصمودة وزناتة، بدويتها التي أعطتها من قوة الطبيعة وخشونتها قوة العزيمة والصمود في الشدة.

ج - قبيلة زناتة:

موطنها جنوب تونس وطرابلس. كانت من رعاة الخيل وكان لها أفضل خيالة في المغرب الإسلامي. وهذا ما جعل حركتها خفيفة، وبالتالي هجراتها السريعة واسعة المدى. تعاون قسم كبير منها مع العرب عند قدومهم، والقسم الآخر وقف ضدهم، كما دعم كثير منهم الدعوة المذهبية الخارجية.

ثانياً – النزاع بين القبائل وقيام الدول في المغرب

أساسه النفوذ منذ القديم والهيمنة على الأرض وبسط السلطان السياسي.

لقد أسفر عن غالب ومغلوب وعن قيام دول تفرض زعامتها وسلطانها على المغلوبين بقوة عسكرية قاهرة. وقد بقي المغلوب يترقب الفرص السانحة حتى يقوم في المستقبل وينتقم لنفسه وكرامته.

وكانت هذه الدول تتحرك تحت راية دينية أو مذهبية، كالدويلات التي قامت في المغرب بعد انفصاله عن العباسيين، كالأدارسة والصالحية والأغلبية والرستمية والمدرارية.

أما الدولة التي قامت في المغرب ولعبت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي فهي الدولة الفاطمية.

ثالثاً – قيام الدولة الفاطمية وتوسعها

وفد عبدالله الشيعي إلى شمالي أفريقيا مع تابعيه عن طريق مركز الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وأقام الدولة الفاطمية في تلك البيئة.

لم يلقَ أي مقاومة في نشر الدعوة في المنطقة لأنها كانت ميداناً لدعوة شيعية من قبل، وكانت الظروف مناسبة بسبب التناحر بين القبائل والاضطرابات التي تعم الدولة الأغلبية.

- كان جند الدولة الأغلبية يتألف من العرب القدماء ومن السود الذين ركّز أمير الدولة عليهم لأنهم كانوا أكثر إخلاصاً من الأُول الذين احتقروهم وأذلّوهم. لذلك قام انقسام في الجيش، وتبعته نقمة من الناس على الأمير الأغلبي لجوره في فرض الضرائب وقسوته في جبايتها.

في هذه الأجواء قامت الدولة الفاطمية وحلّت مكان الأغلبية وبقيت سبع سنين حتى ترسّخت. ووصلت إلى ذروة مكانتها بوصول صاحب الدعوة عبيد الله المهدي الذي نودي به إماماً على المنابر السنة ٩٠٩م.

أعلن عبيد الله مع أتباعه بأنهم أصحاب الحق في إمامة المسلمين، لذلك كان هدفهم بعد تركيز دولتهم في المغرب احتلال المشرق بما فيه الحرمين وحتى كل البلاد الإسلامية. وبعد أربع سنين على الدعوة قام المهدي نفسه بحملات عسكرية على البربر فأخضع زناتة وتغلّب على الرستميين في المغرب الأوسط ثم دخل حاضرتهم تاهرت.

ثمّ تابع حملاته ودخل إلى الإسكندرية. وفي بداية القرن العاشر استأنف الفاطميون حملاتهم على مصر حيناً وعلى أقصى المغرب حيناً آخر.

تقرّب الفاطميون من زعيم الزناتيين وأقاموه حاكماً على تاهرت، ثم قاد معهم حملة السنة ٩١٧ احتلت ناكور عاصمة الدولة الصالحية. ثم ساروا في اتجاه مدينة فارس التي كان يحكمها يحيى بن إدريس فحاصروها حتى خرج صاحبها مستسلماً وأصبح بعدئذ من الشيعة. ثم، بعد رجوعهم، تركوا موسى بن أبي العافية حاكماً على كل ما احتلوه وعاصمته تازا التي تتحكم في الممر بين شرق المغرب الأقصى وغربه.

أعاد الفاطميون الكَرَّة في السنة التالية بقيادة زعيم الزناتيين مصالة الذي اقتحم صحاري المغرب منتصراً على المدراريين وغيرهم من القبائل الصغيرة. ولكنه بقي عاجزاً عن بسط سلطانه على قبائل مغراوة والزناتية التي ظلت تتحدى سلطان الفاطميين في تلك الأماكن ذات الأهمية الكبيرة. وفي إحدى المواقع ضدها قتل مصالة على يد محمد بن خزر.

رغم هذه الهزيمة سيطر الفاطميين على أفريقيا الشمالية سيطرة شبه كاملة. ثم

حاولوا بسط سيطرتهم على المغربَيْن الأوسط والأقصى بمساعدة قبيلة كتامة، فيما حاولت قبيلتا زناتة ومغراوة منعهم من تحقيق هذا الهدف.

رابعاً – النزاع بين عبد الرحمن الناصر والفاطميين (١)

مما لا شك فيه أن توسّع الفاطميين في المغرب الأقصى وشمالي أفريقيا كان يشكّل خطراً على الدولة الأموية في الأندلس عن قرب. لذلك وقف عبد الرحمن الناصر في البدء موقف الحَذِر المتخوّف، لأنه لم يكن باستطاعته التدخل للحد من هذا المدّ على حدوده، ولا سيما أن أقساماً واسعة من الأندلس كانت عاصية عليه. كما أن سلطته في جنوب الأندلس كانت ضعيفة، إن لم نقل معدومة بسبب ثورة ابن حفصون الذي ساعده أعداء للناصر من الداخل ومن الخارج. وهذا الموقف دفعه إلى أن يعطف على الأمراء الأفريقيين وشعبهم الذين أطاح بهم الفاطميون وهجّروهم من بلادهم. وقد أكرم وفادتهم في الأندلس كدولة ناكور الصالحية التي أنزلها في مالقة وأحسن سياسته معها ومع غيرها آملاً في مساعدته في المستقبل عندما سيقوم بضرب ضربته القاضية على عدوه القابع على حدوده.

وبعد أن قضى على ابن حفصون وعلى ثوار الثغور وتمكّن من توطيد ملكه وقوته، راح يتطلع إلى شمال أفريقيا فاحتلّ السنة ٩٣١ مدينة سبتة التي تقع على الشاطئ من جهة أفريقيا، بغية أخذها كمفتاح لغزو تلك البلاد، ولإبعاد عدوّه عن تلك المنطقة التي كانت منطلقاً لغزو الأندلس. ثم حاول زعزعة دولة الفاطميين من دون أن يقذف بجيشه في تلك الصحاري الواسعة، وذلك بتحالفه مع الزعماء القبليين المناوئين للفاطميين كزعيم مغراوة الزناتية ابن خزر الذي لبّى الدعوة الأموية في كل مراكز المغرب

(١) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٧٤-٧٥.
د. بيضون، مرجع سابق، ص٢٩٠-٢٩٣.

الأوسط ما عدا تاهرت التي بقيت تحت حكم الفاطميين.

ولبى الدعوة أيضاً زعيم قبيلة مكناسة الزناتية بعد أن كان قد قبل الدعوة الفاطمية وحارب بسيفها. ثم تبعه حاكم تاهرت بالذات وموسى بن أبي العافية في المغرب الأقصى، الذي استطاع أن يبسط نفوذه على قاعدة أرضية واسعة تشمل المغرب الأوسط والأقصى، وأن يعتمد على كتلة بشرية هائلة تضاهي بقوتها وقدرتها قوة ومقدرة باقي القبائل التي دانت للفاطميين.

وأمام قوة عبد الرحمن لم يقف الفاطميون مكتوفي الأيدي. فبعد وفاة المهدي قام ابنه أبو القاسم وأرسل جيوشه في اتجاه الغرب بقيادة المفتي ميسور فحاصر مدينة فاس مستعيناً بالأدارسة ضد موسى بن أبي العافية. ولما لم يستطع احتلالهم، بعد أن حرر قسماً كبيراً من المغرب الأقصى، عاد إلى قاعدته. ولم يطل الأمر حتى حرّر الفاطميون مدينة تاهرت من المكناسيين الذين انتزعوا حكمها قسراً منهم.

وكاد الفاطميون يقضون على عبد الرحمن في تلك البقاع لولا أن قام عدو لهم يقضّ مضجعهم ويمدّ يده لعبد الرحمن لكي يعيد ما فقده من ملك في المغربين الأوسط والأقصى في الحرب الفاطمية التحريرية الأخيرة. فهذا الثائر الملقب بصاحب الأتان توصل إلى أن يكتسح كبريات المدن في المغرب الأدنى بسهولة كليّة لما لقيه من تجاوب مع دعوته، حتى أنه راح يحاصر عاصمة الفاطميين المهدية لمدة عشرة أشهر. وهذا ما دفع عبد الرحمن إلى أن يعمل على استرجاع نفوذه أثناء انشغال الفاطميين بثورة صاحب الأتان.

اجتاحت قبيلة مغراوة المنطقة من جهة الساحل وانضمت إليها كل القبائل الزناتية، وكذلك عائلة المكناسيين حكام تاهرت، فاحتلّ هؤلاء بيهرق قاعدة الفاطميين في المغرب الأوسط. وفي هذه الظروف، حيث وصلت ثورة صاحب الأتان إلى ذروتها، انضمت إلى كل هذه القبائل الثائرة على الفاطميين بقايا قبائل الأدارسة في المغرب وأعلنوا ولاءهم وتبعيتهم للناصر.

لم يدم نفوذ الناصر طويلاً في تلك الأمصار لأن زعماء البربر لم يعلنوا ولاءهم له إلاّ لخدمة أغراضهم الذاتية من كسب رضاه كخليفة والحصول على الأموال. وهكذا كان موقفهم بالنسبة للفاطميين. فالفاطميون استغلّوا حسد الزعماء البربر لبعضهم البعض وراحوا يذكّون هذا النفور بإغداق الأموال على البعض منهم. فما كان مثلاً من زيري الصنهاجي إلاّ أن قام بثورة ضد صاحب الأتان وقهره. فكان ذلك بداية الانقلاب الشامل ضد الناصر في أفريقيا الشمالية، مما أفقده زعامته هناك فسقطت كل المدن التي كان يسيطر عليها في المغربَيْن الأدنى والأوسط. عندئذ خشي الناصر من أن يصل التدهور إلى قاعدة الأمويين في سبتة، فأرسل إليها حامية قوية بقيت حتى نهاية السنة ٩٥٩.

ولم يطل الأمر حتى وقع الصدام بين الفاطميين والأمويين الذين تصدّوا لمركب فاطمي كان ينقل رسولاً من صقلية إلى الخليفة المعزّ واعتدوا عليه ثم استولوا على كل ما فيه. فأرسل الفاطميون أسطولاً بقيادة جوهر صاحب صقلية إلى المرية Almeria قاعدة الأمويين البحرية فأحرقوا أسطولها بكامله، واستولوا على المركب المهاجم بعد أن نزلوا إلى المدينة وأضرموا النار فيها ونهبوها. ثارت ثائرة عبد الرحمن لهذا الاعتداء فأرسل حامية كبيرة إلى الشمال الأفريقي اشتبكت مع جنود المعزّ فقتل عدد كبير من الطرفين. ومنذ ذلك الحين أصدر عبد الرحمن أمراً بأن يلعن خلفاء الشيعة من على المنابر في الأندلس.

خامساً – موقف الحكم المستنصر من الفاطميين (١)

لم يبقَ للدولة الأموية في الأندلس أي سلطة في أفريقيا الشمالية سوى على مدينة سبتة، وذلك يوم اعتلى العرش الحكم المستنصر إثر ضربة جوهر الصقلي. وبعد

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٣٠٦-٣١١.
د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص ٧٥.

أن تنبّه إلى خطر الفاطميين على الدولة الأموية، راح المستنصر يتابع سياسة أبيه بالتقرب من القبائل البربرية التي كانت على خصام مع هؤلاء الأعداء.

والذي سهل دخول الأمويين من جديد إلى أفريقيا الشمالية هو انتقال الخليفة الفاطمي المعزّ إلى مصر بعد أن احتلها جوهر الصقلي. وبذلك أصبحت أفريقيا مجرد ولاية تابعة للدولة الفاطمية وليست قاعدة لها كما كانت في السابق.

ثم سنحت فرصة ثانية لرجوع الأمويين إلى أفريقيا تمثّلت بالنزاع الذي وقع بين موالي الفاطميين على منصب النيابة في أفريقيا.

وعند مغادرة المعزّ إلى مصر عيَّن مكانه في الحكم على أفريقيا الصنهاجي الذي كانت عائلته على عداوة مع قبيلة الزناتيين الذين حاربوا الفاطميين بمساعدة قبيلة مغراوة طيلة مدة إقامتهم في أفريقيا. وفي النهاية انتصر الصنهاجي على الجميع وأصبحت أفريقيا الشمالية، كما يقول ابن حيان، بيد عائلة الصنهاجي فاطمأن الخليفة الفاطمي في مصر لهذا الاستقرار.

لكن هذا الهناء لم يدم طويلاً، إذ أن عائلة الأندلسي من قبيلة الزيديين التي كانت تنافسهم في خدمة الفاطميين قامت تحاربهم. وعندما أيقن جعفر أمير هذه العائلة، والذي كان يطمع بولاية أفريقيا محل الصنهاجي نظراً لما قدمته عائلته من خدمات للفاطميين، بأن المعزّ أخذ يتقرب من أعدائه، هرب مع أهله ومواليه إلى الزناتيين (من مغراوة) الذين جددوا نشاطهم بعد نكستهم وقاموا يحاربون موالي الفاطميين في أفريقيا.

عند ذلك تجهّز الصنهاجي مع الزيديين لمقاتلة جعفر الأندلسي والزناتيين قبل أن يستفحل أمرهم. ولكن الدائرة دارت عليه فقُتِل في تلك المعركة ومعه الكثيرون من الصنهاجيين والزيديين. وأسرع المنتصرون في نقل هذا الانتصار إلى الخليفة الأموي الحكم فسُرَّ كثيراً وأكرم وفادة الذي نقلوا الخبر وأغدق الأموال على جعفر وأخيه وغيرهما ممن أحبّوا أن يسكنوا في الأندلس بقربه، وأرسل أيضاً الأموال الطائلة لحلفائه الزناتيين في أفريقيا.

عند ذلك جرّد الفاطميون حملة عسكرية قوية على شمال أفريقيا قادها بلكين بن زيري فانتصر على الزناتيين وتساقطت مدنهم الواحدة بعد الأخرى من دون أي مقاومة. لكن الحملة لم تتجاوز المغرب الأوسط، فبقي المغرب الأقصى بيد الأدارسة الذين حطموا دولة موسى بن أبي العافية المكناسية وكانوا من أتباع الخليفة الأموي.

طلب الأدارسة مساعدة الحكم المستنصر عندما شعروا بنشاط الزيديين في المغرب الأقصى. لكنه قام واحدهم يحارب الآخر بسبب الحكم وانتقل خلافهم إلى خلاف مع الخليفة المستنصر. حدث ذلك عندما طلب صاحب المعقل الرئيسي للأدارسة حجر النسر وهو الحسن بن كنون، من الخليفة عوناً ضد أبناء عمه، ففضّل الخليفة التحكيم لفض النزاع، واعداً بمساعدة أي من الفريقين إذا رفض الفريق الآخر التحكيم.

رفض الحسن التحكيم وأخذ يحصّن طنجة التي كان يحكمها ودعا على المنابر للخليفة الفاطمي في المناطق التي كان يحكمها.

أمام هذا الواقع سيّر المستنصر السنة ٩٧٢م حملة ضده ضمّت أساطيل سبتة والمرية وإشبيلية فتوصل هؤلاء إلى احتلال طنجة. ولكن عندما قتل القائد الأعلى للحملة توقف التقدم. عند ذلك عمد المستنصر إلى إرسال أعظم قواده غالباً صاحب الثغر الأوسط الذي أمده بالمال والرجال وكلفه إخضاع الحسن الإدريسي الثائر. وفي السنة ٩٧٤ استسلم هذا الأخير وخُيِّر بين أمرين: إما اللحاق بالخليفة المستنصر أو النفي خارج البلاد. فقبل بالأولى، وكذلك أتباعه الذين أخضعوا تارة بالقوة وطوراً بالمال. لكن المستنصر أحاطهم بالجواسيس ولا سيما حول ابن كنون الحسن لمراقبة كل حركة من حركاته.

سادساً – سياسة ابن أبي عامر المنصور الأفريقية

كان على المنصور أن يجابه انتفاضات عدة ضده من أتباع الفاطميين ومن زعماء

القبائل البربرية. فقد قام ابن زيري الصنهاجي من جديد بهجوم كاسح على المغرب الأقصى بعد أن قضى على الزناتيين في المغربين الأدنى والأوسط. واحتل فاس وأجبر كل القبائل البربرية على الفرار والاعتصام بمدينة سبتة معقل الأمويين. ومن هناك طلبوا نجدة ابن أبي عامر فأرسل لهم الإمدادات على أنواعها، وأتى شخصياً إلى الجزيرة الخضراء ليشرف بذاته على العمليات الحربية.

عاد ابن الصنهاجي من حيث أتى عندما رأى هذه الحشود والإمدادات. ولكنه بقي في المغرب الأقصى ست سنين يلاحق الزناتيين وأتباعهم ويقضّ مضجعهم ومضجع المنصور ذاته الذي لجأ لاسترضائه فبعث إليه برأس جعفر بن خمدون قاتل أبيه.

وفي النهاية توصل الزناتيون إلى إبعاد أنصار الفاطميين عن المغرب. لكن هؤلاء تابعوا إرسال حملاتهم إليه لتعكير الأجواء وإقامة العراقيل أمام بسط السيادة الأموية.

وفي الواقع دبَّت التفرقة بين القبائل بسبب عميل للفاطميين هو الحسن بن كنون الذي أثار نقمة زعيم قبيلة يغرن الزناتية ضد زيري بن عطية زعيم مغراوة الزناتية لنيله خطوة كبيرة في بلاط الخليفة في قرطبة.

حارب المنصور قبيلة يغرن وحليفها كنون بعد أن حاول التقرب منه دون نتيجة، وانتصر عليها مما قوّى زيري بن عطية الذي أقامه المنصور والياً على نصف أعمال المغرب. ولم يمر وقت طويل حتى أصبح الزعيم الأوحد في المغرب وراح يسلك مسلك كل رؤساء القبائل الذين يرون في الدعوة للخلفاء وسيلة لتقوية أنفسهم بالمال والسلاح. ثم راح يبني في وسط المغرب مدينة وجدة ويتخذها عاصمة له بدل مدينة فاس قبل أن يعلن ذاته كمُدافع عن حق الخليفة هشام المؤيد الذي حجر عليه المنصور بن أبي عامر. فما كان من هذا الأخير إلاّ أن أرسل ضده حملة بقيادة واضح الفتى الذي دحره قرب طنجة فهرب إلى قلب الصحراء. ولم يطل الأمر حتى غادر الصحراء عل رأس قوة كبيرة وهاجم المغرب الأوسط محتلاً كل قواعده تقريباً وأقام فيها كلها، ولا سيما في

تاهرت، الدعوة لهشام المؤيد. إلاّ أنه مرض ومات تاركاً زعامة الزناتيين إلى ابنه المعزّ الذي أعلن طاعته للمنصور الذي تم له الحكم الكامل على المغربين الأوسط والأقصى.

سابعاً - الوسائل التي استعملها الأمويون في صراعهم ضد الفاطميين

استعمل الأمويون القوى العسكرية والأموال التي أغدقوها على زعماء القبائل لكسب ودّهم ولحثّهم للعمل تحت رايتهم. ولكن المؤرخين يذكرون وسائل أخرى هي:

أ - المذهب المالكي.
ب - الجاسوسية.

أ - المذهب المالكي:

كان تركيز الدولة الفاطمية على حدود الخلافة الأموية في الأندلس تهديداً متواصلاً لها. لذلك، عدا ما سبق وأوردناه، لجأ الأمويون إلى فئة أخرى هي فئة الفقهاء المالكيين الذين كانوا يسكنون المدن وكانوا على عداء متواصل ومتأصل مع الفاطميين. وأول مجموعة تعاملوا معها هي مجموعة فقهاء القيروان الذين ساندوا صاحب الأتان في ثورته. وعندما فشلت هذه الثورة فرّ ابن أحد مشاهير الفقهاء أبو العرب بن تميم إلى الأندلس على رأس جماعة تُدِين بالولاء للخليفة الناصر.

وقد أبغض الفاطميون هؤلاء الفقهاء ونكلوا بهم في مصر والمغرب حتى أن أحدهم، وهو شيخ مدينة الرملة في مصر، قال عنهم بأنهم أشدّ جوراً من الروم. كما قال أيضاً: «لو كان معي عشرة أسهم لرميت تسعة منها في الفاطميين وواحداً في الروم».

فالسياسة جمعت إذاً بين الأمويين في الأندلس والمالكيين، حتى أن الأمويين اعتبروا أنفسهم كحماة للمذهب المالكي. ثم إن المستنصر ذهب بعيداً في صداقة المالكيين، وقال إنه لا يعترف بقضية ولا يسمح لأي إنسان بارتداء زي الفقهاء إلاّ إذا

حفظ كتاب الفقه لدى المالكيين في المغرب وهو «المدوّنة».

ب - الجاسوسية:

لعبت الجاسوسية دوراً مهماً في عهد الإمارة. فالأمير محمد مثلاً ركز عليها للتعرف على كل تحرك داخلي أو خارجي للدولة العباسية في الشرق، فاستخدم صداقاته مع الأئمة أصحاب تاهرت ومع المدراريين أصحاب سجلماسة ليزودوه بكل المعلومات عن الأوضاع السياسية، ليس فقط في بغداد، بل أيضاً في سوريا ومصر وأفريقيا الشمالية.

أما في عصر الخلافة، فقد تطورت الجاسوسية وأصبحت أكمل اتساعاً وأكثر عمقاً، فزرع المستنصر جواسيسه في بلاد متعددة، غربية وشرقية، لكي يقف على كل شاردة وواردة في سياسة تلك البلاد. ثم طلب منهم أن يراقبوا العدو في كل تحركاته السياسية والاقتصادية والدينية وأن يرصدوا تحركات الفاطميين، أعدائه الألداء.

ولكي يحافظ الأمويون على دولتهم، راحوا يمنعون أهل الدولة من السفر إلى الحج حتى لا يقعوا في أيدي بني العباس، حتى أنه لم يحج أحد من أهل دولتهم وفق ابن خلدون.

ثم طلبوا من جواسيسهم القيام باغتيالات رجالات الدولة الفاطمية، حتى أن القضاة في هذه الدولة اتخذوا حرّاساً لهم أخصّاء بعد محاولة أحد الجواسيس الأمويين قتل قاضي القضاة أثناء تأدية الصلاة.

ولم ينسَ الأمويون الداخل في بلادهم إذ كانت لهم عيون ساهرة تراقب كل حركة وتتعقب كل تحرك ضدهم في الأندلس. كما توقف كل من يشتبه به عاملاً لمصلحة الفاطميين، أو أنه يمكن أن يعمل في خدمتهم بسبب مشاركته لهم في الاعتقاد أو بصلة القرابة.

لم يتركوا أي خلية في بلادهم إلاّ وكشفوها. ثم إنهم، وبعد تقصٍّ عميق، استطاعوا أن يكتشفوا خلية سرية تعمل للدعوة الإسماعيلية التي انبثقت عنها الدولة الفاطمية. فالفاطميون، الذين يلبسون لكل حال لبوسها، دخلوا الأندلس عن طريق أناس لبسوا ثياب العلماء وراحوا

يبثون دعوتهم سراً قائلين بأن إمامتهم تتحدر من علي وفاطمة الزهراء. كما أشاعوا أن الأمويين في الأندلس، الذين يتحدرون من بني مروان، هم مغتصبون ولا تعترف الخلافة القائمة منذ زمن، أي خلافة العباسيين، بشرعية حكمهم.

لاحقت الدولة الأموية في الأندلس هذه الدعوة وقضت عليها تماماً، ثم أعلن عبد الرحمن الناصر، الذي لم يكن يعترف بغير خليفة واحد، أنه الخليفة الحقيقي.

«وكل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه».

الفصل الرابع عشر
العلاقات مع الإمبراطوريات المعاصرة

إن القضاء على كل حركة ثورية في الأندلس وإشاعة الإستقرار فيها بعد توحيدها من أقصاها إلى أقصاها والذي وصل إلى ذروته في عهد الخلافة، دفع بالخلفاء إلى أن ينظروا إلى الخارج، وأن يلعبوا دوراً مهماً على مسرح السياسة العالمية، إما بإقامة علاقات ديبلوماسية مع إحدى الدول لتحقيق مصالحهم الوطنية المشتركة، أو باستخدام كل الوسائل الديبلوماسية والحربية ضد دولة عدوة. لذلك كان للبحرية اهتمام خاص، لأنها كانت نقطة الانطلاق المهمة من تلك البلاد إلى الخارج.

فالخطر الجاثم على الحدود لا يُرد إلاّ بإنشاء أسطول بحري قوي، وهذا الأسطول كان الهاجس الأكبر عند الأمراء والخلفاء في البلاد. فمنذ وصول العرب الأمويين إلى الأندلس كانوا عرضة لهجمات القراصنة المتتابعة، التي بلغت ذروتها مع القراصنة المجوس في عهد الخليفة الحكم، إذ كان عليه أن يردّ ثلاث هجمات كبيرة.

لكن الخطر الأكبر الذي أتى من بعيد وجثم على حدود الأندلس، وراح يهددها في كل وقت ويهدد الخلافة ومذهبها السني، مثّله الفاطميون الشيعة أصحاب أفريقيا وصقلية الذين كانوا يملكون أسطولاً ضخماً انتشرت قواعده على شواطئ المغرب وصقلية.

أولاً: النشاط البحري:

أمام هذه الأخطار باشر الخلفاء بإقامة القواعد البحرية فأنشأ عبد الرحمن السنة ٩٥٥ قاعدة المرية الهامة التي أصبحت في عهد الخلافة مقراً لأحد الأسطولين الرئيسَيْن (أسطول البحر المتوسط). ثم أنشأ المستنصر السنة ٩٦٨ قاعدة أشبيلية.

استعمل الخلفاء الأسطولين ضد الفاطميين وضد الأدارسة، ولنقل الجنود من منطقة إلى أخرى كما فعل المنصور في غزواته لبرشلونة.

وإلى جانب الأسطولين اعترفت الدولة الأندلسية بجماعات من الغزاة يدعون «بحريين» عملوا تحت مراقبتها لإبعاد الأعداء الغزاة.

بلغ نشاط البحريين ذروته في عهد الخلافة، وقد اتخذوا طركوشة، التي تؤلف ثغراً بحرياً، قاعدة لهم كان لها أهميتها الكبرى بسبب موقعها الجغرافي وبسبب المادة اللازمة للصواري التي كانت توجد في الأشجار التي تحيط بالموقع.

لكن صفاء الجو لم يدم طويلاً بين الأمراء الأندلسيين والبحريين بسبب دخول هؤلاء البلاد وانتهاكهم حرمة أملاك الأمراء والدولة وسلبها. كما أنهم راحوا يقيمون قاعدة ثابتة لهم في بجانة[١] Pechina بعد أن قويت شوكتهم فطردوا مشاهير العرب منها واستقلوا في حكمها.

وعندما دبّت الفوضى في الأندلس بسبب الحروب الأهلية، قام البحريون بتحصين مدينتهم، وأحسنوا معاملة العرب من أهلها الأصليين، وأظهروا العدل فيها حتى أصبحت المدينة مضرب المثل في الأمن والتأمين على الملكية.

لذلك طمع في بجانة زعماء جند العرب في البيرة Elvira المجاورة. ولكن محاولتهم هذه أخفقت بسبب صمود البحريين البطولي في وجههم ولعدم مساعدة العرب الغساسنة فيها لهم.

(١) تقع بجانب المرية.

علاوة على هاتين القاعدتين الكبيرتين، كان لهؤلاء الغزاة قواعد عدة في شرقي الأندلس، مثل دانية، وفي شمالي أفريقيا مثل وهران. ومن هذه القواعد كانوا ينطلقون لغزو شواطئ بلاد الغال وإيطاليا وغيرها على المتوسط شرقاً وغرباً.

ثانياً: التوسّع في منطقة البروفانس (Provence)

بعد هزيمة العرب في بواتييه السنة ٧٣٢ لاحقهم شارل مارتيل حتى نهر الرون. وهناك انقسموا قسمين، سار أحدهما بجانب نهر Durance حتى جبال الألب، واجتاز القسم الآخر مدينة طولون Toulon الواقعة على الساحل واستمر في سيره إلى أن توقف بقرب الجبال التي اصبحت تعرف بجبال المور Maure.(١)

وعندما ترك الفرنجة منطقة بروفانس حلّ محلهم العرب الذين تساهل معهم الزعيم البروفانسي بالتوطّن في تلك الأراضي لكي يكونوا درعاً واقية له من هجمات اللومبارديين على بلاده. وحتى بعد انضمام اللومبارديين إلى إمبراطورية شارلمان، تُرك العرب أيضاً في تلك البلاد لأنهم كانوا فلاحين ولم يأتوا بأي نشاط حربي.

غزوات البحريين:

تكلمنا سابقاً عن «البحريين» الذين، وبعد أن اطمأنوا إلى قوتهم، راحوا يغزون السواحل في الأندلس وغاليا وأفريقيا. ووصلوا في غزواتهم هذه حتى منطقة بروفانس التي نزلوا بسهولة منطقة سان تروبيز منها بين السنة ٨٩١ و٨٩٤. ثم واصلوا زحفهم في شمالي الخليج حتى وصلوا إلى جبال المور حيث أقاموا حصوناً وبنوا نقاط حراسة وأبراج إنذار، وحوّلوا الخليج بكامله إلى ميناء حصين يستطيع إيواء أسطول بكامله.

انتهز هؤلاء فرصة اقتتال الفرنجة في ما بينهم، الأمر الذي أضعفهم، ليشنوا غارات ناجحة على المنطقة المحيطة بقاعدتهم. ثم

(١) Maure: تعني المغربي أو المسلم عموماً.

تخطوا منطقة البروفنس وراحوا يضربون شرقاً وغرباً وشمالاً حتى شملت انتصاراتهم الأراضي الواقعة بين نهري بو Po شرقاً والرون Rhone غرباً. وفي بعض غاراتهم وصلوا حتى نهر الراين Rhin شمالاً.

وأشهر هذه الغارات التي تمت في النصف الأول من القرن العاشر هي الإغارة على اكس Aixe ومرسيليا. وقد عبروا مضائق الدوفينة Dophiné فاحتلوا غرينوبل Grenoble، ثم اجتاحوا منطقة سافوي Savoie، وهاجموا مدينة نيس Nice وبلاد بيامونت Piemonte، وسيطروا على ممرّ سان برنارد St. Bernard في جبال الألب وفرضوا الأتاوة على الحجاج الأوروبيين إلى روما. ولكن هذه الغارات لم تكن دائماً مظفّرة إذ كان العدو الأوروبي الضعيف يتحيّن الفرص أحياناً لينقض على المهاجمين.

فأمير بروفانس هيغو Hugo، الذي أصبح ملكاً على لومبارديا، قام بحملة من البر عليهم بعد أن طلب من صهره الإمبراطور البيزنطي أن يوافيه بأسطوله المجهز بالنار الإغريقية والذي لبى الطلب وأرسل الأسطول. كان النصر حليف بيزنطية وهيغو السنة ٩٤٢ فردوا العرب إلى قاعدتهم في سان تروبيز حيث حاصروهم وضيّقوا عليهم الخناق.

وبعد ثلاث سنين أمضاها البحريون بين مد وجزر، طلب الإمبراطور أوتان الكبير Otton، وكانت سيادته قد شملت حتى منطقة بروفنس، مساعدة غليوم الأول الذي أصبح دوق بروفانس. وانقض الاثنان على البحريين في الشمال والشرق فهرب هؤلاء نحو الجنوب حيث حصلت موقعة فاصلة في مدينة تورتور Tortour كان النصر فيها للأوروبيين.

وبعد أن حاصر أوتان حصون البحريين قرب سان تروبيز لمدة سنتين، انقض عليهم بمساعدة غليوم فدحرهم السنة ٩٧٣، فهرب البعض منهم بطريق البحر واستُعبد البعض الآخر. وعلى هذا الشكل انتهى الوجود العربي في البروفانس بعد أن بقي هناك قرابة قرنين من الزمن.

ثالثاً – العلاقات الدبلوماسية

ترك الناصر بصماته على الأندلس بما لديه من مؤهلات سياسية وعسكرية

وإدارية، فتألقت قرطبة خلال نصف قرن من الزمن، إذ جعل منها عبد الرحمن جوهرة العصر، تزدحم بالسكان وتعلو في جنباتها العمارات والقصور، ويقصدها طلاب العلم والمعرفة.

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المعزّ وأفول شمس الإمبراطورية الكارولنجية، ظهر الناصر الشخصية الأقوى في غربي البحر المتوسط. وبعد أن طغى ضباط القصر من الديلم والترك على الخلافة العباسية، تحول الناصر إلى رجل العالم الإسلامي الأول والقوي، وهذا ما أهّله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقة ودّ معه.

أ - العلاقات مع بيزنطية: (١)

كانت لبيزنطية والأندلس علاقات اقتصادية ومصالح مشتركة وعدو مشترك يهدد كيانهما. فالعلاقات الديبلوماسية التي كانت بينهما، قبل اجتياح هذه الأخيرة لممتلكات الأولى في جنوبي إيطاليا، عادت إلى ما كانت عليه قبلاً، ولكن أشدّ ترابطاً وتفاعلاً للأسباب الآتية:

١ - يواجه الطرفان عدواً مشتركاً يتمثل بالفاطميين الذين أصبحوا أسياد أفريقيا الشمالية وصقلية، وراحوا يهددون أملاك الدولتين حتى بلغ خطرهم ذروته عندما استأنفت هاتان الدولتان علاقاتهما الديبلوماسية.

٢ - إن أسطول الفاطميين الكبير الذي زرعوه على شواطئ أفريقيا الشمالية وعلى شواطئ صقلية أصبح يهدد عن قرب الوجود البيزنطي في جنوبي إيطاليا ووجود العرب في الأندلس أيضاً.

٣ - دعمت هذا الاتفاق، لمقاتلة عدو واحد مشترك، ميول علمية وثقافية واحدة اتصف فيها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩) والأمير ولي العهد في الأندلس، الذي عندما أصبح خليفة بلقب المستنصر، أخذ على عاتقه قيادة الحركة الفكرية في الأندلس.

هذه العلاقة ذات المنفعة المشتركة العامة دفعت الدولتين لإقامة السفارات

(١) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٦٥-٦٩.

بينهما، فانتعشت البلاد وقويت شوكتها الحربية وابتعد خطر الفاطميين عنها. ثم تطوّرت الحركات الفكرية والعلمية مما أدى إلى إفادة كل دولة من الأخرى في هذا الحقل.

لذلك كانت أولى العلاقات الديبلوماسية مع بيزنطية، التي كان بينها وبين قرطبة انسجام فرضته الظروف والأحداث. وأقيمت هذه العلاقات بعد أن استعادت الإمبراطورية البيزنطية عافيتها على يد الأسرة المقدونية متزعمة مجدداً العالم المسيحي، خاصة في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٥-٩٥٩م) المعاصر للخليفة الناصر والذي كانت له توجّهات ثقافية وعلمية. ولعل اتصالاته بالخلافة الأموية بدأت في هذا الإطار الثقافي.

لقد قام وفد بيزنطي يمثل الإمبراطور بزيارة قرطبة، طالباً صداقة الخليفة ومودته. وصف ابن خلدون الإجراءات التي أُعدّت لاستقبال الوفد بقوله: «ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكّه. وزُيّن القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجمّل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة، ورُتّب الوزراء والخدمة في مواقعهم[١] ».

وكانت هدية الإمبراطور للخليفة كتابين نفيسين: الأول في علم النبات والآخر في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين.

وعاد الوفد إلى القسطنطينية برفقة السفير هشام بن هزيل ممثلاً الخليفة، وحاملاً معه هدية إلى الإمبراطور. وبقي السفير سنتين في القسطنطينية قبل أن يعود إلى قرطبة مصحوباً ببعثة ديبلوماسية أخرى.

ب - علاقات أخرى:

استقبلت قرطبة بعثات أخرى تمثّل الملوك، أبرزها:

- ممثلون لملك ليون الإسباني، بعد أن توسّط الناصر في حلّ الخلاف بين ابني شانجة الأول، أردونيو وشانجة.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٤٢.

- ممثلون لملك نافار، بهدف تهدئة جبهة الشمال. أسفرت هذه الزيارات عن معاهدة صلح وقعت في قرطبة.

- ممثل الإمبراطور الكارولنجي اوتون خليفة شارلمان، الأسقف يوحنا الجورزيني من دير غورزي GORZE الذي زار قرطبة السنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٦م.

وردّ الناصر بإرسال ممثّل له لزيارة أوتون هو ربيع بن زيد الذي ساهم في تحسين العلاقات بين الدولتين.

لكن العلاقات مع الإمبراطور أوتون الكبير لم تكن على مستوى التفاهم الاقتصادي والسياسي والثقافي الذي كانت عليه مع بيزنطية، غير أنها كانت، على ما يظهر، علاقات خوف وحذر واستكشاف لواقع الآخر.

ثمّ انقلبت إلى علاقات صداقة طلبها الواحد من الآخر، ولا سيما بعد أن وقف كلّ منهما على قوّة الآخر، وهذا ما دفع بالإمبراطور أوتون إلى أن يطلب من الخليفة توسّطه لوقف غارات الغزاة البحريين على أراضيه، الأمر الذي لم يستطع الخليفة تحقيقه، لأن السلطة الفعلية على هؤلاء الغزاة لم تكن في يده.

أخيراً، وبصورة عامة، أسهمت هذه العلاقات الديبلوماسية والصداقة بين القيادات السياسية في تقديم معلومات أفضل عن كلّ جهة للجهة الأخرى، مما خفّف الحروب والمآسي من جهة ودفع الثقافة والحضارة قدماً من جهة أخرى.

الفصل الخامس عشر

بنو عامر والخلافة

أولا – خلافة الحكم المستنصر
(٣٥٠ - ٣٦٦ هـ/٩٦١ - ٩٧٦م)

مات عبد الرحمن بعد أن حكم ٥٠ سنة، أعاد فيها الوحدة للأندلس وركّز من جديد بنيتها القوية، حيث بسطت هذه الدولة نفوذها على الخارج فهابتها أكبر دول العالم في ذلك العصر.(١)

بويع بالخلافة بعد موته ولي عهده الحكم الثاني (أبو المطرف) واتخذ لقب «المستنصر بالله»، فأبقى السياسة الداخلية والخارجية كما كانت على أيام والده والذي كان قد أشركه في الحكم منذ نعومة أظفاره. لذلك لا ننكر عليه الإنجازات في الدولة، خارجية أم داخلية، وقد كان له من العمر ٤٧ سنة حين خلف والده. فمن المنطقي أن تكون له اليد الطولى في المنشآت العمرانية وفي توحيد الأندلس.(٢)

لقد تميّز عن سائر الأمراء والخلفاء في الأندلس بعلمه الواسع وتشجيعه للعلماء. وخلق مكتبة ضخمة جداً فاقت كل المكتبات في عهدها نوعية ومحتوى.(٣)

وبعد اعتلائه سدّة الحكم بسنة أنجبت له جاريته البشكنشية «صبح» ولداً، لكنه توفي بعد ثلاث سنين. ثم

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٥٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣١٢-٣١٣.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧٠.

أعطته ولداً آخر هو هشام الذي عيّنه ولياً لعهده وهو من سن الحادية عشرة.

ثانياً – المنصور بن أبي عامر

لما توفي المستنصر السنة ٩٧٦م، كان من الواجب أن يملك ولده هِشام، ولكن عمره كان صغيراً (١٢ سنة) ولا يستطيع حكم بلاد مترامية الأطراف. لذلك كان من المفروض وجود جماعة أو من يقوم بممارسة السلطة باسمه، لا سيما أن طبيعة الدولة أوتوقراطية، يعود كل شيء فيها إلى شخصية الخليفة مباشرة.(١)

وعديدون هم الذين طمحوا إلى هذه الوصاية والسلطة الفعلية. لكن واحداً فقط، هو محمد بن أبي عامر، توصل لأن يكون الوصي والحاكم الفعلي، تاركاً لهشام الحكم الاسمي فقط، وأخذ يورث هذه السلطة لابنيه عبد الملك وعبد الرحمن بالتناوب. وعندما سوّلت نفس عبد الرحمن أن يستأثر بالسلطتين الفعلية والشرعية قام الإحتجاج الصارخ الذي تجسّد بعدئذ بثورة مدمّرة قضت على سلطات العامريين وخلافة الأمويين في الأندلس على السواء.

وفور وفاة الحكم المستنصر ظهرت فئتان متناحرتان على السلطة:

١- الأولى: الصقالبة: حراس الخليفة وخدمه المقربون.

٢- الثانية: الأحرار والموظفون الكبار في القصر والدولة.

الفئة الأولى: يساندها الخصيان في القصر وعددهم يربو على الألف ما عدا المقيمين خارجه، يرأسهم فائق المعروف بالنظامي وجؤذر، وكلاهما من ذوي القدرة.

الفئة الثانية: يساندها ويرأسها جعفر بن عثمان المصحفي، وهو من أصل بربري، وقد قربه الخليفة منه وأعطاه الوظائف الكبرى، مثل الشرطة، لأن والده كان مؤدباً للحكم في صباه. يساند المصحفي محمد بن أبي عامر وهو أهم شخصية في الدولة؛ ثم جماعة من الجند البربر، ثم سائر قادة الجند الأحرار.(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٠٦.

(٢) أنظر ملحق رقم ٨ – المستند: ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٦٨-٣٧٠.

ومحمد بن أبي عامر هو من أسرة عربية يمنية، حاد الذكاء، طموح للتسلّط، تألّب في مناصب عديدة في الدولة، إن في المغرب أو في الأندلس وبرع فيها. خدم أولاً ككاتب لدى أحد كبار القضاة في قرطبة، ثم نقل إلى القصر ليهتم بأمور هشام بن الحكم، بعد أن كان وكيلاً لأخيه عبد الرحمن الذي مات. وفي هذه الظروف كسب ودّ «صبح» واستأثر بقلبها حتى ما كانت تأنس إلاّ بوجوده ورفقته. وهذا ما أوصله إلى عدد من الوظائف في دولة الحكم، فعُين قاضي قضاة المغرب، وهي وظيفة تعتبر كنائب للخليفة في المغرب ومشرف على نفقات الجيش، وكان على قادة الجيش ألا ينفّذوا أمراً إلاّ بمشورته[1].

عرف محمد كيف يستغلّ هذه الوظيفة فأغدق على القادة الأموال والهدايا فتقربوا منه. ولما نُقل إلى قرطبة واصل أسلوبه في ترسيخ علاقته بالقوى العسكرية عندما كلفه الحكم الإشراف على الحشم، وهم جند الحاضرة قرطبة.

استعمل محمد كل وسيلة للوصول إلى الحكم فخاض غمار معمعة الصراع بين تلك القوى للوصول إلى سيادة الأندلس. وأصبح الحاكم الوحيد لها فاستبدّ بحكمها بعد أن قضى على منافسيه الواحد تلو الآخر شر قضاء[2].

١ - صراعه ضد الصقالبة:

لما مات الحكم أخفى كبيرا الغلمان الصقالبة (النظامي وجؤذر) خبر الوفاة عن وزيره جعفر المصحفي وسائر رجال الدولة بغية رد الأمر لأخيه المغيرة ومبايعته، خشية أن تؤول الخلافة إلى هشام بن الحكم لصغر سنه، شريطة أن يُقرّ المغيرة ابن أخيه هشاماً على العهد من بعده. في هذه الطريقة ضمنا مصالحهما وأجبرا المغيرة المدين لهما بالاعتماد عليهما.

كانت أفكارهما متباينة في أمر قتل المصحفي حتى يتم تنصيب المغيرة، فاتفقا على ضرورة مشاورته أولاً ثم قتله إذا رفض رأيهما. وعندما أعلماه بذلك، تظاهر بقبوله

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣١٨.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٠٦.

وتأييده، ولكنه راح يحضّر سراً كل المعارضين للصقالبة من قوات الأجناد والأحرار وبني يرزال، الذين كانوا أتباعه من قادة الجند، وبعض الرجالات الموالين لهشام لا سيما محمد بن أبي عامر وكيل هشام وخادم أمه والناظر في أمر الحشم.(١)

اتفق الجميع على قتل المغيرة، فتطوّع إبن أبي عامر وقتله وعلّق جثته في مخدع يتصل بمجلسه كهيئة المنتحر، وأشاع أنه شنق نفسه.

تولّى هشام الخلافة في اليوم السادس للوفاة وسار في موكب عسكري إثارة لحماس العامة وخطباً لودها في بداية عهده. أسقط ضريبة الزيتون المأخوذة من الزيت في قرطبة وكانت مستكرهة عند الناس. وبعد يومين عيّن الخليفة هشام جعفراً المصحفي حاجباً لدولته، كما نصّب محمداً بن أبي عامر وزيراً، على أن يكون مساعداً للمصحفي في تدبير شؤون الدولة وإدارتها. ومن هنا ابتدأ ابن أبي عامر بتنفيذ خطته للسيطرة على السلطة، فأضعف الصقالبة وحدّ من سلطتهم وتأثيرهم، ووضع عليهم عيوناً تراقبهم وتسجل عليهم كل خطوة إلى الخارج أو الداخل. عند ذلك استعفوا من الخدمة في القصر، ثم اضطرّوا إلى ترك البلاد، كفائق النظامي الذي هرب إلى الجزائر ومات هناك.(٢)

٢ - صراعه ضد المصحفي جعفر:

كان جعفر على العموم يثق بابن أبي عامر رغم أنه كان يعارضه، أي هذا الأخير، بسياسته التي كانت تقوم على الاستئثار بالأعمال والأموال، فكانا على طرفي نقيض أخلاقياً. فالمصحفي كان بخيلاً. وابن أبي عامر كان جوّاداً في سبيل مصلحته. الأول كان يقتني الضياع والثاني كان يصطنع الرجال بإغداق الأموال عليهم، كما فعل مع بني يرزال الذين ضمّهم إليه بعد أن كانوا في بطانة المصحفي. وبالرغم من تألق نجم إبن أبي عامر والتفاف رؤساء الجند عليه، بقي يغدو إلى دار المصحفي ويروح ويصبح ببابه ويختص به. كان يصنع كل ذلك لأن

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣١٩.

(٢) المرجع نفسه.

الوقت لم يكن قد حان بعد لكي يضرب ضربته القاضية.

٣ - رد هجوم القشتاليين:

ولم يطل الوقت حتى نادى الجميع باسمه وأصبح أكثر الجند في العاصمة بيده. وعندما أغار القشتاليون على قلقه رباح بعد وفاة الحكم، أبدى المصحفي آراءً فيها الكثير من الجبن في مجابهة الأعداء، كإزالة الجسر القائم على نهر آنة حتى لا يستطيعون المرور. عند ذلك انبرى ابن أبي عامر، وقد سانده الوزراء، وطلب إلى المصحفي أن يجهّز الجيش للحرب وعرض عليه قبول القيادة، شريطة إعطائه حرية اختيار الرجال والاستعداد للغزوة بكل ما تتطلّبه من مال ورجال. لم يستطع المصحفي إلاّ القبول. وراح ابن أبي عامر يجرّد الحملة التي اجتازت في سيرها وادي آنة وعبرت نهر تاجو واقتحمت مدينة ربضة وغيرها، فغنم ابن أبي عامر غنائم كثيرة ثم قفل راجعاً بها إلى قرطبة بعد غياب ٥٣ يوماً. فاستقبله الناس استقبال الأبطال، وأخلص له الجند والقادة لما رأوا فيه من شجاعة وكرم والتفّوا حوله وأحبوه[١].

٤ - التقرب من قائد جيش الثغر:

أخذ نجم جعفر يأفل شيئاً فشيئاً، بعكس ابن أبي عامر الذي عزم على استغلال هذا النجاح للقضاء على جعفر وعلى من يقف في طريق تفرّده بالحكم وشؤون الدولة. وقد حصلت في هذه الأثناء جفوة بين جعفر وغالب الناصري صاحب مدينة سالم وقائد الثغر القوي، تحولت إلى عداوة مستحكمة لعدم إشراكه في سلطان الدولة الذي استأثر بها المصحفي. انتهز ابن أبي عامر هذه المناسبة للتقرب إلى غالب واكتساب ثقته للاستعانة به على إسقاط المصحفي، وإن كان في قرارة نفسه ينوي إسقاط الاثنين معاً. ثم إن مساعيه عند السيدة «صبح» وسائر الحرم كانت قد أفلحت، فأخرج هشام كتاباً من القصر بترقية غالب إلى رتبة الوزارتين وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير للصوائف، على أن يدير ابن

(١) أنظر ملحق رقم ٩: إنجازات ابن أبي عامر العسكرية.

أبـي عـامـر جيش الـحـاضـرة قرطبة، ويدير غالب جيش الثغر. بهذا التقارب توافرت لابـن أبـي عـامر الظروف المؤاتية لتوثيق التحالف مع قائد جيش الثغر.(١)

قام غالب وابن أبي عامر بالحملة الثانية، بعد أن تعاقدا على الإيقاع بالمصحفي. ولم تزد قيمة الانتصار العسكري فيها عن احتلال حصن يدعى «مولة»، وكان الفضل في هذا النصر لغالب، لكنه تجرد عن فخره ونَسَبَه إلى ابن أبي عامر لكي يشتهر صيته ويشغل الناس بالحديث عنه. وما أن وصل المدينة وهو عائد بالغنائم والسبايا حتى صدر أمر الخليفة بعزل المصحفي عن رئاسة الشرطة والمدينة وتعيين ابن أبي عامر مكانه، وكان المصحفي قد احتكر هذا المنصب لابنه منذ زمن بعيد.

راح ابن أبي عامر يضرب بيدٍ من حديد على أهل الفسق والمنكرات فسدّ باب الشفاعات وضبط الأمن في المدينة، وطوّق المصحفي في قرطبة من جميع الجهات. وهكذا سيطر على شؤون الأمن وأبواب المدينة والجيش والقصر والسيدة «صبح» والحريم والخليفة هشام، وأصبح الكل طوع بنانه.(٢)

تنبّه المصحفي للمكيدة فتقرّب من غالب ليفك الطوق والعزلة عنه وخطب ابنته أسمى لابنه. وكادت هذه الخطوة تعطي ثمارها لولا أن ابن أبي عامر تنبّه لها وكاتب غالباً ينشده العهد ويطلب يد أسمى له شخصياً. كما أنه دفع أهل القصر إلى الطعن في هذه الخطوبة، فتمّ فسخ المصاهرة في حين وافق غالب على زواج ابنته من ابن أبي عامر.

قام بالحملة الثالثة التي التقى فيها والد زوجته غالباً في طليطلة. وبعد إحراز انتصارات باهرة، كان كبير الفضل فيها لغالب، عاد إلى قرطبة فنال رضى الخليفة الذي قلّده منصب ذي الوزارتين، بينما قلّد غالباً الحجابة بالاشتراك مع المصحفي.

أيقن المصحفي أن حياته السياسية قد انتهت، فكفّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير، فانقبض عنه الناس وذهبوا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٦٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣١٩-٣٢٠.

إلى ابن أبي عامر؛ إلى أن صار المصحفي يذهب إلى قصر قرطبة وليس في يده من الحجابة إلاّ الاسم.

خلف ابن أبي عامر المصحفي مع هشام فأنزل به هذا الأخير قصاصاً بأن أبعده عن الحجابة السنة ٩٧٨م. ثم لم يطل به الوقت حتى أمر بالقبض عليه وعلى ولده وأصحابه فأعدم البعض وألقى المصحفي مع البعض الآخر في السجن وطالبهم بالأموال التي صرفوها بغير قاعدة.

ثم قام ابن أبي عامر بإقناع هشام بأن يصفّي أموالهم وينزل بهم أشد الذلّ والهوان فيقتل ابن شقيق المصحفي ويبيع قصره في الرصافة الذي كان من أعظم قصور قرطبة.

وبعدما أنزله إلى الحضيض وراح يحجز عليه حيناً ويأخذه معه بغزواته حيناً آخر ويسجنه تارة، سُلّم إلى أهله وليس على جسده سوى كساء خلق لبعض البوابين. وهكذا مات المصحفي وأصبح ابن أبي عامر الرجل الأول في الدولة، وتولى الحجابة مع صهره غالب. ثم انفرد شيئاً فشيئاً بالسلطة بعد أن سيطر كلياً على الخليفة القاصر الضعيف الذي أصبح ألعوبة بيديه.(١)

٥ - مواقف ابن أبي عامر الاستبدادية:

لم يصل ابن أبي عامر إلى هذه المرتبة إلاّ بمساندة قوى كانت تكره المصحفي، وليس إيماناً منها بأفضليته. وكان يعلم أن هؤلاء سينقلبون عليه يوماً ما إذا سار في نفس المسار الذي سار عليه المصحفي. لذلك راح يتخذ إجراءات جديدة يحفظ بها نفسه من مؤامرات أعدائه، فخلق جيشاً جديداً وضيّق على معارضيه فقتل البعض منهم وحجز على الآخرين.

٦ - الجيش الجديد:(٢)

تحالف ابن أبي عامر مع القوى التي خلقها المستنصر وكانوا يدعون باسم الصنائع الحكميين. ولكنه لمس بين صفوفهم تذمراً من استبداده، لذلك لم

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص٣١٩-٣٢٢.

(١) د. بيضون، المرجع نفسه، ص ٣٢١.

يستطع أن يكمل الطريق معهم. وكان يعرف بأن الثقل العسكري كان في الثغر الذي يقوده عمّه غالب، وأنه في الماضي كانت تحدث خلافات مع قرطبة كان الثغر وباقي الثغور تستعين بالقوى المسيحية ضدها. لذلك راح يعمل على بناء جيش جديد له يتألف من البربر.

٧ - إجـــراءات ابـــن أبـــي عـــامـــر العسكرية:

كان بربر أفريقيا يعيشون ظروفاً صعبة في بلادهم، إذ كانت القبائل تحارب القبائل الأخرى. لذلك وجد المغلوبون منهم الانخراط في جيش أبي عامر الوسيلة الفضلى لعيش أفضل، ولا سيما أنه كان سخياً بالمال على من يتطوع معه، ثم لأنهم كان لهم أخوة في جيشه كانوا يستدعونهم للعمل معهم تحت لوائه. ولكي يكسب ودّهم عيّن قائداً لهذا الجيش الجديد واحداً منهم هو جعفر بن حمدون من قبيلة زناتة، كان قد وصل إلى الأندلس قبل تقلّد ابن أبي عامر الحجابة مع ستمائة رجل من أبناء قبيلته.

ولكي يأمن شر حاسديه وأعدائه لا سيما بعد مقتل المصحفي، بنى لنفسه ولجيشه الجديد مدينة الزاهرة السنة ٩٧٨م على نهر قرطبة، وأقام فيها قصراً له يحاكي قصر قرطبة عظمة وجمالاً. ثم حصّن المدينة وشحنها بالأسلحة والأموال والخيرات التي كانت تملأ أهراءها.

كل هذه الإجراءات لم تُخفَ على غالب الذي حنق عليه لحجزه على الخليفة ولاستيلائه على كل شؤون الدولة. لذلك دعاه غالب إلى وليمة في قلعة على الحدود ثم انفرد به وراح يعاتبه وحاول الإجهاز عليه لولا أن فرّ وهبط بفرسه من أعلى القلعة ونجا من الموت بجروح بسيطة.

كانت هذه الحادثة بداية حرب بينهما استطاع ابن أبي عامر خلالها احتلال مدينة سالم. فاستنجد غالب بالمسيحيين في الشمال لمقاتلة ابن أبي عامر الذي قصده على رأس جند الحاضرة وجند البربر وجنود أهل الثغور الذين انضموا إليه وعلى رأسهم النجيبيون. وقعت المعركة الفاصلة التي كاد غالب أن يتغلب فيها على خصمه لولا أنه هوى عن حصانه وقتل. وبذلك تخلص

ابن أبي عامر من أكبر منافسيه وأصبح سيد البلاد المطلق فزاد استبداداً واتخذ لقباً دينياً خلافياً «المنصور» وأمر بالدعاء له «كلقب الدعاء للخليفة» على المنابر. ولم يتبق للخليفة هشام من كل صلاحياته وامتيازاته سوى الدعاء على المنابر.[1]

ولكي يستردّ ثقة الشعب التي أضعفتها الشائعات قام بالإنجازات الآتية:

* زاد في جامع قرطبة وعوّض لأصحاب الأرض مالاً وعقاراً.
* أقام قنطرة ثانية على نهر الوادي الكبير لقرطبة وأنفق عليها أموالاً طائلة.
* بنى قنطرة على نهر شنيل باستجة.
* قام بغزوة في أرض جليقية.

وكان لا يستريح إلاّ إذا أشرف بنفسه، قدر الإمكان، على كل شيء في الدولة، ولا سيما الجيش ساعِدَه الأيمن. لذلك راح يستزيد من العناصر الغريبة فيه، من صقالبة وبربر، ويربط هذه العناصر به شخصياً. كما عمل على ألا يستقطب أي قائد ولاء هذا الجيش له. وهذا ما يفسر قتله جعفر بن حمدون البربري الزناتي إذ استعان على قتله بمعن النجيبي الذي فاجأه إثر خروجه من مجلس شراب مع المنصور الذي جعله يسرف في شرابه لتسهيل الاغتيال.

وعندما كثر البربر والصقالبة في جيشه أصدر العامري أمراً يعفي بموجبه الأندلسيين من التجنيد الإجباري. وأعلن ذلك في بيان قرأه الخطباء من على المنابر في المساجد.

٨ - العامري ومعارضوه:

اعتبره الكثيرون غاصباً، فمن الطبيعي أن يكون له معارضون كثر حتى ولو بطش بخصومه الأقوياء ولو مارس كل السلطات التي كان يمارسها الخلفاء الأقوياء. لقد كان مضطراً لأن يسمع مشورة أهل الرأي، وكان مضطراً لأن يستبد أكثر، خوفاً من أن تنطوي هذه المشورة على أفخاخ توقع به.

لذلك راح يراقب بعين ساهرة كل شاردة وواردة في البلد واستخدم كل الوسائل لمراقبة كل فئات المجتمع، حتى خيِّل للجميع أن للجدران أعيناً تنظر وآذاناً تسمع.

لقد عمل على مراقبة الفئات الآتية:

(١) المرجع نفسه، ص ٣٢٤-٣٢٦.

أ - الفئة الأولى: حاشية الخليفة:

راقب هذه الفئة عن كثب فأصبح هشام أسيره في قصره الذي حصنه بسور وخندق مياه وأقام عليه الحراس من خاصته ليلاً ونهاراً خشية أن يخطف المروانيون أو غيرهم هشاماً ويقوموا باسمه بأعمال ما. ثم منع وصول أي خبر إليه إلاّ بإذنه الخاص.

ب - الفئة الثانية: فئة المروانيين:

كانوا يطمحون إلى السلطة والتسلط على الخلافة ذاتها، ففرض عليهم الإقامة الجبرية وأوكل أمر حراستهم إلى فتيان الصقالبة الموثوق بهم. ثم منعهم من الاتصال بالخارج إلاّ في الأشياء الضرورية، كالاتصال بالطبيب أو المعلم. وبالرغم من ذلك كان يخشى استغلالهم غيابه، لذلك كان يأخذهم معه في غزواته.

ج - الفئة الثالثة: فئة الموظفين:

لم يخشَهم كثيراً، لأنه أقام عليهم موظفاً خاصاً يراقب أعمالهم وكل تحركاتهم.

د - الفئة الرابعة: عامة الشعب:

أما عامة الشعب فقد حرص على أن يظهر أمامها في مظهر المتديّن والزاهد، وكان يحمل معه دائماً مصحفاً خطه بيده ليدرس فيه ويتبرّك به. وبما أن العامة تتنكّر للفلاسفة والعلماء، راح العامري يحارب هؤلاء في بعض النواحي، كالفلسفة والعلوم القديمة لا سيما الفلكية منها. ورغم كل ذلك انتقدته العامة لاغتصاب السيادة من صاحب السلطان، رغم أنه روّج أن هشاماً قد تنازل عن ممارسة السلطة لانشغاله بأمر عبادة الله. وكان هذا الانتقاد موجهاً من الفقهاء الذين كان لهم تأثير كبير على هذه الطبقة.(١)

٩ - موقف العامري من الفقهاء:

كان الفقهاء في الأندلس يؤلفون طبقة بارزة لها أهميتها في الدولة، وظيفتهم حراسة الشريعة والسهر على سير الإدارة والمعاملات وفق مقتضيات هذه الشريعة. ومنهم من كان مستشاراً في الدولة، يعود

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣١٩.

إليـه الأمـراء والخلفاء والقضاة لفتوى يطلبونها في قضية من القضايا. ومنهم من كان قاضياً أيضاً، وفي هذا المجال كانت صلاحياته واسعة جداً. وكانوا أحياناً يضيفون إلى وظيفتهم وظيفة الأشراف على سير الأعمال في كورة من الكُور. لذلك كانت مكانتهم عالية في الدولة، فمنهم أرباب الكلمة المسموعة عند عامة الشعب. وكان الكل من أمراء وغيرهم يتسارعون لخطب ودهم وكسب رضاهم، لأنهم كانوا بحاجة إلى فتاويهم في كل عقد، سواء أكان شخصياً أم للدولة.

وكان تعيينهم يعود إلى الخليفة بالذات، فيتقبل منهم مواعظهم القاسية ضد بذخه. والفقهاء يتساهلون مع الخلفاء وبأمور معينة، إذ ينشدون آراء مذاهب أخرى غير مذهبهم المالكي لكي يصدروا للخليفة فتوى تكون لمصلحته.

اجتهد العامري لنيل ودّهم بشتى الوسائل. إنما ورغم كل ذلك بقيت الغيوم ملبدة نوعاً ما في سماء علاقاتهم بسبب استبداده. إلاّ أن الخلاف لم يصل بينهما إلى حد القطيعة، إذ بقيت العلاقات تسير سيرها الطبيعي، إلى أن حاول المنصور الحصول على فتوى تجيز التجميع في مدينة الزاهرة ليضفي عليها العظَمَة. رفض قاضي الجماعة ذلك استناداً لقول مالك: «لا يُجمع في مصر واحد في جامعين». حنق المنصور عليه، لكنه أذعن للواقع ولم يجمع في الزاهرة إلاّ بعد موت قاضي الجماعة، مما اضطر الفقهاء المعارضين إلى أن يحضروا للصلاة في جامع الزاهرة خشية غضب المنصور عليهم.

١٠ - مؤامرات المقربين إليه ضده:

قضى المنصور على كل أعدائه، لكنه لم يفكر يوماً بأن الخطر سوف يأتيه من أقرب المقربين إليه. وهكذا أتاه من ابنه عبد الله الذي دخل قلبه الحسد لمّا رأى أن والده يفضّل أخاه عبد الملك عليه رغم تفوقه على أخيه هذا في كل شيء.

تحالف عبدالله مع عبد الرحمن النجيبي صاحب الثغر الأعلى، الذي كان يخاف أن يأتي دوره لا محالة ليُقضى عليه. وانضم إليهما حاكم طليطلة المرواني وكل الناقمين على المنصور في قرطبة وخارجها.

عرف المنصور بالمؤامرة فضربها ضربة قاضية، إذ قام بغزوة للشمال، وفي طريقه عزل حاكم طليطلة، ثم قتل عبد الرحمن وعيّن مكانه شخصاً رضي عنه النجيبيون. أما ابنه، فقد أراد إصلاحه، لكنه هرب إلى المسيحيين الذين اضطروا إلى تسليمه بسبب احتلال المنصور لعدد من حصونهم. ولما كان في الطريق قتله الحارسان المكلفان بإيصاله بأمر من والده المنصور.

بعد ذلك زاد المنصور تعسّفاً واستبداداً وأعطى ابنه عبد الملك الحجابة والقيادة العليا، كما أعطى ابنه عبد الرحمن الوزارة.

دفعت هذه التدابير «صبح» أم الخليفة هشام لأن تقوم ضده وتنتقد أعماله. وهو أيضاً كان قد مال عنها لأنها كبرت، فقامت بتهريب الأموال من القصر إلى خارجه لإنفاقها على الأعوان. لكن المنصور، وبقرار من الفقهاء والوزراء الذين اتفق معهم، نقل المال كله من قصر هشام إلى قصر المنصور، وبعثر الكثيرين من خدم هشام إلى نواحي مختلفة لكي يخلو القصر من التآمر عليه.

ماتت السيدة «صبح» بعد ثلاث سنين من هذه الإجراءات. أما ابنها هشام (٣٠ عاماً)، فقد بقي في ذلك الوقت نسياً منسياً.

١١ - وفاة المنصور:

أثناء مرضه قام المنصور بآخر غزوة في منطقة جليقية. وبعد أن اشتدت به العلة وأقعدته عن الحركة حُمل على سرير خشبي إلى مدينة سالم مقر الثغر الأعلى. عند ذلك خلا بولده عبد الملك، الذي كان يفضّله على كل أولاده، ليضع بيديه السلطان الذي عمل كل حياته لبناء أسسه الثابتة ونقله إلى أسرته. ثم أوصاه بأن يقيم مع أخيه في قرطبة، وأن يكمل سياسته تجاه هشام، وأن يضرب بيد من حديد كل من تسوّله نفسه القيام بأي عمل ضده. ثم طلب ألا يضع يده بيد مرواني لعلمه بأن هؤلاء، وإن أظهروا له الطاعة، فإنهم يُضمرون له ولكل أسرته الحقد والبغضاء. كما طلب

إليه أن يذهب إلى قرطبة ليكون هناك حين يلفظ والده أنفاسه الأخيرة[1].

عاد عبد الملك إلى قرطبة وأخبر الخليفة عن حال والده الذي توفي قبل وصوله بثلاثة أيام. أما الجند الذي كان بقيادة أخيه عبد الرحمن، فقد تمرّد أفراده عليه وأعلنوا ما في أنفسهم عن الرغبة باللحاق بباب الخليفة هشام لكي يأتمروا بأمره.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٢١.

ملحق رقم ٦
سيرة الحكم المستنصر

كتب ابن الأثير عن المستنصر ما يأتي:[١]

«الحكَم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المستنصر بالله الأموي صاحب الأندلس. وكانت إمارته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وعمره ثلاثاً وستين سنة وسبعة أشهر. وكان أصهب، أعين، أقنى، عظيم الصوت، ضخم الجسم، أفقم. وكان محباً لأهل العلم، عالماً فقيهاً في المذاهب، عالماً بالأنساب والتواريخ، جمّاعاً للكتب والعلماء مكرماً لهم محسناً إليهم. أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن إليهم. ولما توفي ولي بعده ابنه هشام بعهد أبيه وله عشر سنين ولقّب المؤيد بالله».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٦٨.

ملحق رقم ٧
إنجازات ابن أبي عامر العسكرية

كتب ابن خلدون عن إنجازات ابن أبي عامر العسكرية ما يأتي:(١)

«أول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون. ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة. ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة الفازع إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر. ثم قتل جعفر عماله ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتّب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرّف عرفاء من صَنْهاجة ومَغْراوة، وبني يغرن وبني برزال ومكناسة، وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة. وملأ الدنيا في جوف بيته، مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، وردّ الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد. وقدّم رجال البرابرة زناتة، وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالمُلك والاستبداد بالأمر. وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسمّاها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣١٨-٣٢١.

والأسلحة. وقعد على سرير الملك، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك، وتسَمّى بالحاجب المنصور. ونفّذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه في السكة والطرز، وعمّر ديوانه بما سوى ذلك.

وجنّد البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول إليها من الغلَبة فظفر من ذلك بما أراد. وردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرث فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فُلَّ له جيش ولا أصيب له بعث، ولا هلكت سرية. وأجاز عساكره إلى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة بعضهم في بعض فاستوثق ملكه بالمغرب وأذعنت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر. لما سخط زيري بن عطيّة ملكهم لما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والتأنّف لحجر الخليفة هشام، فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين، ونزل بفاس وملكها، وعقد لملوك زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها على ما نشير إليه بعد. وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت، وأبعد المفر، وهلك في مفرّه. ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحاً على المغرب. وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاء سنة أربع وسبعين وثلثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته، ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه».

الفصل السادس عشر
تفكك الخلافة الأموية في الأندلس

بعد وفاة المنصور بن أبي عامر بدأت الخلافة تتراجع وتتفكك وصولاً إلى سقوطها وعودة التشرذم إلى الأندلس.(١)

أولاً : عبد الملك بن المنصور العامري

ولّى هشام عبد الملك الحجابة وإدارة الدولة مكان أبيه وخلع عليه لقباً سلطانياً (المظفّر). ثم طلب إليه قمع ثورة الصقالبة الذين استغلوا الفرصة لإعادة نفوذهم القديم، فضرب ضربته القاضية ونفى العصاة منهم إلى مدينة سبتة.(٢)

سار عبد الملك على خطى والده في صورة فائقة، فخفض سدس المغانم على الناس وبعض الضرائب كما صنع والده باستقدام البربر واستخدامهم في جيشه وإغداق الأموال الطائلة عليهم وعلى الصقالبة الذين استكثر منهم أيضاً.(٣)

ثم راح يتابع غزواته على الشمال المسيحي حتى لم تكن سنة واحدة لتخلو من غزواته وذلك كي يبهر الناس بانتصاراته ويعلي شأن الدولة الأندلسية الإسلامية. وهذا التقيّد الحرفي بوصية والده وطرقه في الحكم دفعه إلى أن

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٣٣٣.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٠٦-٣٠٧.
(٣) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص ٧٣.

يتمسك بكل الامتيازات والوظائف التي أعطاها والده لأهل القلم، من خطيب وشاعر ونديم وتاريخي وغيرهم، رغم أنه كان محارباً في طبعه وعديم المعرفة والعلم والأدب. فعيسى بن سعيد القطاع الذي كان من صنائع المنصور، كان السيد المسموع الكلمة والمهاب.

وعندما أهمل عبد الملك تدبير شؤون الدولة وكان قد عين وزيراً وانفتح له الباب على مصراعيه، كان منافسوه له بالمرصاد. فمنافسه طرفة، أحد الفتيان العامريين الصقالبة، جمع كل حاسديه ومنافسيه وراحوا يترصدون للإيقاع به. وكان معهم عبد الملك الجزيري وهو شاعر القصر، وقاضي الجماعة أبو العباس بن ذكوان الذي كان عدو القطاع الألد.

فطرفة هذا، الذي يجمع بين السيف والقلم، توصل إلى أن يخطب ود عبد الملك، وبالتالي أن يعتلي أعلى المراتب. ثم عمل على رفع عبد الملك الجزيري لمرتبة الوزارة. وكاد يقضي على ابن القطاع فعرف هذا الأخير كيف يتجنّب الموجة العارمة حتى تحين له الفرص. فعندما وقع عبد الملك المظفّر مريضاً، راح طرفة يستبد ويُصرّف الأمور على هواه. فقام ابن القطّاع بالدسّ على طرفة لدى المظفر الذي شفي من مرضه ورأى أن طرفة قد استغل مرضه فقام بأعمال بغير علمه، وقد انتقده وهو ولي نعمته. لذلك حنق عليه وقرر قتله الذي تم عندما كان برفقته في سرقسطة. ثم أصدر عبد الملك من هناك أمراً بقتل صديقه الوزير الشاعر الجزيري وبعزل ابن ذكوان من منصبه كقاضي الجماعة.

خلا الجو لابن القطّاع فراح يتقرب من قاعدة الجيش وأغدق عليهم الأموال والعطاء وجعلهم تحت إمرته. ثم راح يتقرب من العائلات الكبيرة بالمصاهرة فرفع من مكانته العائلية وثبّت أخيراً ذاته في هذا المستوى بتزويج ابنه من ابنة المنصور. وعند ذلك راح يحكم بنوع من الاستقلالية، ولكن تحت راية عبد الملك المظفر. فأعماله بالعموم كانت موجهة لرضاه. ولكن بعض أفراد العائلة المالكة فكروا بأن هذه الأعمال سيئة في حقهم وبأن ابن القطاع يستأثر شيئاً فشيئاً بالحكم، فتذمروا وكادوا له. فالزلفاء، والدة المظفر، حنقت عليه لأنه

أشار على ابنها بزواج لم تكن راضية عنه. وعبد الرحمن أخو المظفر قام ضده لأنه طلب إلى عبد الملك إبعاده عن معشر رفاق ظَنَّهم رفاق سوء. وكان ابن القطاع في كل ذلك يبغي رفقة الأسرة المالكة وخيرها.

شعر المنافسون والأعداء بهذه الأجواء فانضموا إلى الأم والأخ والابن، وراحوا يوغرون صدر المظفر عليه فصوروه له بأنه يعمل سراً ضده وضد عائلته بكاملها. وزاد في هذا الموقف امتناع ابن القطاع عن مجالسة عبد الملك للشراب. وعندما علموا بأن عبد الملك يشك به، راحوا يتهمونه بالمؤامرة مع هشام عبد الجبار الأموي لقتل المظفر ولخلع هشام المؤيد والمناداة لابن الجبار الأموي بالخلافة.

منذ ذلك الحين دعاه المظفر إلى حفلة شراب وقتله في السنة ١٠٠٧. ومذذاك غيّر المظفر خطته في الإدارة فعاد إلى سياسة والده وراح يشرف بذاته على الموظفين والكتاب وكل دوائر الدولة بما فيها الجيش.

وكان المظفر شغوفاً كوالده بالألقاب، لذلك راح يستصدر من هشام المؤيد بعد انتصاره في إحدى غزواته في بلاد النصارى كتاباً يمنحه فيه أيضاً لقب «سيف الدولة» ويسمح له بالتكني باسم «أبي مروان» في مجالس الخلافة وفي الكتب الخارجة عنه أو الآتية إليه. ولكنه لم يتمتع طويلاً بهذا اللقب إذ إنه توفي بعد سنة أثناء إحدى الغزوات بالذبحة القلبية على مقربة من قرطبة سنة ١٠٠٨م.

ثانياً: عبد الرحمن شنجول بن المنصور

عند وفاة المظفر خلفه عبد الرحمن بن المنصور من زوجته عبده بنت شانجة ملك بمبلونا. وكانت أمه تدعوه في صغره سانشويلو Sanchuelo تذكراً منها لاسم أبيها سانشو Sancho خاصة وأنه كان أشبه به.

وفور وفاة أبيه المظفر عزّاه الخليفة وقلده الحجابة. وفي خلال ١٠ أيام حصل منه على لقبين وهما:

- ناصر الدولة.
- المأمون.

ولكن الدولة العامرية التي رئِسها لم تبقَ بين يديه سوى ستة أشهر فقط. ثم سقط

وسقطت هي ودخلت الأندلس بكاملها إثر ذلك في فترة استمرت زهاء ربع قرن كان من نتيجتها أن غرقت الدولة الأموية كلها في خضمها وغرقت معها وحدة الأندلس التي نشأت في ظلها.

كل ذلك جرى بهذه السرعة لأن شنجول قد استبق الأحداث والظروف المؤاتية بسبب غروره بنفسه وبسبب بشاعة أخلاقه التي تعتبر جعبه شاملة لكل المساوئ والأعمال المنكرة. لقد اندفع للوصول إلى ما أحجم عنه والده وأخوه وهو الطعن بالخلافة. فالأب والأخ عملا للوصول إلى أعلى مراتب في الدولة ولكنهما لم تساور نفسيهما ولا مرة واحدة الحصول عل الخلافة بحد ذاتها. أما هو فقد كان مغروراً لا يقدِّر العواقب، فسوّلته نفسه أن يلتمس الخلافة وولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد ويقوم بأمر المسلمين من بعده.

وقد توصل بعد مراهنة أن يقنع هشاماً المؤيد الضعيف أنه قريب له من جهة الخؤولة، وأنه يحق له أن يكون ولي عهده. لذلك استصدر في اليوم الثاني كتاباً يصرّح فيه الخليفة أنه اختار شنجول للخلافة دون بني عمه وذويه إذ لم يكن له ولد يخلفه. وبهذا الكتاب ظن شنجول أنه أصبح وريثاً ووارثاً للخلافة، فراح يُعمم هذا الخبر على سائر أنحاء الأندلس ويأمر الولاة فيها بالدعاء له على المنابر بالعهد بعد الدعاء للخليفة. كما عهد بالوقت ذاته لابنه بالحجابة وأعطاه لقب «المظفر» رغم أن هذه الوظيفة كانت بين يدي ابن أخيه من امرأته الزلفاء التي كانت تتهمه بقتل أخيه عبد الملك.[1]

كان من الطبيعي أن يهبّ الأمويون للدفاع عن حقوقهم المغتصبة وأن يعملوا على قتل الغاصب واسترجاع الخلافة. وما إن رفعوا صوتهم حتى قامت الزلفاء تمد لهم يد المساعدة رغم أنهم أعداء للأسرة العامرية كلها.

تجاوب مع هؤلاء موظفو الدولة الذين أغضبهم شنجول بتصرفاته المذلّة معهم وتحقيره إياهم، عندما أوعز إليهم بطرح قلانسهم الطّوال المرقّطة «التي كانت كالتيجان يباهون بها طبقات الرعية وأهل المملكة».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٧.

وهكذا حفر شنجول قبره بيده إذ إن فكرة اغتصاب الخلافة كانت كافية لقلب كل أهل الأندلس ضده. ولذلك، ما إن أعلن هشام بن عبد الجبار الأموي (ابن عبد الرحمن الناصر) الثورة في قرطبة، حتى هبّ الأنصار بين عوام قرطبة وبين صفوف الجند، تدعمهم الزلفاء، لإعلان ولاءهم للثائر الذي أراد تحريرهم من نير الظلم والاستبداد الغاشم.(١)

وهكذا أعلنوا ثورتهم في وقت كان شنجول في غزوة في بلاد الشمال حيث البرد وشدة المطر. وكان أحد فتيانه المخلصين قد نصحه بالامتناع عن الغزو في هذه الظروف لأن أحد المروانيين يدبّر مكيدة للإطاحة به وبالأسرة العامرية بأسرها، لكن شنجول لم يعمل بالنصيحة. وما كاد يصل إلى طليطلة حتى ترامت إليه أخبار الثورة في قرطبة، وعن دخول الثائر قصر الخلافة ثم مدينة الزاهرة ونهبها وإحراقها، فقرر العودة لمواجهة عدوه، وعرج في طريقه على قلعة رباح حيث أمضى أربعة أيام.

كانت الفرصة مؤاتية للثائر لتمكين نفسه أكثر. كما أنّ التأخير أظهره أمام جنده فاقداً الثقة بنفسه فتركوه مع نفر من غلمانه، ولاسيما بعد أن أيقنوا من نفاد ماله الذي كان يغدقه عليهم، وعرفوا بسيطرة عدوه الأموي على مدينة الزاهرة واستيلائه على أموال الدولة.

ورغم نصيحة زعيم نصراني صديق له (غرسية غوميز Garcia Gomez) بعدم العودة إلى قرطبة وبالفرار، بعد أن لمس اضطراب حاله وإعراض أغلب الجند والفتيان الصقالبة المقربين إليه عنه، فقد أصرّ على العودة. وما إن اقترب من قرطبة، حتى فوجئ بالحقيقة الجارحة.

لقد تركه كل جنده فبقي وحيداً مع صديقه النصراني. ولما رفض الاستسلام للثائر وحاول الهرب قبض عليه هشام بن عبد الجبار وعلى صديقه وقتلهما وعلّق رأسيهما على خشبة طويلة على باب السدّة في قصر قرطبة في السادس عشر من شباط السنة ١٠٠٩م.(٢)

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٧٠. - د. بيضون، مرجع سابق، ص ٣٣٨-٣٣٩.

وتعتبر الثورة ضد شنجول، وبالتالي ضد العامريين، مرحلة انتقال ما بين عهد الخلافة الزاهر وعهد الطوائف الذي حلّ محله. ففي هذا العهد برزت قوى جديدة على مسرح الأحداث فقاتلت الواحدة الأخرى، وادعت كل منها الأحقية بالخلافة الحقيقية التي تعددت بتعدد القوى التي حصلت عليها.

ثم إن هذه القوى انتهت بإقامة دويلات متعددة في كل نواحي الأندلس، فرضها واقع عجزِ كل منها عن فرض سيطرتها على الأندلس بكاملها باسم الخليفة الذي رشحته.

فبعد أن استولى محمد بن هشام المرواني على قصر قرطبة وحصل على تنازل هشام المؤيد عن الخلافة وتلقى البيعة بلقب «المهدي»، توجه مع جماعة الجماهير المؤيدة له إلى مدينة الزاهرة معقل العامريين. وهناك، وبعد قتال ضار، استسلم حماتها على أمان من المهدي الذي دخلها وأبعد العامة عنها كي يستصفي ما يرغب به من أشياء ثمينة وجوار. ثم سمح للعامة بنهبها وحرقها، وسرعان ما أصبحت خرابا.[1]

ثالثاً - الحروب الأهلية:

أ - خلافة المهدي:[2]

إن محمداً بن هشام المهدي هو حفيد لأحد أبناء عبد الرحمن الناصر الأموي ويعتبر انتصاره انتصاراً للأمويين الذين كادت الخلافة تسقط من بين أيديهم، لولا أنّ المهدي لم يضرب ضربته.

لقد ضرب ضربته بعد دعمه من عامة الشعب، فانتصر وأدخل منهم الآلاف في مناصب الدولة. وبالإضافة إلى الشعب كان الأمويون في مقدّمة الثّوار، بعد أن دغدغتهم شهوة الحكم المفقود والخلافة المهلهلة. ساند كل هؤلاء الثغر الأعلى، بما يمثل من

(١) د. بيضون، المرجع نفسه، ص ٣٤١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٢٣-٣٢٤.

ثقل عسكري لكل الأندلس، والناقمون على الدولة، مثل الزلفاء، والموظفون وغيرهم.

كل هؤلاء قاموا ضد الحكم العامري المستبد الذي أراد أن ينتزع الخلافة من هشام المؤيد الضعيف. إلا أن الانتفاضة حاقت بها ظروف حالت دون تمكّنها من توطيد أركانها من جديد.

ثم أعلن المروانيون (الصنائع المدنيين - الصقالبة - البربر) ولاءهم للخليفة الجديد وتخلوا عن شنجول. ولكن هذا الخليفة الجديد لم يفعل كما فعل المنصور قبله فيضرب ضربته ويقضي على أعدائه الواحد تلو الآخر ويضربهم ببعضهم البعض، لكنه أبعدهم عن وظائف الدولة واستعان بالعامة، مما دفعهم إلى توحيد صفوفهم عندما شعروا بأن الصفوف في دولة المهدي بدأت تتصارع وتتفرق.

قام المهدي بإخراج الخليفة المؤيد من قصره وأسكنه بعض دور الملوك. وأحضر بدلاً عنه رجلاً ميتاً شبيهاً به، وزعم أن هشاماً المؤيد توفي، وحصل من الفقهاء والقضاة على شهادة بذلك. ثم أجرى مراسم الدفن بكل بساطة، وقام بسجن ولي عهده الذي كان قائداً للنقمة عليه مع فريق كبير من أهل قريش. فزعماء العامريين الصقالبة الذين لم يجدوا مكانة عند المهدي، أخذوا وجهتهم شرقي الأندلس حيث يحكم بعض المقاطعات زعماء منهم، وسيطروا هناك على قسم كبير من البلاد.

أما البربر، فقد أعلنوا عداءهم للمهدي لأن أتباعه من العامة كانوا قد أذلّوهم في ما مضى وحقّروهم ونهبوا بيوتهم وأحرقوها. ثم حبس عنهم المهدي كل مورد مالي.

ب - ثورة هشام بن سليمان: (1)

تولى قيادة كل هؤلاء الناقمين هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي لقب بالرشيد، وأقام معسكراً في فحص السرادب خارج قرطبة، حيث فاجأ المهدي الذي كان يقيم حفلة استقبال لبعض رسل الروم وقتل له وزيرين وحاصره يوماً وليلة. لكن المهدي تخلص من الحصار بحيله وقتل هشاماً.

---

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٧٠.

كانت ثورة هشام بن سليمان فاتحة الفتنة في قرطبة بين البربر والعامة، والتي شجَّع فيها المهدي بن عبد الجبار العامة على قتل البربر أينما وُجِدوا، فكانت مذبحة رهيبة قُتِل فيها من البربر عدد كبير. وهرب قسم آخر منهم إلى الثغر، حيث انضم إليهم سليمان (ابن الحكم بن سليمان بن الناصر) الناصر الذي ولّوه عليهم وبايعوه بالخلافة باسم «المستعين» السنة ١٠٠٩. ثم عمد هؤلاء إلى مقاتلة المهدي وإسقاطه وفتح قرطبة.(١)

لذلك استعان هؤلاء بحاكم قشتالة سانشو غوميز Sancho Gomez الذي آثر مد اليد إلى البربر الغرباء لمساعدته في ما بعد على طرد الخليفة والأمويين من الأندلس، وبذلك يكون قد عمل على تحريرها. وظلت الدولة الإسبانية تمارس هذه السياسة تجاه القوى المتصارعة في الأندلس خلال العصر التالي أي عصر الطوائف.

في هذا الصراع أتيحت الفرصة لسانشو Sancho لإرسال المؤن إلى حلفائه البربر بغية القضاء على المسلمين. ثم سار في الوقت المناسب والمحدد على رأس جيش كبير انضمّ إليه جيش البربر واشتبك الجيشان مع جيش واضح (صاحب طليطلة) عند وادي جاراما Jarama قرب قلعة السلام. هُزم جيش واضح ولاحقه المتحالفون من دون توقف لاحتلال طليطلة العاصمة. ثم ضربوا حصاراً عليها في وادي أرملاط Gualmeltata، وهو من روافد النهر الكبير. وبعد ثلاثة أيام شن البربر هجوماً صاعقاً فانتهت المعركة بهزيمة المهدي، كون أكثر قواده وجنده هم من العامة الذين ليس لديهم أي خبرة في القتال. وفرّ واضح إلى الثغر وقتل البربر عدداً كبيراً من أهل قرطبة يعدّ بالآلاف (١٠ آلاف وفق ابن عذارى و٣٠ ألفاً وفق ابن الخطيب).

حاول المهدي غداة المعركة استمالة البربر، فأرسل إليهم ابن ذكوان القاضي يقول لهم إن هشاماً المؤيد لا يزال حياً وقد أجلسه في شرفة على باب القنطرة حيث يستطيع كل من يشاء أن يراه. رفض البربر هذا الاقتراح باستهزاء قائلين للرسول:

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٧٤.

«سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس، وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه». وجعلوا يتضاحكون منه (ابن عذارى).[1]

ج - خلافة سليمان المستعين: [2]

دعي سليمان بخليفة البربر لأنه استعان بهم للوصول إلى الحكم. نصّبوه في الثامن من تشرين الثاني السنة ١٠٠٩، وبقيت العامة في قرطبة موالية للمهدي. لذلك أخذ يمالئ أهل الثغور، ولاسيما في طليطلة، تمهيداً لدخولهم في طاعته، لكنهم رفضوا لتمسكهم بطاعة المهدي وواضحٍ الفتى.[2]

أمام هذا الموقف راح سليمان يظهر بمظهر القوي. وبعد شهرين من تنصيبه أخذ يضفي على خلافته مظاهر الحكم المستقر، فعين ابنه لولاية العهد وأنفذ كتبه إلى سائر أنحاء الأندلس يخبر فيها عن قرطبة وكيفية قهر أهلها واستباحة دمائهم.

ثم انتقل بجيشه البربري إلى مدينة الزهراء ليبعدهم عن أهل قرطبة الأعداء، ومن هناك حاول إخضاع أعدائه المجاورين لقرطبة، وقد كانوا العنصر الخطر في جند المهدي فجرّهم إلى المعركة وكاد أن يقضي عليهم جميعاً.

بعد هذه المعركة حاول التقرب من أهل قرطبة إذ أخذ يعاقب كل جندي بربري استباح بيوت القرطبيين ونهبها. ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل وبقي القرطبيون يستفردون جنده ويقتلونهم.

ولما استقر حكمه قام بحملة عسكرية على طليطلة، ولما لم يستطع فتحها توجه نحو مدينة سالم عاصمة الثغر الأوسط وحاصرها. ولكن اشتداد البرد وتساقط الثلوج منعاه من مواصلة الحصار، فعاد إلى قرطبة بعد غياب حوالي الشهرين.

أمام هذا الفشل المتزايد للمستعين، تحالف واضح مع مسيحيي الشمال الذي فرضوا شروطاً قاسية لمساعدته وهي:

---

(١) د. بيضون، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٧١.

- د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص ٨٥.

١ - التنازل عن مدينة سالم.

٢ - دفع مائة دينار يومياً لقائدهم.

٣ - دفع دينارين لكل جندي إضافة إلى الطعام والشرب للمعسكر.

تـقـدّم جـيش «واضـح» مـع جـيش المسيحيين إلى سرقسطة، ومن هناك إلى طليطلة، حيث انضمّت إليهم قوات المهدي. ثم زحفوا جميعاً نحو قرطبة حيث تنتظرهم قوات المستعين المتمثلة بعامة الشعب وبقايا الصقالبة وصاحب الشرطة.

دارت المعركة على بعد ٢٠ كلم من قرطبة في موضع يدعى عقبة البقر Elvecan وكانت النتيجة اندحار المستعين، فمات من جيشه عدد كبير من البربر بعد أن كبّدوا المهدي خسائر جسيمة بالأرواح. ثم ترك البربر المستعين وراحوا يمرون رأساً بمدينة الزهراء ويجلبون أولادهم وعوائلهم ويتجهون نحو الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب. أما المستعين فنجا بنفسه وفر إلى مدينة شاطبة في الشرق.

حاول المهدي، الذي خسر الكثير، وكذلك النصارى الذين قتل قائدهم أرمانجول Armengol، استغلال هذا الانتصار، فقام المهدي يشدّد العزائم للمتحالفين معه للقضاء على البربر. وسبب ذلك أنهم كانوا يضمرون له الشر لما فعله بهشام المؤيد وبعبد الرحمن شنجول. وقعت المعركة في وادي Guadiars شهراً واحداً بعد انتصار قرطبة في الواحد والعشرين من حزيران السنة ١٠١٠م، وانتهت بهزيمة منكرة لجيوش تجمع (المهدي + واضح + النصارى)، لا يمكن تعليلها إلاّ بشراسة البربر في القتال إذ إنهم ضربوا ضربة اليائس.

عاد المهدي إلى قرطبة وحاول تحصينها بحفر خندق حولها وإقامة سور خلفه تحسباً لكل طارئ. أما البربر، فبعد أن جمعوا الغنائم الوفيرة، راحوا يحتلون قاعدة منيعة هي حصن ببشتر مقرّ ابن حفصون الثائر القديم. ومنه راحوا يغيرون على ضواحي قرطبة لإضعافها ثم لاحتلالها في ما بعد.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٢٦.

د - إعادة هشام المؤيد: [1]

إثر الحروب الطويلة حلت بقرطبة أزمة معيشية حادة، فساء وضعها بالتدريج وازداد التفكك بين القرطبيين والصقالبة الذين يقيمون بين ظهرانيهم. وما عتم ذلك أن تحوّل إلى عداء للمهدي كونه حطّم الحكم العامري وهم من صنائعه. وهكذا، قام الصقالبة يدعمهم التجار الذين أرهقهم المهدي بطلب المال ووضعوا يدهم بيد واضح الذي دبر قتل المهدي في نفس العام وأعاد هشاماً المؤيد إلى عرش الخلافة من جديد.

أرسل واضح رأس المهدي إلى المستعين إرضاءً له ولحلفائه البربر وطلب إليهم الدخول في طاعة هشام باعتباره الخليفة الشرعي.

لكن المستعين والبربر تألموا لهذا المصير الذي لقيه المهدي على يد واضح وأتباعه الخونة، فسخطوا عليه لخيانته وغدره ورفضوا التعامل معه.

زاد البربر من غاراتهم على قرطبة وقرروا الدخول إليها بعد أن دخلوا مدينة الزهراء وقتلوا الجند والحراس فيها. فضربوا الحصار حولها ومنعوا دخول المؤن إليها فاشتدت الأزمة الخانقة وزادت فيها الفيضانات والحرائق التي أتت على بعض أسواقها.

إثر هذه الضربات والكوارث انقسم الرأي العام بين المتنفّذين من صقالبة وقرطبيين حول مصالحة البربر التي كان واضح يريدها لكنه خذل. ولما حاول الفرار إلى الثغر عرف به الجند فقبضوا عليه واحتزّوا رأسه السنة ١٠١١م. لكن قتله لم يزد الموقف إلاّ تأزماً، فانقسم الصقالبة ذاتهم على بعضهم البعض وراح عبيد الأمويين يتقاتلون مع عبيد العامريين.

وعندما شعر البربر بهذا الانقسام والتخاذل، اقتحموا أرباض المدينة عنوة وأعملوا السيف في الرقاب ونثروا الدمار، فاضطر أهل قرطبة أن يطلبوا الأمان بعد مفاوضات لم تعط نتيجة. وبعد قتال مرير مات فيه الكثيرون في سبيل منع البربر عن دخول قرطبة، طلب أهلها أخيراً الأمان بشخص ابن ذكوان القاضي الذي خرج إلى البربر مع بعض الفقهاء وطلب إليهم الدخول إلى المدينة لقاء أي شروط

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٠٩.

يطلبونها. ودخل سليمان إليها من جديد.

أما هشام المؤيد الذي عرضت عليه جماعته من بقايا العامريين والجند الشاميين الهرب قبيل سقوط المدينة ورفض، فقد استدعاه المستعين إليه وعاتبه ثم صرفه مع ابنه محمد الذي أوصاه به خيراً، وبعد ثمانية أيام من دخول المستعين قرطبة. شُيّع أن محمداً اغتاله من دون معرفة والده وإذنه في السنة ١٠١٣م.(١)

هـ - نتائج الحروب الأهلية:

أدّت الحروب الأهلية إلى نتائج، أبرزها:

- غياب الخليفة هشام المؤيد عن مسرح السياسة والحكم، وهو الذي خلف والده الحكم المستنصر صغيراً وبقي صغيراً إدارياً إذ لم يحكم فعلياً ولا دقيقة في حياته.

- بروز قوتين فعليتين لهما شأن كبير في الحكم والإدارة هما الصقالبة، الذين تمركزوا في شرقي البلاد، والبربر الذين تمركزوا في الجنوب والجنوب الغربي.

- تفكك وحدة الأندلس وانقسامها إلى وحدات مستقلة يحكم كلاً منها أسرة أو شعب غريب كالبربر والصقالبة.

ولم يكن لقرطبة أي سلطة عليهم، وهي التي أصبحت أضعف من أن تحمي نفسها.

و - خلافة الحموديين:

برهن سليمان عن قصر نظر في سياسته عندما أعطى البربر كوراً وولاّهم عليها. فبذلك حرم نفسه من مساعدتهم وعرّض قرطبة لضربات الأعداء الكثر المتربصين به، ومن هؤلاء، الفتى العامري خيران صاحب المرية Almeria في الشرق الذي مد يده لأحد العلويين الطامعين بالخلافة في قرطبة وهو علي بن حمّود.(٢)

١ - خلافة علي بن حمّود: (٣)

بقي علي بن حمّود إدريس العلوي بعيداً عن الصراع الذي كان دائراً بين المهدي والمستعين. ثم نزل في شقندة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٢) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦.

(٣) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٣٢٨-٣٣٦.

قرب قرطبة عند هجوم البربر الأول عليها. وعندما ألمّت بهم الهزيمة الأولى عاد إلى سبتة التي كان حاكمها. ولم يعد إلى الأندلس إلاّ بعد دخول المستعين إليها منتصراً لينال سنّة التثبيت على ولاية سبتة، ولأخيه القاسم على ولاية طنجة.

ولما تم له ذلك قتل قاضي سبتة وأحد كبار الفقهاء فيها وكانا مناصرين للمستعين. ثم أوعز لأخيه القاسم باحتلال الجزيرة الخضراء لتكون القاعدة التي ينطلق منها في حملته ضد المستعين للاستيلاء على الخلافة. عاونه في ذلك بعض العامريين والموالي والصنائع الهاشميين، ولا سيما حليفه خيران العامري صاحب المرية. ولما أتم كل شيء أعلن أنه يقوم بالحملة ضد المستعين الذي قتل ابنه محمداً هشام المؤيد الخليفة الشرعي، وبأن هذا الأخير عهد له بالخلافة من بعده.

زحفت الجيوش المتحالفة إلى قرطبة، ثم هزمت جيش المستعين الذي لم يساعده البربر الذين كانوا في الكور رغم أن سليماناً اتكل عليهم في وصوله إلى الحكم، حتى إنه دعي خليفة البربر. دخل ابن حمّود قرطبة منتصراً في الثاني من تموز السنة ١٠١٦م، وأصبح خليفة، ولقب بالناصر لدين الله، وافتتح عهده بإقامة العدل وإنصاف المظلومين. استمرت خلافته سنة وتسعة أشهر اتبع فيها سياستين مختلفتين.(١)

المرحلة الأولى: قام بإرهاب البربر وعاملهم بقسوة وأنزل بهم أشد العقوبات حتى القتل، وألحق أقل ضرر بالقرطبيين وأموالهم. هذه السياسة قرّبت القرطبيين منه فانتعشوا في مختلف مجالات الحياة.

المرحلة الثانية: انقلبت سياسته رأساً على عقب، فانفصل عنه خيران إثر خلاف معه. وعندما علم بأن القرطبيين يساندون خيران بالدعوة للمرتضى (عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر) زعيم الصقالبة في الشرق للخلافة في قرطبة، انقلب ضد القرطبيين والبربر معاً معهم، فراح ينزل بهم كل ضروب التنكيل. فقد نزع منهم السلاح

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦.

وهدم دورهم وألزمهم بالمغارم وبالغ في إهانة أعيانهم. ثم عزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها، لكن بعض فتيانٍ من صقالبة بني مروان قتلوه في حمام قصره بدافع من سخطٍ أصبح عارماً في قلوبهم وقلوب الناس في قرطبة، في الواحد والعشرين من آذار السنة ١٠١٨م.

٢ - خلافة القاسم: (١)

خلفه أخوه القاسم بعد ستة أيام وسار على سيرة أخيه في أول عهدهِ في مناصرة المظلوم ونشر الأمن. وابتعد عن التنكيل بالخصوم ولم يقتل سوى قاتلي أخيه بعد اعترافهم بذلك وفق حكم الشريعة. فاكتسب رضا القرطبيين الذين أُقصي منهم من كان في خدمة أخيه، وأسقط عنهم بعض الضرائب، وألغى وظيفة الجواسيس الذين استخدمهم أخوه في المرحلة الثانية من حكمه، فاطمأن الناس وانتظروا خيراً. لكن القاسم وقع تحت سيطرة البربر فضعف سلطانه وكرهه أهل قرطبة.

هذا الانحياز إلى البربر تم بسبب الخطر ذاته الذي هدد أخاه من قبل، وهو أن بعض الأمراء الصقالبة وأمراء الثغور في الشرق قد بايعوا المرتضى بالخلافة. وأعدوا له جيشاً كبيراً سيّره تحت لوائه للإجهاز على خصومهم البربر والقضاء على الخليفة في قرطبة، وإعادة الخلافة لأصحابها الشرعيين من المروانيين. لذلك كانت حملتهم في منطقتي البيرة وغرناطة معقل البربر للقضاء على زعيمهم الأكبر زاوي بن زيري.

كاد النصر أن يكون إلى جهة المهاجمين لولا انسحاب بعض أمراء الثغر من المعركة بسبب حسدهم للعامريين بعد أن كاد النصر أن يتحقق لهم. ثم تبعهم المرتضى بالفرار، فحلَّت النكبة بجيش العامريين. أمام هذا الواقع المُرّ ثارت حفيظة خيران كبير العامريين وبعث من يراقب حركات المرتضى في الفرار فقضى عليه وقتله انتقاماً من هذا الخذلان.

(١) المرجع نفسه، ص٣٣٥-٣٣٦.
وابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦.

ورغم هذا الانتصار، آثر زاوي بن زيري الخروج من الأندلس، التي أصبحت مسرحاً للخيانة والغدر، والعودة إلى أفريقيا الشمالية مع أولاده، بعد أن رفض أتباعه الرحيل معه.

وهذا الانتصار أيضاً قوّى من مركز القاسم في قرطبة، رغم أنه لم يكن له فيه شأن. وكي لا يقع مجدداً تحت سيطرة البربر الذين ارتفعت أسهمهم، راح يعتمد أكثر فأكثر على عنصر جديد، هو عنصر السودان الذين رفعهم إلى أعلى المراتب في الدولة. هذه الإجراءات أثارت البربر ضده فقام ابن أخيه يحيى بن علي والي سبتة بالفرار إلى أخيه والي مالقة لكي يكون بمأمن من أذى عمه.[1]

وقد تبيّن لاحقاً أن البربر ذاتهم دفعوا ابن أخيه يحيى للقيام بهذه الحركة للقضاء على عمه انتقاماً منه لأنه قرّب السودان وفضلهم عليهم.[2]

علم القاسم أنه لا يستطيع الصمود أمام جيش البربر وجيش ابن أخيه يحيى ففر إلى أشبيلية حيث أقام هناك. ودخل يحيى قرطبة وبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة في الثالث عشر من آب السنة ١٠٢١م ولُقّب بالمعتلي بالله.

استمرت خلافته حتى ٩ شباط السنة ١٠٢٣م. وقد قام بسياسة تجنّب العصبية واتباع العدل والإنصاف، ولكنه كان ألعوبة في يد البربر الذين لم يستطع أن يدفع لهم ما وعدهم به، فقاموا بخلعه واستقدموا عمه القاسم من أشبيلية.

دخل القاسم قرطبة وجدد له أهلها والبربر البيعة. ولكنها لم تدم سوى سبعة أشهر، إذ خلعه أهل قرطبة بسبب تسلط البربر على شؤون دولته واستئثارهم بالسلطة.

---

(١) د. عبد العزيز سالم، مرجع سابق، جزء ١، ص٩٥-٩٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦.

الفصل السابع عشر
سقوط الخلافة

مقدمة

ضاق أهل قرطبة ذرعاً بالبربر والحموديين فعاد المروانيون واختاروا ثلاثة أمراء لانتخاب أحدهم خليفة. فرض الجند والعامة أحدهم، عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار (المستظهر)، فلم تبايعه الأقاليم، ودامت خلافته سبعة وسبعين يوماً ثار عليه في نهايتها أهالي قرطبة واتهموه باستقبال البربر، فهرب. عُيّن محمد بن القاهر (المستكن) الذي عرف بثخنته وحبه للخمرة فدام حكمه سبعة عشر شهراً.(١)

زحف يحيى بن حمود على قرطبة فهرب المستكن في زي امرأة. وضع يحيى مكانه نائباً عنه بسبب الفوضى في المدينة مما أدى إلى احتلالها من قبل خيران العامري السنة ١٠٢٥م.(٢)

ودبّت الفوضى في العاصمة في شكل مخيف فبرزت أسرة خدمت الأمويين طويلاً وهي «أسرة جهور» على رأسها أبو الحزم جهور الذي طلب من الأقاليم انتخاب خليفة، فانتخب هشام بن محمد العامري باسم «المعتد بالله» الذي لم يدخل العاصمة إلاّ بعد مرور ثلاث سنين أي العام ١٠٣٠م، ولم يكن الشعب متحمساً له. وعين المعتد بالله أحد الأشخاص الوضيعين وزيراً وهو القزّاز الذي كان

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠١.

متعسفاً وقريباً من البربر، فعاداه أهل قرطبة ولم يدفعوا الأموال اللازمة لأعطيات الجند[1].

تأخرت أعصيات الجند فنقموا عليه، وتحالف معهم قسم من العامة تحت لواء أمية بن عبد الرحمن العراقي، أحد أمراء بني مروان، فقتلوا الوزير أولاً، ثم اقتحموا القصر ونهبوه وأجلسوا أمية مكان هشام على العرش.

ولما رأى أبو الحزم جهور أن الفوضى دبت في المدينة ولم يعد في قرطبة من أموي جدير بالخلافة، اتفق مع شيوخ المدينة ووزرائها على خلع الخليفة المعتد بالله وعلى إبطال خلافة الأمويين وتعطيلها.

هرب المعتد بالله إلى الجامع المؤدي إلى المقصور، ثم أُمر بالخروج إلى أحد الحصون ونودي في الأسواق والأرباض بألاّ يبقى أحد من بني أمية في قرطبة وبألاّ يكنفهم أحد من أهل المدينة. وتسلم الحكم فيها أبو الحزم وظهرت آنذاك دولة من دول الطوائف التي عمت الأندلس.[2]

وهكذا زالت الخلافة الأموية من الأندلس وانقطعت الدعوة لها.

أولاً – عوامل سقوط الخلافة:

أ – الانقسام العرقي:

كانت بذور الانقسام موجودة في قلوب أهل الأندلس لأنهم كانوا خليطاً من البربر والعرب والصقالبة والمولدين والمستعربين واليهود.

فهذه التكتلات العنصرية في المجتمع الأندلسي الواحد كانت تميل أكثر فأكثر إلى الإقامة في مناطق عمرانية خاصة بها من دون غيرها:

١ – العرب أقاموا في قرطبة العاصمة.

٢ – المولدون كانت غالبتهم في أشبيلية وطليطلة.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٧.

٣ – البربر في غرناطة وقرمونة ومالقة وفي جنوب الأندلس القريب من بلادهم الأصلية أفريقيا الشمالية.

٤ – الصقالبة في الشمال الشرقي.

كل هذا خلق نوعاً من الاستقلال عن السلطة المركزية كانت تجسّد بثورة يعلنها هذا التجمّع أو ذاك كلما رأى من الحاكم استبداداً بشؤون الدولة أو تعسّفاً في معاملته. من هنا كانت الضرورة لاستعمال القوة كوسيلة لازمت الوحدة السياسية في البلاد، وكان الحاكم يلجأ إليها غالباً.

لكن القوة لا تكفي وحدها لتركيز البلاد في وحدة سياسية لأنها تؤدي إلى الفتنة. وقد أثبتت الحوادث ذلك منذ الفتح العربي للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية. لذلك كان الحاكم الناجح يرى نفسه مضطراً إلى أن يستعمل الحزم مرة واللين مرة أخرى لكي يستطيع أن يقود رعيته إلى الاستقرار الذي يؤدي إلى التطور والازدهار.

وعبد الرحمن الداخل خير مثال على ذلك. كذلك عبد الرحمن الناصر، وقد خذله القادة العرب في موقعة الخندق ضد نصارى الشمال عندما لمسوا منه نوعاً من التعسف، ولا سيما لتقريبه الصقالبة إليه ولتفضيله لهم.

هذا عدا عن أنّ المجتمع الأندلسي يحمل في طياته بذور الفتنة والانشقاق بسبب:

- اختلاف العنصر.
- اختلاف الدين.

هذه كانت من العوامل التي عملت على تفكك الدولة وانهيارها. ولكن هناك عوامل أخرى أشدّ تأثيراً أسهمت في إضعافها وسقوطها وتحويلها إلى دويلات الطوائف. ومن هذه الأسباب نذكر:

ب – الإنقسام الطبقي:

إن الطبقية التي كانت قائمة في عهد دولة القوط بقيت كذلك بعد الفتح العربي، لا بل تجسدت وباتت أكثر عمقاً عندما نعمت الدولة الأموية بالاستقرار، لا سيما في عهد الخلافة. وقد ساهم في وجود هذه الطبقية التطور الاقتصادي الذي نعم به، إلى أقصى الدرجات، الخلفاء والحكام والمقربون من البلاط، فانعكس ذلك في

المباني الفخمة التي أقاموها وفي مستوى المعيشة العالي الذي تنعّموا به.

ونعني بالمقرّبين من البلاط الأرستقراطية بفرعيها:

١ - أرستقراطية النسب: عرب شاميون.

٢ - أرستقراطية الموالي والموظفين الكبار في الدولة الذين يفوق ثراءهم في بعض الأحيان ثراء الأرستقراطية الأولى المتمثلة في أهل الخليفة والأمراء.

وطبقة المقرّبين هذه كانت الطبقة الخاصة بالحكام والقريبة منهم، وقد نعمت بيسر فائق مما أدّى بها إلى العطاء السخي لحواشيها المؤلفة من بعض الفقهاء والكتّاب والشعراء والأطباء وقادة الجند الكبار.

تضخم عدد الناس في قرطبة العاصمة، وهذا التضخم طبيعي نظراً لوجود أركان الدولة والجيش والإدارة فيها. لكن باقي أفراد المجتمع عاشوا في بؤس وحاجة. ولعل هذا التفاوت في المعيشة بين الفئتين جعل العامة الفقيرة ميالة للشغب. فالبعض من الخلفاء تحسسوا هذا الواقع فرفعوا عن كاهل هذه الطبقة العاملة البعض من الضرائب، جزئياً أو كلياً، وذلك لبُعد نظر سياسي ولاتقاء شرّها لئلا تكوّن خطراً كبيراً على السلطة لقربها من مركزها.

ج - المرتزقة: البربر والصقالبة:

كانت تجارة العبيد شائعة منذ القدم وبقيت حتى العصور الوسطى عند أغلب الدول، لا سيما في الشرق الإسلامي. فمنهم من اشترى العبيد للخدمة المنزلية ومنهم للخدمة العامة في الجيش، ومنهم من اشتراهم للمتعة لا سيما في الدول الإسلامية.

أطلق عرب الأندلس على العبيد الذين اشتروهم من شرقي أوروبا اسم الصقالبة نسبة إلى بلاد الصقلب (بلغاريا + المجر + التشيك)، وهؤلاء كانوا يدخلون كمرتزقة بملء حريتهم. وقد عوّل عليهم الخلفاء خصوصاً عبد الرحمن الناصر عندما شعر بأن العصبية العربية قد ازدادت وزاد خطرها، لأن جيشه في نظامه القائم كان بغالبيته من العنصر العربي.

والمعروف أن الأجناد في الكور كانت تخلص لولاتها أكثر من إخلاصها للأمير أو

للخليفة، لذلك عمد الخليفة إلى إضعاف هذه العصبية العربية فأكثر من الصقالبة في جيشه وحكومته وسائر مرافق الدولة. وسار الخلفاء على هذا المنوال حتى كادت العصبية العربية تتلاشى في عهد الخليفة هشام المؤيد على يد المنصور بن أبي عامر، الذي اعتمد في جيشه على عنصرين: الصقالبة والبربر الذين أتى بهم من أفريقيا الشمالية بأعداد كبيرة، وراح يهمل رجال العرب. ومع مرور الزمن ابتعد الأندلسيون عن الجندية، خاصة كلما استقروا وتحضّروا. وهذا الأمر أفسح في المجال للأحقاد في نفوس العرب، والتي بقيت كامنة في الصدور إلى أن ظهرت ظهوراً مدمراً في عهد عبد الرحمن شنجول، فكانت سبباً في اشتعال نار الفتنة بين أهل قرطبة والبربر، مما أدى إلى سقوط الخلافة الأموية وانفراط عقدها.

لقد احتقر العرب الأندلسيون الصقالبة والبربر لشعورهم بتفوقهم عليهم حضارياً مما زاد الطين بلّة. فما كان من هؤلاء المرتزقة إلاّ أن أضمروا الحقد لهم وانتظروا الظروف المؤاتية وانقضوا عليهم وقضوا على خلافتهم.

د - عوامل أخرى:

علاوة على ما ذكر من أسباب سقوط الخلافة ينبغي أن لا ننسى العوامل الآتية:

- فساد الأخلاق وانعدام القيم والاستسلام للملذات التي سادت أوساط الحاكمين في الأندلس.

- التفاوت في الثروة بين كبار الأغنياء، وخاصة الحاكمين ورجال البلاط والقادة، والفقراء الذين كانت أعدادهم كبيرة جداً في المجتمع الأندلسي.

- التضخم السكاني الكبير داخل العاصمة قرطبة مما جعل السيطرة عليها صعبة جداً.

- كثرة الفتن في العاصمة وتغيير الخلفاء بسرعة وقيام خلفاء عدة في نفس الوقت.

- ضغوط الدول الإسبانية عسكرياً من الشمال.

كل هذه الأسباب والظروف خلقت للخلافة الأموية في الأندلس مشكلتين كبيرتين، الأولى أن الدول المسيحية المتربعة على حدودها في الشمال، عندما رأت أن عرى الوحدة قد تفككت في الدولة

الأموية، وفي دويلات الطوائف بعدها، قامت تضرب ضربتها بهدف إخراج العرب والمسلمين نهائياً من الأندلس.

المشكلة الثانية كانت داخلية، إذ إن أهل قرطبة اضطروا لمقاتلة البربر قتال الموت، فلم يتركوا السلاح حتى طردوا القاسم والبربر إلى أشبيلية بعد أن حاصروهم مدة خمسين يوماً. لكن أهل أشبيلية أغلقوا أبواب مدينتهم بوجه القاسم بسبب كرهه للبربر، فاضطر إلى أن يبتعد عن المدينة مقابل الإفراج عن أهله فيها. ثم انصرف طريداً إلى مدينة شريش حيث حاربه ابن أخيه يحيى وقبض عليه وحمله معه مقيداً إلى مالقة.

وهكذا زالت الخلافة الأموية من الأندلس، من دون أن يعني ذلك خروج المسلمين من البلاد التي مر تاريخها خلال هذه الحقبة بمراحل أخرى، أي مراحل ملوك الطوائف والسيطرة المغربية، ثم دولة بني الأحمر في غرناطة.

فعلى أثر سقوط الدولة الأموية بسبب الصراع بين أندلسيين من جهة وصقالبة وبربر من جهة أخرى، قامت دويلات الطوائف التي لا لحمة بينها ولا رابط، بل كانت على عداء، وحاربت الواحدة منها الأخرى، مما سهّل دخول الدول المغربية البربرية إلى الأندلس والسيطرة عليها.

الفصل الثامن عشر

دويلات الطوائف أو ما بعد الخلافة

(٣٩٩-٤٤٨هـ/١٠٠٩-١٠٥٦م)

بعد سقوط الخلافة توزعت الأندلس ما بين اتجاهات عدة منذ الربع الأول من القرن الخامس الهجري، وتشكلت ١٦ دويلة مستقلة في مختلف شؤونها وعلاقاتها الخارجية، مع تنافس دموي في ما بينها، وحتى الاستعانة بالعدو المشترك (الإسبان) في حروبها.

واصطلح على تسمية هذه الكيانات بـ«دويلات الطوائف» إذ استقلت كل طائفة أو قبيلة أو فرقة، صغيرة كانت أو كبيرة[١].

وأبرز الأحزاب التي ظهرت ثلاثة:[٢]

أ - حزب الموالي العامرية أو الصقالبة، الذين سيطروا في شرق الأندلس، لا سيما دانية والمرية ومرسية.

ب - حزب المغاربة من البربر والعرب خاصة بنو زيري، المتحدرون من قبيلة صنهاجة، وبنو حمود من بقايا الأدارسة الشيعة.

سيطر بنو زيري على غرناطة، فيما سيطر بنو حمود على مالقة التي أصبحت نواة «الدولة الحمودية» التي انتقلت بعد ذلك إلى قرطبة بعد القضاء على الخليفة الأموي «المستعين».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٣٦-٣٦٥.

ج - الحزب الثالث والأكثر أهمية مثّله العرب ومنهم:

- بنو جهور في قرطبة،
- بنو هود الجذاميون في سرقسطة،
- بنو عامر،
- بنو عبّاد اللخميون في أشبيلية،
- بنو ذي النون في طليطلة.

وبقيت هذه الدويلات حتى وصول المرابطين إلى الأندلس (٤٤٨ هـ/١٠٥٦م).

المعتضد الذي خاض حروباً توحيدية عديدة (توفي السنة ٤٦١ هـ).

وفي العام التالي لوفاته أي السنة ٤٦٢ هـ، استولى ابنه «المعتمد على الله» على قرطبة مزيلاً دولة بني جهور. كما اتفق المعتمد مع ألفونسو السادس الإسباني دافعاً له خمسين ألف دينار مقابل مساعدته لاحتلال غرناطة التي سقطت بيده، واستولى أيضاً على مرسية.

١- دولة بني عباد (٤١٤ - ٤٨٤ هـ)[١]

قامت في أشبيلية فيما كان الخلفاء يتصارعون في قرطبة، وكانت الأعظم شأناً والأبعد صيتاً. مؤسسها هو القاضي محمد بن عبّاد.

حاولت هذه الدولة إعادة توحيد الأندلس تحت رعاية الخليفة هشام المؤيد. وابن عباد هو الذي أعلن وفاة الخليفة هشام، ثم عاد وأعلن أنه ما زال حياً.

وفي عهد هذه الدولة سطعت أشبيلية متقدمة على باقي الدويلات تحت حكم

٢- جمهورية بني جهور (٤٢٢-٤٦٢ هـ)[٢]

بدأت هذه الجمهورية التي اصطلح على تسميتها هكذا مع أبو الحزم جهور الذي لعب دوراً في إنهاء الخلافة الأموية في قرطبة وجعل الأمر شورى بين «الجماعة»، بعد أن حاز على تقدير غالبية الفئات في قرطبة والتي سلمت له زمام الأمور فيها.

وقام أبو الحزم بإصلاحات إدارية واقتصادية واجتماعية وعسكرية، وشكل قوة جديدة بعد أن حل جيش الخلافة المؤلف بغالبيته من البربر، وأقام علاقات غير عدائية

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٨.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٤٢-٣٤٤.

ومتكافئة مع الأسبان. لكن خلفاء أبو الحزم لم يكونوا بمقدرته مما أدى إلى صراع على السلطة بين ابني ولده محمد (أبو الوليد) اللذين قسّم والدهما السلطة بينهما إذ أعطى عبد الرحمن «الإشراف والجباية»، وعبد الملك «النظر في الجند».

وهكذا زالت هذه الدولة واستولت دولة بني عباد على قرطبة السنة ٤٦٢ هـ.

٣ - دولة بني هود (٤٠٨ - ٥٠٤ هـ)(١)

كانت إحدى أبرز دويلات الطوائف، وقامت في سرقسطة على تخوم الإسبان، مما فرض عليها مواجهة تحدّياتهم. وبنو هود أسرة عربية، نعمت سرقسطة في عهدهم بالرخاء والاستقرار ولم تتورّط في الصراعات الداخلية في الأندلس.

تعاقب على الحكم خمسة من الأمراء، أولهم سليمان بن محمد بن هود الجذامي (من قبيلة جذام اليمنية) الذي اختار لنفسه لقب «المستعين». ودخل في صراع مع دولة بني النون بهدف السيطرة على وادي الحجارة والذي حُسِم لمصلحته.

وكباقي الدول، احتدم الصراع على الحكم بين أولاد سليمان إذ توجه أحدهم «المقتدر» إلى الملك الإسباني طالباً المساعدة ضد أخيه «المظفر»، فسيطر بمساعدة الأسبان.

ومع وصول ألفونسو السادس إلى عرش قشتالة دفع له المقتدر الجزية، كما دفع مثلها لملكي نافار وأراغون. ولم يخفف النقمة عنه سوى تحالفه مع الفارس القشتالي الشهم الذي لمع نجمه يومذاك ولقب بالسيد(٢) إثر خلافه مع ألفونسو السادس. هذا التحالف جعل المقتدر يصبح أحد أقوى ملوك الطوائف، فسطعت سرقسطة في عهده كأعظم مدينة في الأندلس.

«المؤتمن»، الذي آلت إليه السلطة، تحالف أيضاً مع السيّد ضد ملكي أراغون وقشتالة فجرت معارك ربحها السيد ضمن مفهوم وإطار حركة الاسترداد المسيحي لإسبانيا.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص١١٠-١١١.

(٢) السيّد هو رودريك بطل رواية السيّد للشاعر الفرنسي كورناي.

وفي عهد ابنه «المستعين الأصغر»، عادت أجواء الصراع الداخلي متزامنة مع سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ/١٠٨٥م)، مع ما يشكلّه ذلك من خطورة على الدويلات الإسلامية، كون طليطلة تقع في وسط الأندلس، ومع ما يحمله ذلك من دفع بالغ الأهمية للمشروع الصليبي المندرج ضمن حركة الاسترداد.

وتزامن ذلك مع محاصرة سرقسطة من قبل ألفونسو السادس التي لم تنجُ من السقوط إلاّ مع دخول المرابطين إلى الأندلس وانتصار يوسف بن تاشفين على ألفونسو في موقعة الزلافة الشهيرة (رجب ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م).

أما الأمير الأخير عبد الملك (عماد الدولة)، وبسبب تهاونه في المدافعة ضد الإسبان، فقد أعلن سكان سرقسطة استعدادهم لتسليم مدينتهم للمرابطين. وأخرجوا أميرهم منها السنة ٥٠٣ هـ/١١١٠م. وهكذا زالت دولة بني هود من الوجود.

٤ - دولة بني ذي النون (٤٠٠-٤٧٨ هـ)[1]

قامت دولة بني ذي النون في طليطلة واكتسبت أهمية بسبب موقعها المتاخم للممالك الإسبانية، مما جعلها دولة مواجهة. وأسرة ذي النون تعود في أصولها إلى قبيلة هوارة البربرية.

استقلّ مؤسسها موسى بن ذي النون بالثغر الأوسط واتخذ طليطلة عاصمة له. وفي العام ٤٢٧ هـ، تولى أمر المدينة إسماعيل ولقّب بالظافر مما رسخ جذور العائلة فيها، وبقيت حتى سقوطها في يد الإسبان (٤٧٨ هـ/١٠٨٥م).

أما يحيى بن إسماعيل (المأمون)، فقد انهزم أمام بني هود في الحرب لامتلاك وادي الحجارة، فطلب مساعدة ملك قشتالة لقاء دفع الجزية له.

ودخل المأمون في صراع على احتلال قرطبة فتمكن من ذلك السنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م). لكن خلفاء المأمون لم يتمكنوا من الصمود في وجه تيارات

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص٣٤٧-٣٤٨.

الحرب ضد «الإسبان»، مما أدى إلى سقوط طليطلة في يد ملك قشتالة ألفونسو السادس السنة ١٠٨٥م.

٥ - خلاصة عن دويلات الطوائف:

لا نرى موجباً للكلام على كل دويلات الطوائف، لأن أوضاعها السياسية وعلاقاتها مع بعضها أو مع الإسبان لا تختلف كثيراً عن النماذج للدول الأربع التي سبق الحديث عنها. ومن هذه الدويلات نذكر:(١)

١ - دولة بني الأفطس في بطليوس (٤١٣ - ٤٨٧ هـ/١٠٢٢ - ١٠٩٤م).

٢ - دولة بني زيري الصنهاجية في غرناطة ومالقة (٤٠٣ - ٤٨٣ هـ/١٠١٣ - ١٠٩٠م).

٣ - دولة بني حمود الشيعة في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٢٧ - ٤٤٦ هـ/١٠٣٦ - ١٠٥٣م).

٤ - دولة بني برزال الزناتيين في قرمونه (٤٠٤ - ٤٦٢ هـ/١٠١٤ - ١٠٧٠م).

٥ - دولة بني يغرن الزناتيين في رندة (٤٣١ - ٤٥٨ هـ/١٠٣٩ - ١٠٦٦م).

٦ - دولة الصقالبة في بلنسية (٤٠٦ - ٤٩٦ هـ/١٠١٦ - ١١٠٣م).

٧ - دولة بني صمادح النجيبيين في المرية (٤٣٣-٤٨٤ هـ/١٠٤٢-١٠٩١م).

٨ - دولة بني طاهر (الصقالبة) في مرسيه (٤٢٩-٤٧١ هـ/١٠٣٨-١٠٧٩م).

٩ - دولة بني رزين أو هذيل (البربر) في السهلة (٤٠٣ - ٤٩٧ هـ/١٠١٣-١١٠٣م).

١٠ - دولة بني القاسم الفهريين في البونت (٤٢١-٤٩٧ هـ/١٠٣٠- ١١٠٣م).

وغيرها من دويلات صغيرة لم تلعب دوراً مهماً في المتغيرات السياسية خلال هذه الحقبة، لكنها أضافت المزيد من التشرذم والتشتت والصراعات الداخلية في الأندلس. وهكذا، كاد الإسبان ينهون الوجود العربي والإسلامي في الأندلس بسببها، لولا دخول المرابطين وإعادة السيطرة الإسلامية مجدداً إلى البلاد.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٧-١١٣.
ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٢٨-٣٥٣.

الفصل التاسع عشر
حركة استرداد إسبانيا
الصراع بين الشرق والغرب

أولاً: عموميات

منذ الفتح العربي للأندلس بقيت في البلاد مناطق مسيحية صرفة لم يفتحها الغزاة. لذلك ومنذ ذلك الحين، حافظ المجتمع الأندلسي على قدر كبير من الاهتزاز والحركات الانفصالية. وطالما كانت الدولة العربية في الأندلس قوية ومهابة الجانب، كانت هذه الحركات في وضع الإنتظار والتجمّع في شمال البلاد. وما إن زالت الخلافة وقامت دويلات الطوائف حتى بدأت حركة الاسترداد تقوى وتشتدّ، خاصة وأن المجتمع العربي الأندلسي بات غير موحّد وتتنازعه قوى تختلف سياسياً وعرقياً وحضارة. يضاف إلى ذلك، أنه، وضمن إطار الصراع الإسلامي في سبيل السيطرة والتمدّد، عمدت بعض الدويلات الأندلسية إلى التحالف أحياناً مع دول إسبانية، مما أهّل المجتمع الإسباني للانتعاش والاستعداد للمعركة الفاصلة التي ستُخرج العرب نهائياً من البلاد.

ومنذ دخول العرب إلى الأندلس، دخل معهم البربر الإفريقيون واستقرّوا في المناطق الجبلية، لتعوّدهم على حياة الجبال من جهة، ولأن العرب استأثروا بالمناطق الزراعية من جهة ثانية. وهكذا حمل المجتمع الإسلامي في الأندلس، ومنذ الفتح عناصر التفرقة والخلاف. ومنذ العام ٧٤٠م، دخل الأندلس موالي بني أمية الذين اشتد ساعدهم بعد فرار عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس

فقامت دولته على أكتافهم وشكلوا عنصراً ثالثاً في الصراع على الحكم.

العنصر الرابع هم المسالمة، أي جماعة الإسبان الذين دخلوا الإسلام بحثاً عن مصالحهم، وكانوا في غالبيتهم من رقيق الأرض والعبيد. والعنصر الخامس هم المولدون الذي تحدروا من زواج المسلمين بالإسبانيات، والذين احتفظوا بشخصيتهم وشكلوا جماعات كبيرة في المدن. يضاف إليهم العجم والمستعربون الذين دعاهم العرب بأهل الذمة، واليهود الذين كانوا كثيري العدد في إسبانيا وسيطروا على أمورها المالية وعلى ديوان الحكومة.

كل هذه الفئات جعلت المجتمع الإسلامي الأندلسي يحمل في طياته بذور التفرقة.

ثانياً: الصراع منذ الفتح العربي

لم يسيطر العرب كلياً على إسبانيا. لذلك، ومنذ عصر الولاة والتوسّع الإسلامي سُجّلت معارك بينهم وبين حكّام الولايات التي لم يسيطروا عليها. أولها معارك «السمح بن مالك الخولاني»، الذي عيَّنه عمر بن عبد العزيز السنة ٧١٩م والياً، فتابع الجهاد ضد بلاد الغال واحتل ناربون Narbonne وزحف نحو تولوز عاصمة الأكيتيين فحاصرها. لكن الدوق أودو قاتله وهزمه وقتله. غير أن عبد الرحمن الغافقي نجح في إعادة الجيش المنهزم إلى ناربون.

تابع عنبسة بن سحيم الكلبي سياسة الجهاد فاحتلّ البروفانس وليون ودخل إقليم بورغونديا ونهب مدينة أوتون السنة ٧٢٥م، لكنه استشهد عند عودته إذ اعترضته إحدى فرق الفرنجة.

وأبرز الولاة الذين تابعوا الجهاد شمالاً هو عبد الرحمن الغافقي الذي ولاّه هشام بن عبد الملك السنة ٧٣٠م. هاجم عبد الرحمن تولوز وقتل حاكمها ثم اخترق أراغون ونافار ودخل فرنسا في ربيع ٧٣٢م واحتلّ بوردو وهزم دوق الأكيتين واستولى على بورغونديا وليون وبيزانسون. وهنا طلب الدوق أودو معونة شارل مارتيل حاجب قصر الميروفنجيين الذي حشد جيشاً قوياً وهاجم عبد الرحمن عند نهر اللوار. أمر عبد الرحمن جيشه بالتراجع ورابط بين تور

وبواتييه حيث وقعت معركة بواتييه الشهيرة، فأصيب عبد الرحمن بسهم قاتل وانهزم جيشه فبدأ التراجع الإسلامي جنوباً.

سُميت معركة بواتييه «بلاط الشهداء»، ويرى المؤرخون الغربيون أن لها أهمية قصوى إذ خلّصت الغرب من الخطر العربي الإسلامي. ويقول هؤلاء إنه لو انتصر العرب في بواتييه لتُلِيَ القرآن في فرنسا وإنكلترا. أما المؤرخون المسلمون فيرون أن الهزيمة كانت منتظرة بسبب بُعد خطوط مواصلات الجيش العربي خلف جبال البيرينه.

ومهما يكن من أمر، فإن حركة الفتوحات توقفت بعد هذه المعركة، واضطر والي أفريقيا لتعيين عبد الملك بن قطن الفهري والياً على الأندلس لضبط الأمور ولإخضاع أهالي المناطق الجبلية الذي ثاروا وحاولوا الاستقلال وقلب النظام العربي. وقام عبد الملك بمهاجمة «أراغون» و«نافار» وعزّز مواقعه قبل أن يُعزل العام ٧٣٤م ويعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي. وفي عهد عقبة دخل المسلمون إلى فرنسا مرات عدة وبلغوا أبعد ما بلغوه قبلاً، وأقاموا حاميات على نهر الرون، وأصبحت ناربون قلعة ضخمة لهم، وانتشرت فصائلهم في بورغونديا وهددت باريس.

استنجد شارل مارتيل بملك لومبارديا وجنّد المتطوعين وهاجم العرب من الشمال والشرق فاحتل أفينيون Avignon وأمر السكان بإغلاق ممرات البيرينه وحاصر ناربون.

١ - بابين القصير Pépin Le Bref يبدأ حركة «الاسترداد المسيحي» بالسيطرة على جنوب فرنسا:

لم ينظّف العرب جيوب المقاومة في الجبال الشمالية للأندلس رغم سيطرتهم على جنوب فرنسا. لذلك، وعندما انشغل العرب بالفِتَن والثورات التي قام بها البربر وأحياناً العرب أنفسهم، هجر كثير من البربر الجبال الشمالية. فواتت الفرصة القوط لبدء حركة الاسترداد للأراضي التي نزح عنها البربر.

وانتهز المسيحيون فرصة وقوع الحرب بين أبي خطار وثوابة لضمّ قسم من الأراضي الفرنسية على يد الملك ألفونسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧م).

وفيما كان يوسف بن عبد الرحمن منهمكاً بالقضاء على الثورات، تابع ابابين القصير ابن شارل مارتيل حركة الاسترداد، التي استغرقت ثلاث سنين، بجيشه الفرنجي الذي حرّر فرنسا الجنوبية وحاصر ناربون أربع سنين سقطت على أثرها. وبذلك انسحب المسلمون إلى الداخل الأندلسي مما هيّأ الأجواء للبرابرة لتأسيس نواة مملكة عظيمة لهم في شمال الأندلس.

٢ - غارات فرديناند الأول ملك جليقية وقشتالة (Galice et Castille):

استغلّ فرديناند الأول صراع ملوك الطوائف لبدء غاراته على طليطلة، قاصداً امتلاك البلدان والمدن العربية. وراح فرديناند يهاجم الثغور الإسلامية منتزعاً المدن والحصون من أمرائها وفارضاً عليهم الجزية. استولى على قسم كبير من الأراضي البرتغالية وأغار على سرقسطة فأخضعها وألزم أميرها أن يؤدي له الجزية، وأخضع أيضاً المأمون أمير طليطلة وغزا المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية وأجبره على دفع الجزية فأصبح منذ العام ١٠٤٥م أعظم أمراء إسبانيا.

٣ - إنجازات ألفونس السادس:

عند وفاة فرديناند تصارع أبناؤه على الملك فسيطر كبيرهم شانجة Sancho وضم إليه كل ممتلكات والده العام ١٠٧٠م.

وفي العام ١٠٧٢م، قتل شانجة في كمين، فاستولى على الحكم شقيقه ألفونس السادس فعزّز سياسته في الأندلس الإسلامية.

وفي ٢٥ أيار السنة ١٠٨٥م، احتل ألفونس السادس، ملك قشتالة ولاون وجليقية، طليطلة عاصمة القوط القديمة بعد حصار طويل ودخلها بأبهة وجلال، منتزعاً من العرب إحدى قواعد الأندلس الكبرى. وهكذا أصبحت مملكة ألفونس جاثمة بقوة على ضفّتَيَ نهر التاج موجّهة قواها نحو ثغور المسلمين مهددة قرطبة وماردة وبطليوس.(١)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٣٩.

واستولى ألفونس على قورية Goria وأغار على بسائط أشبيلية وأحرق قراها وحقولها حتى بلغ جزيرة طريف وقال: «هذا أقصى بلاد الأندلس قد وطئته». وارتدّ إلى سرقسطة وحاصرها.

وهنا اجتمع ملوك الطوائف خوفاً من سقوط سرقسطة، بعد أن سقطت طليطلة، مستنجدين بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين في شمال أفريقيا. لبّى ابن تاشفين النداء بعد أن تنازل له المعتمد بن عباد أمير أشبيلية عن الجزيرة الخضراء بهدف تأمين اتصاله بقاعدته في شمال أفريقيا.[1]

حشد ابن تاشفين جيشه في سبتة في شهر آب السنة ١٠٨٦م، وعبر إلى الجزيرة الخضراء التي تسلّمها، وعزّز حصونها وحاميتها قبل أن ينتقل إلى أشبيلية، حيث وافته جيوش الطوائف فاكتملت عدّة الجيوش وزحفت نحو سرقسطة التي كان ألفونس ما زال يحاصرها.

٤ - معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ/١٠٨٦م)[2]

أ - التعريف:

هي المعركة التي وقعت بين ألفونس السادس ملك قشتالة ولاون وجليقية الإسبانية وسلطان المرابطين يوسف بن تاشفين السنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م في سهل الزلاقة شمال بطليوس وانتصر فيها المرابطون انتصاراً ساحقاً حدّد تاريخ المسلمين في الأندلس ومدّده مدة أربعة قرون.

ب - الوضع العام قبل المعركة:

لدراسة الوضع العام في الأندلس قبل معركة الزلاقة، والذي أدى إلى وقوع هذه المعركة، نشدّد على حقيقتين:

الأولى:

تأثير الصراعات القبلية بين المسلمين في الأندلس، التي كانت تؤدي دوماً خلال تاريخ هذه المنطقة إلى كوارث عليهم.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص٣٨١-٣٨٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٤٥.
د. بيضون، مرجع سابق، صفحة ٣٧٨.
ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص٣٧٣-٣٨٩.

ساهمت هذه الصراعات في انهيار الخلافة الأموية في الأندلس وقيام دويلات الطوائف المتنازعة مما أضعفها جميعها وأوقعها تحت ضربات الملوك الإسبان لدول قشتالة ولاون وجليقية. وهذا ما دفع الدويلات الإسلامية إلى طلب معونة الدول الإسلامية البربرية التي كانت تسيطر على شمال أفريقيا، أعني بها دولة «المرابطون».

الحقيقة الثانية:

ارتبط تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس ارتباطاً وثيقاً، لا سيما أيام الحكم الأموي، خاصة أن المغرب الإسلامي اعتبر الطريق إلى الأندلس.

فعندما كان العرب يُحكمون سيطرتهم على المغرب، كانت دولتهم في الأندلس تقوى وتشتدّ. وكلما ضعف الحكم العربي في الأندلس، عملت القوى الإسلامية في المغرب على ملء الفراغ بالتمدّد شمالاً.

وتميزت في هذا الإطار دولتان لعبتا دوراً بارزاً في تاريخ الأندلس، هما دولة «المرابطون» ودولة «الموحِّدون».

هاتان الدولتان أنجدتا دويلات الطوائف في الأندلس أثناء تعرضها للضغوطات الإسبانية من الشمال، فتقدمت جيوشهما في الأندلس شمالاً وانضمت إليها جيوش دويلات الطوائف فوقعت معركتان شهيرتان في تاريخ الأندلس الإسلامي وهما:

- معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون والتي سنتكلم عنها في هذا الفصل.

- معركة الإرك، بعد تسع سنين، والتي انتصر فيها الموحدون بقيادة الخليفة المنصور على جيوش قشتالة ولاون وجليقية وأشتوريش والنافار.

هاتان المعركتان كسرتا الدفع الإسباني وحركة الاسترداد المسيحية للأندلس. لكنهما، في المقابل، أوقعتا الأندلس تحت حكم دول المغرب البربرية أي «المرابطون» ثم «الموحدون».

ج - ظروف المعركة:

بعد سقوط الخلافة قامت منذ الربع الأول من القرن الرابع الهجري، دويلات مستقلة في كل شؤونها الداخلية والخارجية،

دعيت «دويلات الطوائف» التي نافس بعضها البعض. واستعان بعضها بالدول المسيحية الإسبانية في حربه ضد الدويلات الأخرى. لذلك اعتبرت هذه المرحلة من أخطر مراحل التاريخ الإسلامي في الأندلس، إذ تهدّد الوجود الإسلامي فيها بصورة جدية.

خلال هذه المرحلة ضغط الملوك والأمراء الإسبان على المسلمين لا سيما:

- ألفونس الأول الذي ألزمهم بالانسحاب إلى الداخل الأندلسي وأسس مملكة قشتالة في الشمال.

- فرديناند الأول ملك جليقية وقشتالة، الذي استغل حروب ملوك الطوائف الداخلية لشن غارات على الثغور الإسلامية، منتزعاً المدن والحصون من أمرائها، وفارضاً الجزية عليهم. لقد أخضع سرقسطة والبرتغال وطليطلة، وغزا أشبيلية وألزم ملكها المعتضد بن عبّاد بدفع الجزية.

- ألفونس السادس ملك قشتالة ولاون وجليقية الذي عزّز سياسة والده فرديناند الأول في الأندلس، واحتل طليطلة السنة ١٠٨٥م (١٧٨ هـ) بعد حصار طويل، وكانت تعتبر من أهم القواعد الإسلامية في الأندلس وتشرف على ثغور المسلمين فيها. كما هدّد قرطبة وأغار على بسائط أشبيلية وأحرق قراها وحقولها حتى بلغ جزيرة طريف.

١ - أسباب انتصارات ألفونس:

أهم أسباب انتصارات ألفونس هي:

- تفرّق كلمة المسلمين.

- قيام الدويلات المتعددة المتعادية مع بعضها البعض.

- حروب الملوك المسلمين مع بعضهم البعض.

- توقف أو تراجع الروح الجهادية التي سمحت للمسلمين فتح الأندلس والتقدم في فرنسا حتى الوصول إلى مشارف باريس.

- دعم ألفونس من قبل باقي الملوك الإسبان والأوروبيين.

- روح الفروسية التي كانت سائدة في أوروبا يومذاك.(١)

---

(١) للمزيد من المعلومات عن روح الفروسية يمكن مراجعة رواية «السيد» للكاتب الفرنسي كورناي.

٢ - **رد فعل ملوك الطوائف:**

- اجتمع ملوك الطوائف خوفاً من سقوط سرقسطة بعد أن سقطت طليطلة.

- استنجد كبيرهم «المعتمد بن عبّاد»، الفارس والشاعر الكبير صاحب أشبيلية وجوارها، بسلطان المرابطين يوسف بن تاشفين الذي كان قد سيطر سيطرة تامة وكاملة على المغرب.(١)

- تنازل له المعتمد بن عبّاد عن الجزيرة الخضراء بهدف تأمين اتصاله بقاعدته في شمال أفريقيا.

- حشد ابن تاشفين جيشه في سبتة السنة ٤٧٩ هـ خلال شهر ربيع الأول / آب ١٠٨٦م، واجتاز إلى الجزيرة الخضراء وعزّز حصونها وحاميتها. ثم انتقل إلى أشبيلية حيث وافته جيوش الطوائف.

وزحف إلى سرقسطة التي كان ألفونس السادس يحاصرها.

وقيل إن ابن تاشفين اجتاز إلى الأندلس في مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس، مع عدد كبير من المشاة.(٢)

د - الجيوش المتقابلة:

١ - **جيش ألفونس:**

- جيوش دول قشتالة ولاون وجليقية وبسكونية وأشتوريش وأرغون ونافار.

- نجدات من ولايات فرنسا الجنوبية.

- انضم إليه شانجة أمير أرغون ونافار وريمند أمير برشلونة.

- قدّر الرواة المسلمون عدد جيوش ألفونس بـ ٢٠٠ ألف راجل و٨٠ ألف فارس، فيما قدره ابن الأثير بـ ٥٠ ألفاً، وابن خلّكان بـ ٤٠ ألفاً من الفرسان مع أتباعهم فيصل العدد إلى ١٠٠ ألف.

- الروايات المسيحية تشير إلى أن الجيوش النصرانية كانت ما بين ١٣٠ و١٥٠ ألف مقاتل.

---

(١) قبل أن يستنجد الملك المعتمد بيوسف بن تاشفين سأل ابنه عن رأيه، فأجابه: «الغمد لا يتسع لسيفين»، فذهبت مثلاً. ومعنى ذلك أن الأندلس لا تتسع لملكين. وقد تحققت نبوءة ابن المعتمد يومذاك.

(٢) وقيل أيضاً إن عدد جيش ابن تاشفين عشرة آلاف فارس.

٢ - جيش المسلمين:

- تقدّره الروايات المسيحية بـ ١٠٠ ألف مقاتل.

- من هذه الروايات من يقول إنه كالجراد المنتشر.

- المؤرخ الألماني جوزيف أشباخ الخبير في الشؤون الإسبانية يقدر جيشي الفريقين بعدد متساوٍ لكل منها، أي بين ١٣٠ و١٥٠ ألفاً.

ملاحظة: كلا الجيشين قوي ومتأهب وحسن التجهيز.

هـ - التحضير للمعركة:

- جاءت الأنباء أن ألفونس زاحف بقواته إلى بطليوس.

- نشط القادة المسلمون في تنظيم صفوفهم ومعسكراتهم في منطقة الزلاقة.

- خطب ابن تاشفين وابن عباد في أصحابهما.

- قام الفقهاء يحضّون الجيوش على الثبات.

- وصلت الجيوش الإسبانية صباح يوم أربعاء إلى سهل الزلاقة وعسكرت مقابل الكتائب الأندلسية.

- يوسف بن تاشفين جعل معسكره وراء أكمة عالية وأخفاه عن عيون العساكر الإسبانية.

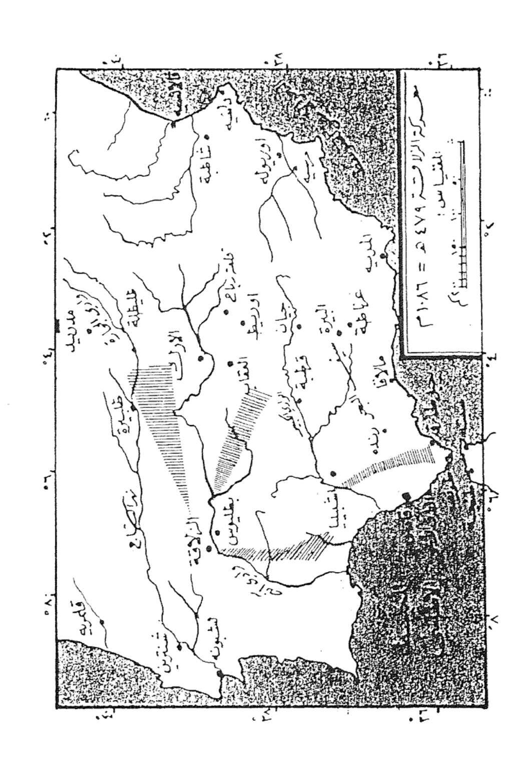
- أرسل يعرض على ألفونس الدخول في الإسلام أو تأدية الجزية أو القتال.

- مما قاله: «بلغنا يا أدفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن يكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا. فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال».

- أما ألفونس، فقد اعتمد الخدعة إذ إنه لم يتحرك يوم الخميس وأعلم ابن تاشفين أن الجمعة هو عيد إسلامي والأحد عيد مسيحي، وأنه يفضّل اللقاء يوم السبت.

لكن المعتمد بن عباد، الذي كان يشكّ في نوايا ألفونس، أرسل من يتجسس على تحركات الإسبان فعلم أنهم مشرفون على القتال يوم الجمعة.

معركة الزلاقة ٤٧٩هـ = ١٠٨٦م.



و - تمركز الجيوش:

١ - جيش المسلمين:

تمركز جيش المسلمين مقابل الجيش الإسباني في التشكيلة الآتية:

- في القلب: الخيالة والرجالة بقيادة المعتمد بن عباد وداود بن عائشة (من المرابطين).
- في الميمنة والميسرة: ملوك الطوائف.
- جيش المرابطين بقيادة ابن تاشفين: احتياط غير مرأي من مكان المعركة لتمركزه وراء أكمة قريبة.

٢ - جيش ألفونس:

- الطليعة: الخيالة بقيادة غرسيه
- القلب: الخيالة المدرعة بقيادة ألفونس نفسه.
- الميمنة: بقيادة شانجة.
- الميسرة: بقيادة ريموند.
- المعسكر: وراء الجيش.

ز - مجرى المعركة:

جرت المعركة على خمس مراحل:

المرحلة الأولى: هجوم طليعة الأسبان:

- كما تنبأ المعتمد، شنّت طليعة الإسبان هجوماً نهار الجمعة فتلقّاها داود بن عائشة بفرسان المرابطين وكسر من حدّة هجومها.
- تفاجأ الإسبان بالرد القوي وعادوا إلى خط الدفاع الثاني. وسبب المفاجأة اعتقادهم أن المسلمين يستريحون نهار الجمعة كما اقترح ألفونس.

المرحلة الثانية: هجوم إسباني عام:

- شنّ الجيش الإسباني هجوماً عاماً على المسلمين بالفرسان المدرعة بالحديد، فتمكن من خرق خطوطهم.
- تراجع المسلمون إلى أسوار بطليوس، فيما ثبت في الميدان فرسان أشبيلية بقيادة المعتمد، وفرسان المرابطين بقيادة داود. ثم اقتحم المعتمد الصفوف وعُقرت تحته أفراس ثلاث. وبعد فقدان الأمل بالدفاع،

ارتدّ قائدا الخيالة نحو أسوار بطليوس، فلاحقهم الفرسان الإسبان.

- ظنّ ألفونس أن النصر أصبح حليفه وإن جيش المرابطين مشارك في القتال وأنه تراجع مع المتراجعين عن ساحته.

المرحلة الثالثة: هجوم معاكس للمرابطين:

تلا ذلك خروج المرابطين من وراء الأكمة، وشنّهم هجوماً في اتجاهين:

- الأول، بقيادة أبي بكر، نحو الجيش الإسباني لتخفيف الضغط عن المعتمد بن عباد والأندلسيين.

- الثاني بقيادة السلطان ابن تاشفين نحو معسكر الإسبان الكائن خلف صفوفهم. شاركت في هذا الهجوم فيالق المرابطين الضخمة على أصوات الطبول والضجيج.

وهذا ما فاجأ ألفونس.

المرحلة الرابعة: المعركة بين الجيشين:

- تمكّن المرابطون من احتلال معسكر الإسبان، فعاد ألفونس وهاجم معسكره بهدف طردهم منه.

- مال ابن تاشفين بجيشه عن مسلك هجوم ألفونس، ثم كرّ عليه مجدداً.

- أصبحت الحرب سجالاً بين الجيشين، وقاتل المسلمون خلالها قتال من يطلب الشهادة، كما قاتل الإسبان أصدق قتال، فسقط آلاف الضحايا.

المرحلة الخامسة: تدخل جيوش الطوائف وانتهاء المعركة:

- جمع المعتمد بن عباد وداود بن عائشة فرسانهما، وهاجمت جموعهما الإسبان من الجنوب، فيما كان جيش ابن تاشفين يخوض المعركة معهم. وهكذا وقع الجيش الإسباني بين فكي الكماشة الإسلامية، فيما دنت ساعة الغروب.

- كلّف ابن تاشفين رجاله السودانيين، البالغ عددهم أربعة آلاف مقاتل، بالترجل عن خيولهم واقتحام خيول الإسبان وعقرها في بطونها، ففعلوا. وأعطت هذه العملية نتائجها.

- حملت الجيوش الإسلامية حملة صادقة على الإسبان الذين انهزموا متخلّين عن معسكرهم. لكن ألفونس رفض ترك ساحة القتال مؤثراً الموت، غير أن فرسانه

المدرَّعين حملوه عنوة إلى أكمة، ومنها إلى الشمال.

ح - نتائج المعركة:

- انتهت المعركة في يوم واحد هو يوم الجمعة في ١٢ رجب السنة ٤٧٩ هـ (٢٣ تشرين الأول السنة ١٠٨٦م)، وخسر الإسبانيون خلالها معظم مقاتليهم، كذلك خسر المسلمون أعداداً كبيرة من جيوشهم.

- كتب ابن تاشفين رسالة إلى الناصر لدين الله بالمهدية يخبره عن نصر الزلاقة، جاء فيها:(١)

«وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم يرتادون الظلام للهروب في المقام. ووالله لقد كان الفرسان والرجّالة يدخلون محلتهم ويعثرون على أخبيتهم وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجزارين، إلى أن جنّ الليل وأرخى سدوله، ولّوا هاربين وأسلموا رحائلهم صاغرين. فكم من دلاص على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة. ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك والأسرة بأوطية الحرير والثياب والأوبار عدد ليلهم ولا يكلون في الانتقال ولا يسأمون من تشريط الأموال».

- أما المعتمد، فقد أرسل حمامة زاجلة بخبر النصر إلى أشبيلية قرأها ابنه الرشيد في المسجد الجامع.

- كانت لمعركة الزلاقة نتائج بالغة الأهمية، منها مباشرة، ومنها بعيدة المدى.

النتائج المباشرة:

- كسر الدفع الإسباني في حركة استرداد إسبانيا، وكسر شوكة الملك المتغطرس ألفونس السادس.
- إعادة الثقة والأمل والحماس إلى نفوس ملوك الطوائف.
- توحيد قطري المغرب والأندلس.
- إدخال المرابطين إلى الأندلس التي سيطروا عليها.

(١) د. سيمون الحايك، اوراكة ملكة قشتالة، ١٩٩٠، ص ١٠٧.

إنما في المقابل:

- حرّكت العالم الأوروبي المسيحي ضد الوجود الإسلامي في الأندلس. تبع ذلك حركة من الرهبان والقساوسة لتأليب أوروبا ضد الأندلس.

- أدّت إلى تحالف بين الملوك الإسبان الذين كانوا مختلفين.

- خلقت أسطورة تشكّلت حول قائدين نسج حول أخبارهما الخيال الشيء الكثير، هما:

* سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين.

* الفارس القشتالي رودريك (السيّد) بطل رواية كورناي الشهيرة.

النتائج على المدى المتوسط والبعيد:

- إدخال الأندلس في عصر السيطرة المغربية (٤٧٩-٦١٢هـ) (١٠٨٦-١٢١٤م).

- إطالة بقاء الوجود العربي والإسلامي في الأندلس لمدة أربعة قرون (٤٧٩ - ٨٩٧ هـ) (١٠٨٦ - ١٤٩٢م).

ثالثاً: رودريق (رودريك) والمرابطون: (RODRIGUE LE CID)

خلال المرحلة الجديدة للصراع بين العالمين الأوروبي والإسلامي، برز قائدان نسجت حول اسميهما الأساطير لما أظهرا من ضروب البسالة والدهاء والقيادة الحكيمة وهما:

- يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين أو الملثّمين.

- رودريق أو رودريك السيّد بطل رواية الأديب والشاعر الفرنسي الكبير كورناي.

فمنذ الانتصار في معركة الزلاّقة بدأ ملوك الطوائف يخافون على ملكهم من زعيم المرابطين الذي عقد النية على البقاء في الجزيرة الخضراء ليشرف على الدويلات العربية في الأندلس ويتابع الجهاد ضد الإسبانيين ويردّ غاراتهم.

وبالفعل، بدأ سلطان مراكش يعتبر الأندلس ولاية في أعمال أفريقيا نظراً لعجز أمرائها وضعفهم وتخاذلهم. لكن موت ابنه أبي بكر أجبره على العودة إلى بلاده.[1]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٨٢.

استأنف القادة العرب الغارات على الإمارات الإسبانية والبرتغالية بمساعدة جيش المرابطين من دون أن يخطر في بالهم أن ألفونس السادس قد يعيد تنظيم قواته بسرعة. لذلك، وفي عام ١٠٨٧م، عاد ألفونس على رأس جيش كبير، مُغيراً على الأندلس ومخرباً فيها ومفتتحاً مدائنها ومهدداً ملوكها ولا سيما المعتمد بن عباد. وقد استغل ألفونس فرصة حرب ملوك الطوائف بعضهم مع البعض للسيطرة والتمدد.

عند هذا الحد، تلقى زعيم المرابطين دعوات من الأندلس يستنجدونه لإنقاذها، فجمع جيشه وعبر بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء في حزيران ١٠٨٨م مباشراً الحرب ضد الإسبانيين قبل أن يحتل غرناطة ويعتقل صاحبها العربي متهماً إياه بالتحالف مع ألفونس. وكان ابن تاشفين يريد هذه المرة السيطرة النهائية على الأندلس وجعلها ولاية تابعة له.

بعد ذلك ارتد زعيم المرابطين لمحاربة المعتمد بن عباد الذي استنجد بألفونس الذي أنجده بأربعين ألف فارس يقودهم الكونت غوميز Gomez. لكن المرابطين هزموا هذا الجيش الإسباني في معركة قرطبة.(١)

وهكذا نرى أن الحرب بين العرب والإسبان لم تكن دائماً بين المسلمين والمسيحيين، إنما حفلت بالتحالفات المختلطة وذلك لأهداف خاصة بالمحافظة على العروش.

دخل المرابطون أشبيلية التي كان يدافع عنها المعتمد في أيلول ١٠٩١م، كما سقطت المرية ودانية ومرسيه وشاطبة. أخيراً وصلوا أمام بلنسية، وهي يومئذ في حكم القادر بن ذي النون، وكان ألفونس السادس قد أقطعه هذه الإمارة بعد أن انتزع منه طليطلة. فلما أغار المرابطون على بلنسية انضمت إليها قوة من النصارى لتدافع عنها، ورغم ذلك سقطت بعد أن فتح أبوابها القاضي أبو أحمد بن جحّاف العامري، فنصبوه والياً عليها.(٢)

واعتبر سقوط بلنسية هزيمة لألفونس وخسارة للفارس الإسباني السيد رودريق

---

(١) ابن الأثير مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤٦٨.

(٢) المرجع نفسه.

Rodrigue. ورغم ذلك تابعت الجيوش الصحراوية تقدمها شمالاً مستولية على الحصون والقواعد واحدة بعد الأخرى. ورودريك (رذريق) كان يمثل فروسية عصره بأبهى حللها في عصر كان يدعى عصر البطولة والفروسية الإسبانية التي تغنى بها شعراؤهم وأخذ عنها الروائي الفرنسي الكبير كورناي. وفي هذه الحقبة كان الكونت رودريك على خلاف مع مليكه ألفونس السادس لأسباب لا مجال لذكرها هنا، لكن روح الفروسية والمغامرة دعته إلى خوض الحرب الصليبية الخاصة به ضد جموع ابن تاشفين.(١)

فعندما دخل المرابطون بلنسية كان رودريك غائباً عنها، لكنه ارتد إليها عندما بلغه الخبر وهو مصمم على استرجاعها، فنشط في تحصين القلاع الجبلية المحيطة بها ودعا الأمراء المسلمين لمساندته فلبّوا النداء بسبب كرههم لسلطان مراكش. وحاصر رودريك بلنسية مدة طويلة ثار الشعب في نهايتها على واليها القاضي جعفر بن جحاف وأجبروه على تسليمها. وهكذا أعاد السيد فتح بلنسية في أيار ١٠٩٤م.

وبقي السيد رودريك يقاوم المرابطين ويمنع تقدمهم في إمارة بلنسية مدة خمس سنين أنهكه في نهايتها المرض فتوفي العام ١٠٩٩م. وظلت زوجته الأميرة شيمانة Chimène تقاوم المرابطين زهاء ٣ سنين قبل أن تستنجد بابن عمها ألفونس السادس الذي لبّى نداءها فرفع المرابطون الحصار عن بلنسية عند علمهم بقدومه. لكن صعوبة الدفاع عنها دفعت ألفونس للجلاء عنها العام ١١٠٢م، فدخلها المرابطون ونهبوها وأحرقوها.

وبموت رودريك السيد تطوى صفحة جليلة في تاريخ الصراع بين حضارتين في الأندلس، الحضارة العربية والحضارة الإسبانية الأوروبية.

ملحوظة:

يقول المستشرق الألماني جوزيف أشباخ: «إن الحروب الإسبانية بين

(١) عن نسب رودريك وإنجازاته، راجع رواية Le Cid للروائي الفرنسي Corneille .

المسلمين والمسيحيين اتخذت في ذلك العهد شكلاً صليبياً منظّماً لأنها تزامنت مع قيام الحروب الصليبية نحو الشرق لتخليص مهد السيد المسيح. كما أن الكرسي الرسولي منع أمراء إسبانيا من التوجّه إلى الشرق للمساهمة في إنقاذ الأراضي المقدّسة أسوة بغيرهم من الأمراء المسيحيين، مخافة أن تنتقص قواهم فيعجزوا عن القيام بقسطهم من الحرب الدينية في الغرب ومن تنفيذ حركة الاسترداد في إسبانيا. هذا في وقت أوغلت جيوش المرابطين في ولايات الأندلس وبات خطرها يحدق بالممالك المسيحية. وهكذا هبّ الأمراء الإسبانيون من كل جانب يدفعون العدو المغير على ثغورهم فاتسعت دوائر القتال وتعددت جبهات المعارك في كل مكان».

رابعاً: استكمال حركة الاسترداد

استمرّت حرب الاسترداد بصورة طبيعية، لا سيما أن أخبار انتصارات الصليبيين في الشرق كانت تصل تباعاً إلى الأندلس. وضمن هذا الإطار حاصر الدون بدرو ابن شانجة مدينة وشقة بعد أن هزم جموع المرابطين فسقطت في يده السنة ١٠٩٦م وجعلها عاصمة لملكه.

أ – يوم سرقسطة:

كان ملك أرغون قد أطمعه سقوط «وشقه» فوجه اهتمامه إلى سرقسطة التي امتنعت عليه خاصة بعد موت السيد رودريك واسترداد بلنسية من قبل المرابطين. وفي العام ١١٠٦م (٥٠٠ هـ) توفي يوسف بن تاشفين فتولى الإمارة بعده ابنه علي[١] الذي حشد جيشاً ضخماً السنة ١١٠٨م، وزحف إلى قشتالة فاعترضته قلعة إقليش Velés التي أرسل إليها الملك ألفونس السادس نجدة كبيرة بقيادة ابنه الوحيد شانجة وعمره ١١ أو ١٥ سنة (وفق ليفي بروفنسال). لكن المرابطين هزموا النجدة وقتلوا شانجة وسبعة كونتات وفتحوا اقليش.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص٩٩.

توفي ألفونس العام ١١٠٩م بعد أن حكم ٣٧ سنة أمضاها في حروب مستمرة ضمن حركة الاسترداد المسيحية الإسبانية. وبعد وفاته نشبت ضمن الجانب الإسباني حروب أهلية لسنين عدة أخّرت حركة الاسترداد، واستغلّها ابن تاشفين لاحتلال مدريد ووادي الحجارة (Guadalajara). ورافق النصر المرابطين في غالبية المواقع، فأصيبت البلاد بقحط شديد. إلاّ أن معارضة ملوك الطوائف المسلمين لابن تاشفين وخوفهم من سيطرته منعاه من إعادة احتلال كل أجزاء الأندلس.(١)

وأبرز الملوك الذين عارضوا المرابطين أمير سرقسطة عبد الملك بن هود، وهو ابن المستعين بن عباد، الذي انتفض عليهم متحالفاً مع ألفونس المحارب صهر ألفونس السادس وخليفته. وهكذا زحفت جيوش ألفونس وعبد الملك مجتمعة العام ١١١٧م، وأكرهت المرابطين على الخروج من سرقسطة.(٢)

وهنا اختلف ألفونس المحارب ملك أرغون وحليفه عبد الملك، فقام الأول بمهاجمة سرقسطة ومحاصرتها حتى ١٨ تشرين الثاني السنة ١١١٨م حين فتحت أبوابها للغازي الإسباني فدخلها بجيشه محفوفاً برايات الأبهة والجلال. وحوّل مسجدها الجامع إلى كاتدرائية، فهاجر منها كثير من المسلمين إلى مرسيه وبلنسية.(٣)

وجعل ملك أرغون سرقسطة عاصمة لمملكته، كما جعل ملك قشتالة قبله طليطلة عاصمة له. وهكذا انهارت القاعدة الثانية من كبريات قواعد الأندلس العربية بعدما بقيت ٤٠٠ سنة حصناً قوياً من حصون المسلمين جاثمة على نهر أبرة.

ب - معركة الأرك
(٥٩١ هـ/١١٩٥م)(٤)

اعتبرت معركة الأرك من المعارك المفصلية في تاريخ الأندلس، ووقعت بين

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص٣٨٦-٣٨٧.
(٢) ابن الأثير مرجع سابق، جزء ٩، ص٢٨٦.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١١، ص٣٨٧.
(٤) ابن خلدون، المرجع نفسه، جزء ١٢، ص٥١١-٥١٣.
ابن كثير، ، مرجع سابق، جزء ١٣، ص١١.
ابن الأثير مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٣٦-٢٣٨.

جيش الموحدين بقيادة أبي يوسف يعقوب المنصور وملك قشتالة ألفونس الثامن. وانتصر فيها زعيم الموحدين، وصنفت في إطار معارك حركة الاسترداد الإسباني للأندلس ضمن الصراع بين العالمين المسيحي الغربي والإسلامي الشرقي.

١ - ظروف المعركة:

بعدما تمّ تحرير بيت المقدس السنة ١١٨٧م وأخذ الأوروبيون يعدّون للحملة الصليبية الثالثة، أتيحت الفرصة لملك البرتغال شانجة الأول لاجتياح غرب الأندلس، فاستولى على عدد من المدن والحصون.

وفي صيف ١١٩٨ رسا في لشبونة أسطول فرنجي يضم مقاتلين في الفلاندرز وإنجلترا وحاصر مدينة شلب التي هاجر سكانها إلى أشبيلية واستغاثوا بالمنصور الذي استنفر الناس للجهاد وعبر بحر الزقاق وفتح حصن طرش. ثم اجتاز الموحدون وادي تاجو وحاصروا شنترين.

وهكذا حاصر المنصور مدينة شلب التي استسلمت حاميتها.

وفي هذا الوقت انتهت الهدنة المعقودة مع ملك قشتالة ألفونس الثامن، ومدتها خمس سنين، فراح يشن الغارات في نواحي أشبيلية. وهذا ما دفع بأمير الموحدين إلى تحويل جهده الحربي إلى الجهاد في الأندلس، فاستنفر الناس مجدداً في المغرب حيث استجابت لندائه قبائل البربر التي جمعها وسار على رأسها من أشبيلية في اتجاه الشمال الشرقي.

اصطدمت طليعته بسرية من فرسان قشتالة خرجت مستطلعة قرب قلعة رباح فهزمت هذه الأخيرة.

٢ - مجرى المعركة:

التقى الجيشان قرب حصن الأرك[١] حيث وقعت المعركة التي شنّ القشتاليون

(١) الارك هو حصن شيّده الفونس الثامن بمديرية قلعة رباح، وهو معروف اليوم باسم «سانتا ماريا دي الارك».

في بدايتها هجوماً مفاجئاً على طلائع الموحدين التي كان يقودها المنصور أبو يحيى، لكنهم لم يحرزوا أي نجاح يذكر. ثم قام المنصور بمهاجمة جناح القشتاليين، مما اضطرهم إلى اللجوء إلى حصن الأرك والفرار مع ملكهم باتجاه طليطلة.

كتب ابن كثير عن المعركة ما يأتي:(١)

«كانت وقعة عظيمة نصر الله فيها الإسلام وخذل فيها عَبَدَة الصلبان، وذلك أن القيش ملك الفرنج ببلاد الأندلس، ومقر ملكه بمدينة طليطلة، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب يستنخيه ويستدعيه ويستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له في مثالبه وفي قتاله، في كلام طويل فيه تأنيب وتهديد ووعيد شديد.

فكتب السلطان يعقوب بن يوسف في رأس كتابه فوق خطه: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.(٢) ثم نهض من فوره في جنوده وعساكره، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس، فالتقوا في المكان المذكور، فكانت الدائرة أولاً على المسلمين، فقتل منهم عشرون ألفاً. ثم كانت أخيراً على الكافرين، فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة، وشر هزيمة وأشنعها، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً. وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً، من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة، ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس؛ ومن البغال مائة ألف بغل، ومن الحمير مثلها، ومن السلاح التام سبعون ألفاً، ومن العدد شيء كثير. وملك عليهم من حصونهم شيئاً كثيراً. وحاصر مدينتهم طليطلة مدة، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعاً إلى بلاده. لما حصل للقيش ما حصل حلق لحيته ورأسه ونكس صليبه وركب حماراً وحلف لا يركب فرساً ولا يتلذذ بطعام ولا ينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية».

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٣، ص ١١.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٧.

وكتب عنها ابن الأثير ما يأتي:[1]

«وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس. وقيل كان سبب عبوره إلى الأندلس أنّ يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم، بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح. فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج، وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثاً شديداً. فانتهى ذلك إلى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء. فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم، وأقبلوا إليه مجدّين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم. فالتقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالاً شديداً فكانت الدائرة أولاً على المسلمين، ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم».

٣ - **التقييم:**

أ - انتصر المسلمون في المعركة وفتح المنصور حصن الأرك وقلعة رباح وغيرهما من الحصون التي كانت تحمي الطريق المؤدّية إلى طليطلة.

لكن المنصور لم يبادر إلى محاصرة المدينة بعد انتصاره، بل عاد إلى أشبيلية حيث اتخذ لقب «المنصور بالله».

ب - أبرزت معركة الأرك مجموعة من الحقائق الثابتة، أهمها:

* الاضطراب الواضح في ميزان القوى العسكرية الناتج عن ضعف المواقف السياسية. ففي حين عمد الإسبان إلى عقد التحالفات في ما بينهم لتنسيق الجهد العسكري، كانت التحالفات العسكرية عند أمراء المسلمين غير ثابتة وغير واضحة، فتركوا أمر الجهاد لمسلمي المغرب.

* خلقت سيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس وسوء معاملتهم لملوك الطوائف وأمرائها جواً من العداء

(١) ابن الأثير. مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٢٣٧.

المستحكم بين مسلمي ضفَّتَيْ مضيق جبل طارق، تحوّل إلى صراعات عسكرية استنفدت قواهم.

* فقدت الأندلس وحدتها، فتراجعت قدراتها القتالية أمام تطور الممالك الشمالية في إسبانيا. وبغية الوقوف في وجه المدّ العسكري الشمالي، استدعي المرابطون فكانت معركة الزلاّقة، ومن ثم الموحدون فوقعت معركة الأرك.

إنما، وبعد المعركتين، كانت الأمور تعود في الأندلس إلى التمزق. وهكذا ضعف الجهاد، وحقق الفرنجة انتصارات أهمها في معركة العقاب، رغم أن المسلمين كانوا قد حشدوا لها قوات كبيرة. لكن هذه القوات كانت متفرقة في الباطن، مما جعل قدرتها الكبيرة تصب خارج موازين القوى العسكرية.

ونحن نرى أن للعمل السياسي تأثير بارز في العمل العسكري، إذ إن «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى، أي بالعنف».[1] وكلما كان الهدف السياسي واضحاً كان بلوغه بالقتال أسهل. فالمنصور لم يستطع تطوير نجاحه العسكري في الأرك للحصول على تنازلات سياسية لمصلحة المسلمين، إذ إن ألفونس تمكّن من تدارك النتائج السلبية للصراع المسلح طوال مدة طويلة من الزمن. لذلك صنّف بعض المؤرخين الأرك بالمعركة الهجومية على المستوى العملاني، إنما الدفاعية على مستوى السياسة الاستراتيجية.

ج - على الصعيد التكتيكي، يمكننا استخلاص العبر الآتية:

* ضرورة الاحتفاظ باحتياط متحرك خلال المعارك، إذ إن المنصور احتفظ باحتياط، فيما خاض ألفونس القتال من دون احتياط جاهز للتدخل وقلب ميزان القوى لمصلحته.

* برزت في معركة الأرك أهمية عنصر المفاجأة، إذ إن المنصور دفع باحتياطه الاستراتيجي في المعركة فباغت خصمه وربحها.

* من جهة أخرى، حقّق المنصور حرية عمله (مبدأ الحرب الثاني)، إذ إنه فرض على ألفونس مخطط العمليات

(١) Clausewitz, De la guerre, Ed. de Minuit. Paris, PP 59 et 67.

المناسب له، ووضعه أمام الموقف الذي يريده.

* تظهر معركة الأرك تأثير العامل المعنوي. فرغم أن ميزان القوى كان يميل إلى جانب الأسبان (مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل)، فقد انتصر المسلمون كونهم يتمتعون بمعنويات عالية.

* تُبرز الأرك أيضاً الدور المهم للقائد المصمّم على النصر. فقد دخلها المنصور وهو على ثقة من حسمها لمصلحته، فيما صمّم ألفونس بعد هزيمته في الأرك على النصر فانتصر في معركة العقاب بعد ١٨ سنة.

وبعد هذه المعركة التي كسرت قوة الدفع الإسباني وحركة الاسترداد وأخّرتهما، وقعت هيبة الموحدين في نفوس الأمراء المسيحيين فأسرعت مملكتا لاون والنافار إلى محالفة الخليفة المنصور ثم تبعهما الملك ألفونس ملك قشتالة. ورضي المنصور بالتحالف لأنه كان مضطراً إلى مغادرة الأندلس لإخماد ثورة في أفريقيا والمغرب قامت بها بقايا المرابطين.

ج - معركة العقاب:
(٦٠٩ هـ/١٢١٢م)(١)

وقعت معركة العقاب بين محمد الناصر بن المنصور الموحّدي وملك قشتالة ألفونس الثامن بعد ثمانية عشر عاماً من معركة الأرك، واعتبرها الإسبانيون ثأراً من خسارتهم للثانية.

١- ظروف المعركة:

عندما نجا من معركة الأرك، حلق ألفونس رأسه ولحيته وآلى على نفسه أن لا ينام على فراش ولا يقترب من النساء ولا يركب فرساً ولا دابة، قبل أن يأخذ بالثأر، وفق ما كتب المقرّي في نفخ الطيب. وتمكن ألفونس من تأليب حوله ملوك ليون وأرغون ونبارة والبرتغال وقسم من أوروبا، بدعم من البابا.

علم محمد الناصر بالأمر، فعبر إلى الأندلس حيث اجتمع إليه أهل المغرب والأندلس فبلغ عدد جيشه ستمائة ألف مقاتل. قاد الناصر هذه الجموع إلى موقع

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١٢، ص٥٢١-٥٢٣.

العقاب، حيث نشبت المعركة الحاسمة التي قررت مصير الأندلس الإسلامية، وحيث أبيد جيش المسلمين.

وكان حاجب الناصر قد نصحه بأن لا يتقدم في بلاد ألفونس قبل فتح قلعة شلبطرة التي حاصرها طوال ثمانية أشهر قبل الاستيلاء عليها. وكانت هذه المدة كافية لألفونس للقيام بتعبئة جيشه وطلب المساعدة من إسبانيا وأوروبا. وقد تكللت جهوده بالنجاح، فلبّت أوروبا دعوة البابا، واقتنع ملوك إسبانيا بالاتحاد.

٢ - التحضير للمعركة:

إثر جمع القوات الفرنجية زحفت جموعهم فاستردّت قلعة رباح، بعدما أمّن ألفونس الحامية على أنفسها. وامتعض قادة الفرنجة من ذلك فقفل قسم منهم عائداً إلى بلاده بعد أن اتهم ملك قشتالة بأنه استأثر لنفسه بنفائس القلعة وأموالها. لكن التحاق شانجة ملك النافار بالجيوش المسيحية عوّضها ما فقدته من جموع الفرنجة. كما أن انفصال هؤلاء عن جيش ألفونس قبل المعركة كان أخف ضرراً من انفصالهم في أثنائها، إذ كانوا سيوقِعون خللاً فجائياً يصعب تلافيه في ترتيب الصفوف وتنظيم أجزائها. وقد استطاع الإسبانيون، بعد تراجع هؤلاء المحاربين، جمع قواتهم واحتلال قلعة رباح بسهولة.

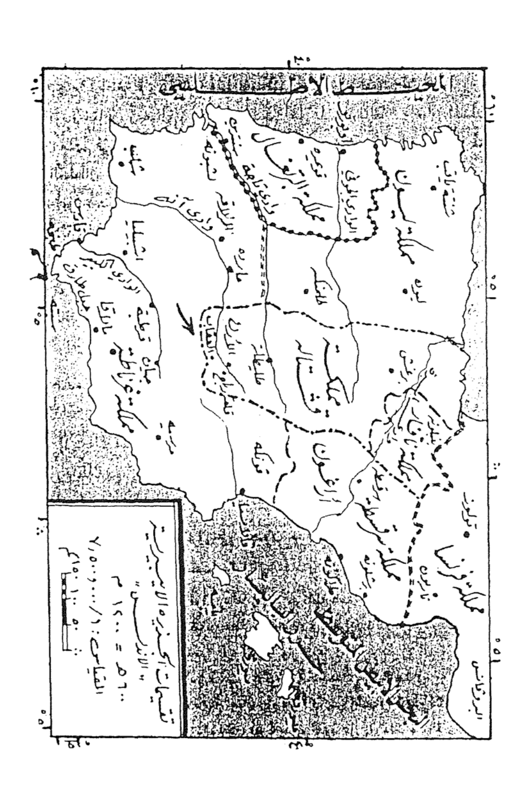
كتب مؤرّخ الأندلس جوزيف أشباخ أن الناصر بقي يتجنب المعركة رغم ضخامة جيشه تهيُّباً من المحاربين الفرنجة الذين كانوا قد عُرفوا بشجاعتهم. فلما بلغه انفصالهم عن الإسبانيين، قرّر خوض القتال.

وكان الإسبانيون قد تمركزوا على بعض قمم جبل الشارات، فعبر الناصر الوادي الكبير إلى موقع العقاب وسدّ بجيشه منافذ جبل الشارات وحاصرهم، فاضطرهم إلى أحد أمرين:

- إما البقاء والتعرّض للجوع والعطش.
- أو الرحيل.

لكن هؤلاء آثروا الانحدار من الجبل إلى السهل المجاور، بعد أن أرشدهم أحد الرعاة إلى طريق خفيّة. فلما خلا جبل الشارات من الجند، ظنّ الموحدون أن أخصامهم قد فرّوا؛ لكنهم عادوا وفوجئوا

تقسيمات الجزيرة الايبيرية



بهم بعدما أبصروا معسكرهم في السهل المقابل حيث احتلوا موقعاً أفضل من موقعهم ويشرف من الرُّبى العالية عليهم. عند ذلك علموا أنهم خدعوا.

٣ - الجهوزية القتالية:

في صباح الإثنين ١٦ تموز ١٢١٢ (١٥ صفر ٦٠٩ هـ) نظّم الإسبانيون جيوشهم على الشكل الآتي:

* القلب: يتألف من أربع فرق:

- فرقة القشتاليين.
- فرسان قلعة رباح والداوية والاستبارية.(١)
- فرسان قشتالة القديمة وأشتوريش وبسكونية.
- فرقة الاحتياط من طليطلة ولاون بقيادة ألفونس.

* الجناح الأيمن من الفرسان والرجّالة الفرنسيين، مع جنود جليقية والبرتغال.

* الجناح الأيسر في أربع فرق تضم الأرغونيين وبعض رجالة قشتالة.

أما المسلمون، فقد اصطفوا في سهل العقاب في خمس فرق هي:

- في المقدمة، فرقة المطوّعة من ستين ألفاً.
- في الميمنة، الجنود الأندلسيون.
- في الميسرة، البرابرة.
- في القلب، جيش الموحدين.
- في المؤخرة، الفرقة الاحتياطية من المغاربة والجيش النظامي.

٤ - مجرى المعركة:

أعطى الناصر إشارة الهجوم، فحملت المطوّعة على قلب العدو واصطدمت بالجليقيين والفرسان الذين تمكنوا من صد الهجوم، فتراجعت المطوعة أمامهم وراحوا يطاردونها بالحراب. وبوصولهم إلى القلب صمدت أمامهم قوات الموحدين

(١) - الاسبتارية: Les Hospitaliers

- الداوية: Les Templiers فرسان الهيكل.

وكلتاهما منظمتان من منظّمات الرهبان المقاتلين.

النظامية التي مزقت جموعهم، فتشتتوا منهزمين.

رجحت كفة المسلمين فأمدّ الإسبان قلب جيشهم بفرقة احتياطية أنعشت الفرسان المنهزمين الذين عادوا إلى مهاجمة قلب الموحدين الذي صمد أمام هجومهم.

في هذا الوقت انهزم الجناح الأيمن في الجيش الإسلامي، حيث تراجع الأندلسيون بسبب نقمتهم على الموحدين الذين تركوهم في خضم القتال. تلا ذلك تراجع ميسرة الجيش الإسلامي أيضاً، فأصبح قلب الجيش البربري معرّضاً للتطويق.

أخيراً، تمكّن الفرسان الأسبان من خرق قلب الجيش البربري بهدف الوصول إلى القائد العام الإسلامي، فانهارت قوى الدفاع من كل جانب، إلى أن قتل ابن الناصر وبدأت مفارز جيشه بالفرار، فلحق الناصر بها وخسر المسلمون المعركة.

لاحق الجيش الإسباني المنهزمين موقعاً بهم خسائر فادحة بالأرواح. بلغت خسائر المسلمين، وفق الرواية العربية، خمسمائة ألف قتيل.(١)

٥ - التقييم:

- كانت معركة العقاب من المعارك المفصلية في تاريخ الأندلس والمغرب على السواء. فقد فرغ المغرب من مقاتليه بعدها، وضعف حكم الموحدين، مما مهّد لإزالة حكمهم وقيام دولة بني مَرين. وكانت العقاب نذيراً بزوال كلمة المسلمين عن الأندلس ومحطة مهمة في حرب استرداد إسبانيا من أيديهم.

- يرى بعض المؤرخين تشابهاً معكوساً بين معركتي الأرك والعقاب، إذ إن الثانية كانت ثأراً للأولى. فانتصار أمير الموحدين على ألفونس الثامن، الذي التمس الهدنة، وإسراع ملكي لاون والنافار إلى التحالف معه، مكّنا سلطانه في الأندلس، وأتاحا الفرصة أمامه لإعادة السيطرة على إسبانيا المسيحية تمهيداً للمعركة الفاصلة مع المسلمين.

(١) هذه الأرقام مبالغ فيها.

- لم تكن للناصر مواهب والده المنصور، رغم شجاعته وإقدامه وصلابة عوده. وكان همه ضبط الولايات الأندلسية وإرهاق ملوكها مستثمراً خلافاتهم.

- أخطأ الناصر في محاصرة قلعة شلبطرة طوال ثمانية أشهر كونه فقد بذلك عنصر المفاجأة وأعطى غريمه الوقت اللازم لاستكمال التعبئة وحشد القوى والتحضّر للمواجهة.

- ساهم البابا، بسلطانه الديني، في إصلاح الأمر بين الأمراء الأسبان ودفعهم إلى التوحد في مجابهة المسلمين.

- من أهم أسباب فشل المسلمين في معركة العقاب نذكر:

* تخاذل الجيش الأندلسي وانكفاؤه من المعركة بسبب حقد أهل الأندلس على الموحدين الذين عاملوهم معاملة سيئة. هذا الانكفاء أدى إلى تصدّع ميمنة الجيش الإسلامي.

* تأثر الميسرة بتراجع الميمنة، وفشل البرابرة وقلة ثباتهم.

* تضعضع صفوف القلب بعد تراجع مجنبتيه.

* استخدام الإسبان الخدعة والمفاجأة بخروجهم من الطوق الذي فرضه عليهم المسلمون وبطريقة خفية. ويمكن توجيه اللوم للقائد المسلم بسبب غفلته عن حركة عدوّه الذي انتقل خفية من جبل الشارات واحتل مواقع أفضل من مواقع المسلمين تمهيداً للقتال.

* تخاذل الناصر عن مهاجمة الجيش الإسباني، الذي تعرّض للتعب إثر انتقاله من الجبل إلى السهل، رغم تفوق جيشه العددي.

* تمكن الإسبان من اختيار المكان الأفضل لخوض القتال.

* تطبيق الإسبان قاعدتي الحدّة والاستمرارية في الجهد، إذ تلاحقت هجماتهم على ميمنة الجيش الإسلامي وميسرته، ما اضطرهما إلى التراجع وكشف القلب.

- أحسن القائد الإسباني استخدام احتياطه، إذ زجّ به في المعركة في الوقت والمكان المناسبين، محوّلاً هزيمة فرسانه إلى نجاح فانتصار.

جرى ذلك فيما احتياط الناصر قابع من دون استخدام لرأب التصدّع في ميمنته وميسرته.

- ساهم حماس مقاتلي الدويلات الإسبانية في ربح المعركة، إذ كانت تحرّكهم حوافز شديدة لاسترداد وطنهم من المسلمين. هذا فيما كانت تسود العالم الأندلسي خلافات عرقية وقبلية وأحقاد على الموحدين الذين أخضعوا شعوبه بالقوة وعاملوها معاملة السيد للمسود.

ويُلام الموحدون، كما المرابطون، بسبب استئثارهم في حكم الأندلس والإساءة إلى أبنائها، ما أدّى إلى شرخ في المجتمع الإسلامي الأندلسي انعكس على الجيش الذي لم يكن موحداً خلال معركة العقاب فخسرها، وكانت مقدمة لزوال الحكم الإسلامي عن إسبانيا.

كتب ابن خلدون عن معركتي الأرك والعقاب ما يأتي:[1]

«لما بلغ الناصر تغلُّب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمَّه ذلك وأقلقه. وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيره في الغزو فأبى عليه فخالفه، وخرج من مراكش سنة تسع ووصل أشبيلية واستقر بها واستعد للغزو. ثم خرج من أشبيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فافتتح قلعة شلبطرة وأثلج في طريقه. ونازل الطاغية قلعة رباح، وبها يوسف ابن قادس وأخذ بمخنقه فصالحه على النزول، ووصل إلى الناصر وسار على التعبئة إلى الموضع المعروف بالعقاب. وقد استعد له الطاغية، وجاءه طاغية برشلونة مدداً بنفسه. فكانت الدَبَرَة على المسلمين. وانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستماية. وانكفأ راجعاً إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها. وكان ابن أذفونش قد باطن ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي للناصر ويجري الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك. ثم رجعوا إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكرياء بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من أشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ١٢، ص ٥٢١ - ٥٢٢.

د - يوم قرطبة

بعد أن سقطت طليطلة (١٠٨٥م) وسرقسطة (١١١٨م)، احتل ملك لاون بطليوس (١٢٣٠م). ثم جاء دور قرطبة أم العواصم وحاضنة الأندلسيين في الغرب وممهدة لسقوط بلنسية (١٢٣٨م)، وأشبيلية (١٢٤٨م)، وغرناطة آخر معقل عربي في إسبانيا، قبل أن يغني الشاعر الأندلسي مرثاته الأخيرة يبكي فيها نعيم الفردوس المفقود.

فبعد معركة العقاب سيطر على قرطبة محمد بن هود الذي ضم إلى ملكه مرسيه وحيّان وماردة Murcie-Mérida وبطليوس داعياً إلى مقاتلة الكفّار ومتلقباً بالمتوكل على الله ورافعاً شعار العباسيين ومعترفاً بخلافتهم. وهكذا استرضى جمهور المسلمين الذين بايعوه في أكثر الولايات الأندلسية. واحتل غرناطة السنة ١٢٣٠م، مما دفع بصاحبها (المأمون) للجوء إلى النصارى لمساعدته متنازلاً لملك قشتالة عن بعض الحصون المتاخمة.(١)

نازعت ابن هود قبيلة عربية «بنو الأحمر» ترجع بنسبها إلى الخزرج، اتفق أميرها محمد بن يوسف النصري مع الإسبان لمقاتلة ابن هود. وهكذا حشد الإسبانيون جيوشهم وهاجم ملك أرغون واسمه جايم Jayem إمارة بلنسية. وهاجم فرديناند ملك قشتالة ولاون قرطبة (فردينان الثالث الذي جمع قشتالة ولاون وجليقية وأشتوريش واستردّ ماردة إلى ملكه).(٢)

ثم حاصر فرديناند قرطبة التي تهاون المتوكل في نجدتها ففتحت أبوابها له ودخلها في ٢٩ حزيران السنة ١٢٣٦م بعد حصار ستة أشهر. وهكذا سقطت أعظم قاعدة أندلسية في أيدي المسيحيين، فمشى الفاتحون إلى المسجد الكبير وحوّلوه كنيسة ورفعوا عليه الصليب.

وبعد قرطبة سقطت بلنسية العام ١٢٣٨م بيد الإسبانيين وأشبيلية العام

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦٦ - ٣٧٠.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٨٥ - ٣٩٧.

١٢٤٨م، مع المدن والقلاع المجاورة لهما. فلم يبقَ للعرب سوى مملكة غرناطة مع ما جاورها من قلاع وحصون رابضة على نهر شنيل Xenil، وأشهر توابعها مالقة Malaga والمرية Almeria على البحر المتوسط ووادي اش Guadix وبسطة Baza والبيرة Elvira.(٣)

هـ - فاجعة غرناطة:

مع إن إمارة غرناطة صغيرة بمساحتها، لكنها صمدت في وجه الهجمات الإسبانية مدة ٢٥٠ سنة.

١ - الأسباب التي أدت إلى إطالة عمر دولة غرناطة:

- محاربة الملوك المسيحيين لبعضهم البعض لاسيما نضال قشتالة - أرغون.
- انتفاع الملوك بأموال المسلمين من الجزية المفروضة عليهم واعتبارهم من الأتباع.
- موقع غرناطة طبيعي يسهل الدفاع عنه، لاسيما أنّ ما جاورها من حصون وقلاع وأبراج كانت مكتظة بالمقاتلين، خصوصاً الذي هاجروا من الإمارات العربية الأخرى.
- مساعدة سلاطين المغرب لها، وفي مقدمتهم بنو مرين.

٢ - سقوط غرناطة:

وهكذا ظلت هذه المملكة في مأمن من الكارثة الكبرى، حتى تم الاتحاد بين قشتالة وأرغون السنة ١٤٦٩م، فتزوج فرديناند الخامس بإيزابيلا[١] الكاثوليكية فاجتمعت الدولتان القويتان على بني الأحمر في حرب استردادية دامت عشر سنين. ورافق الحرب تضعضع داخلي وانقسامات حزبية داخل المملكة الإسلامية مما مهد السبيل للنَّيْل منها.

بدأت الحروب بقيام السلطان أبو الحسن بالاعتداء على الزهراء السنة ١٤٧٨م، وهي تابعة لملكة قشتالة، فحرّضت زوجها على تجريد حملة صليبية لإخراج

(١) فرديناند ملك أرغون وإيزابيلا ملكة قشتالة.

المسلمين من الأندلس. جهزت الحملة العام ١٤٨٢م، فراحت توالي الغزوات على مملكة غرناطة تفتتحها بلداً إثر بلد. خلال هذه الحقبة قامت حروب أهلية بين المسلمين في غرناطة وجرى التقاتل في شوارعها مما سهل الأمر على الإسبانيين.

وفي العام ١٤٨٥م، أغار الإسبانيون على غربي مالقة فدخل أهلها في طاعتهم كما احتلّوا رندة ولوشة العام ١٤٨٦م.

وتابع فرديناند عزل غرناطة لتسهيل فتحها فدخل بسطة العام ١٤٨٩م، ووادي آش والمنكب والمرية، فلم يبقَ أمامه سوى غرناطة وجوارها.

أخيراً سار الملك الإسباني إلى حرج غرناطة فاحتله مهدداً سكانها بتلف زرعهم إذا أصروا على القتال. لكنه لم يجد عندهم سوى الصلابة والعناد، فخرّب الزرع وهدم بعض الحصون، لكنه أحجم عن حصارها لقلة جنده وذخيرته مؤجلاً ذلك إلى وقت آخر.

وفي العام ١٤٩١م، قرر فرديناند وإيزابيلا الانتهاء من غرناطة فجنّدا الجيوش من قشتالة وأرغون ولاون وجليقية وأشتوريش وغيرها، وفيها نخبة الفروسية الإسبانية وتنتشر فوقها الرايات المقدسة، وسارا إلى مرج غرناطة حيث نصبا آلات الحصار. وأمرت إيزابيلا ببناء مدينة مقابل غرناطة سميت سانتا في Santa-Fé، فكان ذلك بلاغاً لأهل غرناطة عن التصميم على الانتهاء من المدينة.

أمام هذا التصميم قرّر السلطان أبو عبدالله التفاوض مع المحاصرين فأبرم اتفاقاً على فتح المدينة صلحاً اعتبره المؤرخون العرب لصالح المسلمين لأن شروطه كانت متساهلة جداً. وهكذا توقفت الأعمال الحربية في كانون الأول السنة ١٤٩١م. وفي ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م، فتحت غرناطة أبوابها فدخلها الفاتح الإسباني فرديناند الخامس ترافقه زوجته إيزابيلا بموكب حافل وسار فوراً إلى قصر الحمراء.

وسار السلطان أبو عبد الله مغادراً القلعة، وبجانبه أمه عائشة وهو كسير الفؤاد، حتى إذا توارى الحمراء عنه نظر وراءه النظرة الأخيرة وهطلت الدموع من عينيه. والتفت إلى أمه فقالت له بمرارة الشامت:

إبكِ مثل النساء مُلْكاً مضاعاً
لم تُحافِظ عليهِ مثلَ الرجَالِ

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم «زفرة المغربي».

وخَلَت غرناطة من ملوك بني الأحمر لكنها بقيت آهلة بالسكان المسلمين في عهد فرديناند الذي ترك لهم الحرية في السفر إلى الأمصار الإفريقية. كما بقيت إسبانيا حافلة بالمسلمين أيضاً بعدما استردها الإسبانيون، لأن فرديناند رأى من الخير استبقاءهم وإعطاءهم الذمة لئلا ينقص عدد السكان فتتأثر التجارة والزراعة.

إنما في العام ١٤٩٩م، وخوفاً من الثورات الإسلامية، اتخذ فرديناند تدابير قاسية تهدف إلى تنصير المسلمين جميعاً وإجبار من يرفض على مغادرة البلاد. وهكذا تنصّر قسم وهاجر قسم من أهالي الأندلس المسلمين إلى المغرب تاركين أملاكهم للدولة.

وفي العام ١٥٦٥م أمر فيليب الثاني ملك إسبانيا بإخراج العرب الذين تنصّروا وهم يُبطنون الإسلام من إسبانيا كلها. لكن الجلاء النهائي لم يتم إلاّ في زمن فيليب الثالث حيث أخرجوا إخراجاً عاماً السنة ١٠١٧ هـ/١٦٠٩م، فخلت منهم ربوع الأندلس بعدما عمّروها بحضارتهم زهاء ثمانية قرون، وعادت إسبانيا للإسبانيين.

خلاصة عامة

يرى المؤرّخون الذين حللوا حركة الفتوحات العربية الكبرى أن العرب خططوا لاحتلال القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وأوروبا من خلال مخطّط حربي جريء ومتطور يقضي بالقيام بحملتين على شكل كماشة. تنطلق الأولى من سوريا باتجاه آسيا الصغرى فالقسطنطينية يقوم بها الأمويون في الشرق، والثانية تنطلق من شمال إفريقيا باتجاه إسبانيا ففرنسا، قبل أن تتحوّل نحو شرق أوروبا وفيينا فالقسطنطينية.

وبالفعل نجح العرب في عبور مضيق جبل طارق واحتلال الأندلس واجتياز جبال البيرينه والتوغل في جنوب فرنسا، وصولاً إلى بورغونديا وليون وبيزانسون مهددين دولة الميروفنجيين في فرنسا. إلاّ أن معركة بواتييه في ربيع ٧٣٢م التي حشد لها شارل مارتيل جيوشاً أوروبية ضخمة أوقفت الزحف العربي والإسلامي مؤذنة ببداية حركة استرداد مسيحية أوروبية دامت حتى السنة ١٥٦٥م.

ويرى مؤرخون أوروبيون أن هذه المرحلة (٧٣٢ - ١٥٦٥م) شهدت مرحلة صراع طويل ومرير بين حضارتين:

١ - الحضارة الأوروبية المسيحية المتمثلة بالمجتمعات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية.

٢ - الحضارة الإسلامية الشرقية المتمثلة بالمجتمعات الأندلسية والمغربية، بمن فيهم ملوك الطوائف.

إلاّ أن هذا الصراع بين الحضارتين لم يمنع قيام مراحل طويلة من الهدنة وحتى من الصراع داخل الجبهة الواحدة.

فتاريخ الأندلس حافل بالتحالفات التي كانت تُعقد بين الملوك الإسبان وملوك الطوائف الأندلسيين. وأحياناً كان المتحالفون يخوضون غمار الحرب ضد أبناء طائفتهم، إلى جانب الجبهة المعارضة. إنما، ورغم هذه الاستثناءات، يمكننا التأكيد أن الصراع كان بين الحضارتين المذكورتين وبين المجتمعين الأوروبي والشرقي.

وقد تزامن هذا الصراع خلال القرنين الثاني والثالث عشر مع صراع مماثل بين نفس الحضارتين ونفس المجتمعين، إنما في مكان آخر أي في الشرق معقل الحضارة الشرقية من خلال الغزو الصليبي أثناء الحملات الصليبية.

إنما، ومع استرداد إسبانيا بكاملها على يد ملِكَيْ قشتالة والأرغون، واحتلال القسطنطينية العام ١٤٥٣م من قِبَل الأتراك العثمانيين، تركّز العالمان، الشرقي الإسلامي والغربي المسيحي، في حدودهما الحالية، مع محاولات عدّة لاسترداد آسيا الصغرى من قبل الأوروبيين واسترداد الأندلس من قبل الشرقيين الإسلاميين.

ملحق رقم ٨
معلومات عن يوسف بن تاشفين

كتب ابن الأثير ما يأتي:[١]

«في هذه السنة[٢] توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس، وكان حسن السيرة خيّراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم. ولما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له: ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة. فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين رسولاً ومعه هدايا كثيرة. وكتب معه كتاباً يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد، فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد ولُقّب أمير المسلمين. وسيّرت إليه الخلع فسرّ بذلك سروراً كثيراً. وهو الذي بنى مدينة مراكش للمرابطين وبقي على ملكه إلى خمسمائة فتوفي وملك بعده البلاد ولده علي بن يوسف، وتلقب أيضاً أمير المسلمين، فازداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم. وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ولانَ قلبه لها وظهر ذلك عليه. وكان يوسف بن تاشفين حليماً كريماً ديّناً خيّراً يحب أهل العلم والدين ويحكمهم في بلاده، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام. فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنّى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٩٩.

(٢) سنة ٥٠٠ هـ.

أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنّى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنّى الآخر زوجته النغزاوية وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده. فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار واستعمل الآخر. وقال للذي تمنّى زوجته: يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه. ثم أرسله إليها فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً. ثم أحضرته وقالت له: أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاماً واحداً، فقالت: كل النساء شيء واحد وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته».

ويوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش وشيّدها.[1]

(١) للمزيد من التفاصيل عن إبن تاشفين راجع الفصل المخصّص لدولة المرابطين في هذا الكتاب.

الفصل العشرون
الحكم العربي في المغرب

نظراً لارتباط تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب خلال المرحلة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، وبسبب تأثّر بلاد الأندلس بما كان يجري في شمال أفريقيا التي تعتبر الطريق إلى المشرق العربي، رأينا وجوب التطرق إلى جانب من تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة.

أولاً: ارتباط المغرب والأندلس

كان المغرب والأندلس مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، نظراً لوجود مركز الخلافة في الشرق، واعتبار المغرب طريق العبور الإلزامي إلى الأندلس. كما أن بعض المؤرخين العرب، عندما كانوا يتحدثون عن المغرب العربي، كانوا يقصدون أيضاً الأندلس، أي كل الممتلكات العربية التي تقع غربي مصر وحول الجزء الغربي من البحر المتوسط.

لذلك كانت الدولة العربية الأموية أو العباسية ملزمة بتأمين الاستقرار في شمال أفريقيا بسبب أهمية الأندلس بالنسبة إليها، حتى إنه يمكننا التساؤل: لو أن العرب لم يحتلوا الأندلس أكانوا بقوا في شمال أفريقيا رغم صعوبة المحافظة عليها.

وفي صورة عامة، عندما كان العرب يُحكِمون سيطرتهم على المغرب كانت دولتهم في الأندلس تقوى وتشتدّ. وعندما كان الوجود العربي يضعف في إحدى ضفتي مضيق جبل طارق، كانت القوى في الجانب الآخر من

المضيق تملأ الفراغ. هذا ما حصل عندما دخل المرابطون والموحدون إلى الأندلس لملء فراغ تركه زوال الخلافة الأموية هناك.

في المقابل، وعندما كان حكم الأندلس قوياً مع عبد الرحمن الناصر، تمدّد جنوباً وسيطر على المعابر حول مضيق جبل طارق، وأمسى حَكَماً في الصراعات بين القبائل المغربية. كذلك كان الوضع مع المنصور بن أبي عامر. أما عندما تشتتت القوى الإسلامية في المغرب، إثر قيام ثورات البربر المدعومة من الخوارج والشيعة، واستقل شمال أفريقيا عن الخلافة العباسية وقامت فيه خلافة شيعية مستقلة هي الخلافة الفاطمية، تراجع النفوذ العربي، ليس فقط في المغرب الأقصى إنما أيضاً في الأندلس. وهكذا، قامت الدويلات الإسبانية في الشمال وبدأت تمددها جنوباً وقيادة حركة الاسترداد المسيحية لإسبانيا.

كّل هذه المعطيات تفرض ضرورة التطرق، ولو بإيجاز إلى تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة. وسنتكلم عن الحكم العربي في المغرب وثورات البربر ودول إسلامية أربع لعبت أدواراً في تاريخ المنطقة هي دول الأدارسة والأغالبة والمرابطين والموحدين.

ثانياً: المغرب في عهد الولاة الأمويين

عندما عبر موسى بن نصير مضيق جبل طارق إلى إسبانيا السنة ٩٣ هـ/٧١٢م، عيّن ابنه عبد الله والياً على أفريقيا. وكانت القيروان بتونس عاصمة شمال أفريقيا. وفي عهده أصبح شمال أفريقيا غير تابع لولاية مصر بل ولاية خاصة مرتبطة مباشرة بالخلافة الأموية، ويعيّن عليها والٍ من قبل الخليفة الأموي في دمشق. وقد حمل موسى بن نصير لقب «أمير القيروان».

وخلال القرن الأول الهجري نعمت المغرب بالهدوء وسارت الأمور سيراً حسناً في عهد عبد الله بن موسى لبضع سنين. إلاّ أنها عادت بعد أعوام قليلة من بداية القرن الثاني للهجرة إلى الاضطراب والثورات والقلاقل. وسبب الثورات كان سوء تصرف الولاة الذين أخذوا يثيرون البربر على الخلافة الأموية عن طريق الاستهانة بهم واعتبارهم أقل شأناً من

العرب. وهذا ما جعل البربر يُقلبون على دعوة الخوارج التي ظهرت في الشرق ضد الأمويين، إذ كان الخوارج يدعون إلى المساواة التي كانت من أهم العوامل التي جذبت البربر إلى الإسلام. ولما بدأ الولاة في عصر الأمويين يتخلّون عن تطبيق هذا المبدأ في معاملتهم للبربر، تحرّك هؤلاء ضد الولاة ومالوا إلى مبدأ الخوارج الأباضية والصفرية على وجه الخصوص، أملاً في التخلص من حكم الولاة الأمويين الذين أساءوا تطبيق مبدأ المساواة. كما نجحت بعض القبائل البربرية في نشر الردّة والعودة عن الإسلام إلى الوثنية التي كانوا عليها.

الثورات

١ - ثورة البربر السنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م:

ثار البربر على الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ/٧٢٤-٧٤٣م)، لأول مرة في السنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م، وتزعّمهم خارجي من الصفرية اسمه «ميسرة المطغري» أو الحقير، وكان بائع ماء، وهو من البربر البتر. وكان قد استطاع أن يجمع البربر حوله وسمى نفسه «أمير المغرب». وأحدث ظهوره حماساً شديداً بين البربر بحيث أعاد إليهم حماسهم الذي كانوا عليه في عهدي «كسيلة» و«الكاهنة». وسبب الثورة كان سوء تصرف عمال هشام.[١]

اغتنم ميسرة فرصة خروج حملة بحرية للإغارة على جزيرة صقلية وهاجم بجموع البربر طنجة ففتك بواليها ووالي السوس. لكنه ما لبث أن أساء السيرة فنقم عليه البربر وقتلوه وولوا خالداً بن حميد الزناتي الذي تابع الحرب على العرب، فتغلب عليهم في موقعة «وادي شلق» (قرب طنجة) العام ٧٤١م، التي قتل فيها كثير من الأشراف العرب.[٢]

تلت هذا النصر انتصارات عدة للبربر، فأرسل هشام جيشين من مصر وطرابلس والأردن، لكن البربر هزموا الجيشين أيضاً،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤١٦-٤١٩.

(٢) المرجع نفسه.

فعادت المغرب للخروج من أيدي العرب. ولم يصمد فيها سوى القيروان التي حاصرها جيش البربر بـ ٣٠٠ ألف مقاتل بقيادة طريف البربري.

وهنا أدرك هشام أن زمام الدولة الأموية المغربي سيفلت من يده نهائياً في حال سقوط القيروان. ووجد أن البلاد تغمرها ثورة عارمة، ويحتاج لإخمادها إلى عناية كبرى، وخطة عسكرية سريعة. ولذلك بادر إلى إرسال جيش جرّار بقيادة عامله على مصر «حنظلة بن صفوان الكلبي» السنة ١٢٤ هـ/٧٤١م، واختاره لنجاحه في القضاء على ثورة مصر الكبرى السنة ١١٩ هـ/٧٣٧م. نفّذ حنظلة خطة بارعة في قتال البربر، فانفرد بكل جيش على حدة، فهزم عبد الواحد الهوّاري وقتله في قرن جبل بأفريقيا. ثم هزم عكاشة وأخذه أسيراً وقتله. ومورس القتل في صفوف البربر حتى تعذر إحصاء عدد القتلى فوضعت قصبة عند كل قتيل، ثم جمعت القصبات وعدّت، فكان عددها مائة وثمانين ألفاً[1].

وأحدث انتصار حنظلة موجة فرح كبرى في الدولة الأموية، وقورن هذا النصر بنصر المسلمين في موقعة بدر الكبرى. وهكذا تم إخضاع المغرب من قبل الخليفة الأموي الذي قضى على الخوارج الصفرية هناك.

٢ - ثورة عبد الرحمن بن حبيب (١٢٢ هـ/٧٤٢م)[2]:

استطاع حنظلة الكلبي أن يدير دفة الحكم في بلاد المغرب بعد انتصاره على البربر بنجاح عظيم لم يسبق له مثيل. واعترف له البربر والخوارج بصدق وعدالة إدراته، فنعمت البلاد في عهده بالطمأنينة والسلام، وازدهرت تجارتها. لكن، وعندما تسلّم الوليد بن يزيد الخلافة خرج عليه رجل من القيسية، كان أبوه قد قتل مع كلثوم بن عياض في السنة ١٢٢ هـ/٧٤٢م، واسمه «عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع»، وكان منفياً من وظيفته ومقيماً في تونس. وقد دفعه طموحه

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٩٩-٥٠٣.

إلى إغراق البلاد بالفتن والفوضى، إذ أعلن الثورة في العام ١٢٧ هـ/٧٤٥م في تونس. وأسر عدداً من الأشراف الذين أرسلهم حنظلة لإقناعه بالعدول عن عمله المنكر، وسار بهم إلى القيروان مهدداً بذبحهم إذا هوجم. فما كان من حنظلة، الذي لا يرى القتال إلاّ للكافر أو للخارجي، إلاّ أن تنازل له عن طيب خاطر وغادر القيروان متوجهاً إلى الشام، معتزلاً الحياة العامة. ودخل عبد الرحمن القيروان ونصّب نفسه أميراً على أفريقيا. لكن حكمه الذي قام على الخيانة والغدر ظل عرضة للثورات والفتن المستمرة إذ لقي معارضة من القبائل اليمانية والبربر. ومع ذلك استمر في الحكم متغلباً عليها إلى أن قتل في معركة جرت بينه وبين أخيه السنة ١٣٧ هـ/٧٥٥م، فعاد المغرب إلى ظل الخلافة الأموية.

ثالثاً: المغرب في عصر الخلافة العباسية

لم يهدأ الصراع بين العرب والبربر في أفريقيا طيلة الأيام الباقية من حكم الدولة الأموية. ولما قامت الدولة العباسية، استمر البربر في ثوراتهم. ولم يكن خروج البربر على الأمويين والعباسيين يمثّل خروجاً على الدين، وإنما كان خروجاً على السلطة الحاكمة وذلك:

- بسبب ظلم الولاة.
- وفرض الضرائب الجائرة على البربر.
- ونزعة منهم إلى الحكم الاستقلالي الذي كان أساس حياتهم منذ زمن بعيد.

وفي العهد العباسي انضم كثير من العرب الناقمين على العباسيين إلى البربر، فخرج محمد بن الأشعث والي أفريقيا على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في السنة ١٣٣ هـ/٧٥١م، وتغلب على القيروان. وعاد الولاة فانشغلوا في الفتنة مع البربر، مما أتاح الفرصة للبيزنطيين في صقلية لأن يستعيدوا ما انتزعه العرب منهم. كما أخذوا يهاجمون مراكب المسلمين في البحر.

أ - ولاية الأغلب بن سالم:

عندما علم المنصور بخروج ابن الأشعث عليه، أعطى العهد بولاية أفريقيا

إلى «الأغلب بن سالم بن عقال اليمني» وهو أبو إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة في ما بعد.

كان الأغلب قد قَدِم أفريقيا مع ابن الأشعث عند قيام الدولة العباسية، فلما أتاه العهد توجه إلى القيروان ودخلها السنة ١٤٨ هـ/٧٦٦م، وأخرج منها جماعة من قواد القبائل المعزية، وعمل على تهدئة الناس. ولكن الأمر لم يكد يستقر له حتى خرج البربر عليه في جمع يقوده شخص يدعى «هلالين أبو قرة»، فسار إليه الأغلب وهزمه من دون قتال. وتابع سيره نحو طنجة، ولكن جيشه انفض عنه وآثر العودة إلى القيروان. وهكذا لم يبقَ معه إلاّ نفر يسير، فاغتنم أحد قادة تونس «الحسن بن حرب الكندي» هذه الفرصة واستمال الجنود إليه ودخل بهم إلى القيروان من دون ممانعة.

وعندما بلغ الأغلب الخبر أراد العودة إلى قتال الحسن بن حرب، فنصحه أصحابه بأن يتجه إلى قابس ليتقوى بمن فيها من الجنود الذين تخلفوا عن المسير معه إلى طنجة. وعمل الأغلب بمشورتهم فانضم إليه جيش كبير استطاع أن يهزم به الحسن بن حرب، الذي هرب إلى تونس السنة ١٥٠ هـ/٧٦٧م، ودخل الأغلب القيروان. لكن الحسن عاد وحشد جيشاً قصد به الأغلب الذي خرج لمقاتلته، فأصيب بسهم أودى بحياته، وتولى القيادة مكانه «المخارق بن غفار» الذي تمكن من طرد الحسن إلى تونس حيث عاد وقتله بعد بضعة أشهر. ودفن الأغلب عند أبواب القيروان وسمي الشهيد، ويعرف قبره حتى الآن باسم «قبر الشهيد».

ب - ولاية عمر بن حفص:

أدّى اضطراب الأمور في أفريقيا إلى توجيه الخليفة المنصور اهتمامه إلى تلك الولاية خوفاً عليها من الانسلاخ عن الدولة العباسية. لذا أرسل إليها «أبا جعفر عمر بن حفص»، من آل المهلب، والياً، فدخل القيروان في خمسمائة فارس السنة ١٥١ هـ/٧٦٨م، فاجتمع إليه الأشراف واستقر له الأمر مدة ثلاث سنين، أمره المنصور بعدها ببناء مدينة طبنة. واقتضى الأمر أن ينتقل

ابن حفص إلى هناك بمعظم جنده، فخلت أفريقيا من الجند، فاغتنم البربر الفرصة وثاروا مجدداً على نائبه «حبيب بن حبيب المهلبي» وقتلوه في القيروان. كما ثاروا في طرابلس وولوا عليهم أبا حاتم الأباضي «يعقوب بن حبيب موراكندة» الذي نجح في هزيمة «الجنيد بن بشار الأسادي» نائب ابن حفص على طرابلس، ثم حاصره في قابس.

وعمت الثورة شمال أفريقيا، واجتمع البربر والخوارج الأباضيون في اثني عشر عسكراً وقصدوا ابن حفص فأحاطوا بطبنة. وكان على رأس العساكر، «أبو كرة السفرى» في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم في عشرة آلاف فارس، وغيرهما. وأمام هذا العدد الهائل لم يكن لدى ابن حفص سوى الاتجاء إلى السياسة. ونجح في استمالة أخ لأبي كرة إليه بمبلغ من المال والثياب فانصرف بعسكره إلى بلاده واضطر أبو كرة للحاق به، وبذلك انسحبت الصفرية. ثم سيّر ابن حفص جيشاً إلى تهوذة لقتال ابن رستم، فهزم هذا الأخير في تاهرت. وأصبح الأباضية بمفردهم فضعف أمرهم، فانسحبوا بدورهم عن طبنة وقصدوا القيروان وضايقوها بالحصار مما دفع بابن حفص للخروج من طبنة والدفاع عن القيروان، وكان أهلها قد لجأوا إلى أكل الدواب والكلاب بعد حصار ثمانية أشهر.

وعندما علم الخوارج بقدوم ابن حفص اتجهوا نحوه بجموعهم وتركوا القيروان، فتراجع نحو تونس. وعندما لحقوا به أسرع منكفئاً في طريق أخرى إلى القيروان فدخلها، وعاد أبو حاتم الأباضي بالبربر وحاصر المدينة من جديد. خرج ابن حفص لقتالهم بعسكر قليل ولم ينتظر وصول الجيش الذي أرسله المنصور، وعدده ستون ألف مقاتل بقيادة يزيد بن حاتم بن قتيبة بن المهلب، لمساعدته، فقتل في منتصف ذي الحجة السنة ١٥٤ هـ/٧٧١م.

ودخل الأباضيون القيروان بعد أن أحرقوا أبوابها وخربوا سورها. في هذه الأثناء وصل جيش يزيد بن حاتم إلى طرابلس، فخرج أبو حاتم الأباضي لقتاله. ويذكر ابن الأثير أنه قيل: «كان بين الخوارج والجنود من الذين قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة».

ج – ولاية يزيد بن حاتم وقتال الخوارج

لما بلغ المنصور ما حل بعمر بن حفص من الخوارج، جهز يزيد بن حاتم بن قبيضية بن أبي صفرة في ستين ألف فارس إلى أفريقيا السنة ١٥٤ هـ/٧٧١م. فدخل طرابلس، بينما لجأ أبو حاتم الخارجي إلى جبال نفوسة، وهناك أخذ يتعرّض لجنود يزيد وهم في طرقهم إلى قابس، إلى أن التقى به يزيد وقتله بعد معركة دامية في السنة ١٥٥ هـ/٧٧٢م، قتل فيها نحو ثلاثين ألفاً من الخوارج. وذكر ابن الأثير أن آل الملهب جعلوا يقتلون الخوارج ويقولون: يا لثارات عمر بن حفص.

وأقام يزيد شهراً يقتل الخوارج حتى رحل إلى القيروان، ففرّ منها عبد الرحمن حبيب الفهري، المتعاون مع أبي حاتم إلى قبيلة كتامة، فأرسل يزيد وراءه جيشاً قام بمحاصرة البربر وظفر بالعديد منهم. أخيراً اضطر عبد الرحمن إلى الهرب بعد أن قتل جميع من كان معه. وبذلك صفت إفريقية ليزيد، فأحسن السيرة ونشر الاطمئنان والسلام طيلة عشر سنين.

ثمّ انتفضت ورفجومة السنة ١٦٤ هـ/٧٨١م بأرض الزاب وعليها أيوب الهواري. سيّر إليه يزيد جيشاً بقيادة «يزيد بن مجزاء الملهبي»، ولكنه مُنِي بالهزيمة، فتولى القيادة مكانه المهلب بن يزيد المهلبي الذي استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بالبربر ويقتل زعيمهم الورفجومة أيوب.

واستمر يزيد في ولايته حتى توفي السنة ١٧٠ هـ/٧٨٧م، بعد أن وُلّي أفريقيا خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر. خلفه ابنه داوود الذي استمر في ولايته تسعة أشهر، خرج عليه فيها الأباضية في جبال باجة. ثم عين هارون الرشيد عمه «روح بن حاتم» أميراً على أفريقيا السنة ١٧١ هـ/٧٨٨م.

رابعاً: عوامل انحسار الوجود العربي عن بلاد المغرب العربي

تناوب على ولاية إفريقية وُلاة عدة في عهد الخلافة العباسية. وكان القاسِم المشترك بينهم كثرة الثورات والفِتَن والاضطرابات من قبل: البربر والخوارج من الصفرية والأباضية. وتكاد المصادر

التاريخية تُجمع على أن أشهر الولاة العباسيين في إفريقيا كان يزيداً بن حاتم، ثم هرثمة بن أعين الذي وجّه عنايته لنشر السلام والاطمئنان في نفوس الناس، وبنى القصر الكبير المعروف بالمنستير السنة ١٨٠ هـ/٧٩٧م، كما وبنى سور طرابلس. كذلك قام بتعيين إبراهيم بن الأغلب على ولاية الزاب فأحسن السيرة فيها.

وعندما ثار البربر على هرثمة بزعامة عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، سيّر إليهما جيشاً وقضى على جموعهما. ولما كان هرثمة يرى أن البربر لن يستكينوا، وأن من الصعب الاستمرار في الولاية من دون مواجهة المتاعب معهم ومع كل طامع في الحكم والولاية، فقد واصل كتبه إلى الخليفة الرشيد بطلب إعفائه من ولاية القيروان حتى استجاب له وأعاده إلى العراق بعد أن مكث في أفريقيا سنتين ونصف السنة. واستعمل مكانه محمد بن مقاتل في السنة ١٨١ هـ/٧٩٨م. ولكن هذا الأخير أساء السيرة وخالفه العديد من الجند والبربر ولم ينجح في ولايته إلاّ بعد مؤازرة إبراهيم بن الأغلب.

وهكذا استمرت قبائل البربر تناوئ الخلافة العباسية حتى العام ١٨١ هـ/٧٩٨م، حين أدرك العباسيون أن الأمر لن يستقرّ لهم في بلاد المغرب وأن السيطرة على البربر في شكل دائم أمر لا يمكن تحقيقه. لذلك وجدوا أن من الأفضل لهم أن يتراجعوا عن بسط نفوذهم على المغرب الأقصى، مكتفين بإقليم تونس، في محاولة لإقامة دولة حاجزة بين المغرب الأقصى ومصر، تكون مهمتها تأمين الحدود الغربية لمصر من البربر والخوارج والخارجين على الدولة العباسية. وتمثلت الدولة الحاجزة التي أقامها العباسيون في تونس بأسرة الأغالبة، والتي ما لبثت أن استقلّت بأمرها استقلالاً يكاد أن يكون تاماً عن الخلافة العباسية، بحيث لم يعترفوا لها إلاّ بالسيادة الاسمية فقط.

وانجلى هذا الصراع الطويل بين السلطة المركزية في بغداد وبين البلاد التي نزعت إلى الحكم المستقل تحت شعار الخوارج إلى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالات عربية استقلت استقلالاً تاماً. ومن هذه الولايات:

٣

- **ولاية تاهرت**: التي أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الأباضية (١٣٧ - ٢٩٧ هـ/٧٥٥ - ٩١٠م)، وهي الولاية التي عرفت باسم الدولة الرستمية.

- **ولاية سجلماسة**: التي أسسها بنو مدرار (١٦٧ - ٢٥٧ هـ/٧٨٤ - ٨٧١م).

- **ولاية تلمسان**: التي أسسها أبو فروة الصنهاجي.

- **ولاية برغواته**: الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي.

ويلخّص بروكلمان عهد الحكم العباسي في أفريقيا بقوله: «ومما تحسن ملاحظته أن الجهود التي بذلها الأعاجم، المنضوون تحت لواء الدين الجديد في جميع البلدان الإسلامية، لانتزاع المساواة السياسية والاجتماعية التي أنكرها عليهم العرب بادئ الأمر، إنما كانت على أشدّها في شمال أفريقيا على الخصوص. ذلك لأن روح البربر الديمقراطية كانت تأبى، على الدوام، الخضوع للعرب والاستسلام لمشيئتهم.

فمنذ أيام الفتح الأولى والأرض الإفريقية مرتع خصب للثورات التي يعزوها المؤرخون المسلمون إلى الخوارج. وليس من شك في أن ما لقيه هؤلاء الخوارج من آذان صاغية ينهض دليلاً على ثورة الروح القومية عند البربر في وجه سياسة العرب. ومن هنا كان في ميسور أيّما داعية، يتوجه في دعوته إلى مشاعر البربر القومية ويحملهم على مناهضة السلطة القائمة، أن يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة».

وفي الواقع، امتازت بلاد المغرب، في التاريخ الإسلامي في شكل عام وفي العصر العباسي في شكل خاص، بكثرة القلائل. ذلك أن الحياة القبلية لا تعرف الاستقرار السياسي والتبعية الشاملة لوالٍ أو أمير، وهذا يبرز في شكل واضح عند البربر. ومن هنا استنفد العرب جهودهم وقدراتهم العسكرية أيام الفتح حتى ثبّتوا أقدامهم في شمال أفريقيا.

ورغم ذلك، فقد ظلت بلاد المغرب تستجيب لعوامل الإثارة والسخط، وبخاصة في عهد الخلافة العباسية، حيث أصبحت العاصمة بغداد بعيدة عن جناح الدولة الغربي، مما ساعد على ظهور حركة الخوارج والانفصال عن الدولة العربية.

وكان لقيام الخلافة الأموية في الأندلس وفقدان تلك البلاد الخضراء من أيدي العباسيين الأثر الهام الذي انعكس بدوره على شمال أفريقيا. فقد كان شمال أفريقيا الطريق الطبيعية التي تصل بين مركز الخلافة في الشرق وبين الأندلس الخضراء في الغرب. فلما انسلخت الأندلس عن الدولة العباسية، أصبح الاحتفاظ بالطريق إليها لا طائل تحته، خصوصاً إذا كان يفيد قليلاً في بسط النفوذ السياسي، وفي الوقت نفسه يرهق الخزينة بأعباء مالية كثيرة للمحافظة عليه. لقد ذكر ابن الأثير إنه: «كان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى أفريقيا معونة».

وكما كانت بلاد المغرب أرضاً خصبة لظهور الفرق الخارجية كالصفرية والأباضية، فقد أصبحت في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري مرتعاً خصباً للدعوة العلوية الشيعية المناوئة للخلافة العباسية، حيث قامت أول دولة شيعية في التاريخ هي دولة الأدارسة (وفق فيليب حتي)..

فالثورات والقلاقل، إضافة إلى بُعد المغرب عن مركز الخلافة وضعف السلطة العباسية، كلها عوامل ساهمت في انحسار النفوذ العباسي عن شمال أفريقيا التي قامت فيها دول إسلامية نذكر منها الأغالبة والأدارسة والمرابطون والموحدون والفاطميون.

خامساً: العوامل التي أخّرت فتح المغرب

في مقارنة سريعة بين ظروف فتح العرب للمغرب والأندلس، تمكن ملاحظة الحقائق الآتية:

أ – لم تتمكن الجيوش العربية من إكمال فتح المغرب نهائياً إلاّ بعد مضي سبعين سنة على بداية هذا الفتح، فيما تمكنت هذه القوات من السيطرة على إسبانيا خلال شهور معدودة.

ب – في المقابل، تمكّن المسلمون من تحويل فتح المغرب إقامة دائمة فيه، فيما تراجعوا عن الأندلس بعد ثمانية قرون من استيطانها.

ت – تحوّل المغرب إلى الإسلام وقامت فيه دول إسلامية عربية. أما الأندلس

فخرجت نهائياً من تحت السيطرة الإسلامية.

لقد سبق وأوردنا في هذا الكتاب دراسات مستفيضة تظهر العوامل والأسباب التي ساهمت في سرعة فتح الأندلس وفي الخروج النهائي منه. أما العوامل التي أخّرت فتح المغرب فنوجزها بالآتي:

١ - صعوبة البلاد جغرافياً حيث تنتشر شمالها سلسلة جبال أطلس، وجنوبها الصحراء الإفريقية الكبرى.

٢ - المقاومة البيزنطية للفتح التي شملت عمليات بريّة وبحريّة نفذتها المدن الساحلية المدعومة من قبل الأسطول البيزنطي القوي.

٣ - الأحداث التي كانت تحصل في الشرق الإسلامي الذي كان يتخبّط بالثورات والتغييرات.

٤ - انشغال العرب بالحملات على القسطنطينية.

٥ - بُعد المغرب الأقصى عن مركز الخلافة، ممّا كان يجعل بعض الخلفاء يُحجمون عن إرسال الجيوش الكبرى خوفاً من التشتت.

وهذا يعني أيضاً بُعد خطوط المواصلات وصعوبة العمليات العسكرية قديماً على مسافات بعيدة كهذه.

٦ - إساءة القادة العرب تطبيق مبدأ المساواة الذي نادى به الإسلام، ومعاملتهم البربر معاملة الغالب للمغلوب، ممّا أدّى إلى انتشار الردّة عن الإسلام بينهم والانتفاض على الولاة، وذلك بالإضافة إلى عصبيتهم البربرية وشدة بلائهم في القتال.

٧ - أسباب عرقية أيضاً، وحقد البربر على العرب لاحتلالهم بلادهم.

٨ - دخول الخوارج إلى المغرب وقيادتهم الحركات ضد الحكم العربي فيه.

٩ - الخلافات العربية-العربية في المغرب.

إنما، ورغم ذلك، فقد تحوّل الوجود الإسلامي في المغرب إقامة دائمة، حيث قامت دول إسلامية عربية نظراً لاعتناق البربر الإسلام ومشاركتهم في الجهاد في سبيله وتعريب الدواوين في شمال أفريقيا واعتماد اللغة العربية في بلدانه.

الفصل الحادي والعشرون
دولة الأدارسة
(١٧٢-٣٧٥ هـ/٧٨٨-٩٨٥م)

أولاً: قيام دولة الأدارسة

عندما لجأ الخوارج إلى بلاد المغرب وأعلنوا معارضتهم في وجه الخلافة العباسية نجحوا في إقناع البربر النازعين إلى الاستقلال بعدم شرعية الحكومات الأموية ثم الحكومات العباسية. وحجّتهم أن تلك الحكومات، في نظر الخوارج، ورثت الخلافة على أسس لا تقوم على مبادئ الحق ولا على أساس مبادئ الإسلام، إذ جعلوا الحكم وراثياً، وهذا خروج على الديموقراطية التي ينادي بها الخوارج.

وذهب هؤلاء إلى وجوب اعتبار الحكم جمهورياً، ولا يجب أن يستأثر به الأمويون أو العباسيون. ونادوا، بدعوتهم السياسية، إلى مقاومة السلطة الحاكمة باعتبارها مغتصبة للحكم وأتت إليه عن طريق غير شرعية.

وإذا كان الخوارج قد نجحوا، إلى حد بعيد، في إثارة القلاقل والفتن والاضطرابات ضد الخلفاء ووجدوا تجاوباً وتأييداً من البربر الذين كانوا يطمعون في تحقيق استقلالهم عن الحكم العربي، فإنهم فشلوا في إقامة دولة لهم في بلاد المغرب حيث تتبّعهم الولاة العباسيون واستأصلوا وجودهم. غير أن الخوارج حرثوا أرض المغرب بأفكارهم وغرسوا دعوتهم فيها. فلما وصل دعاة الشيعة إلى هذه الأرض وجدوا ثمارها قد أينعت وحان قطافها. وبما أنهم كانوا يدعون إلى الفكرة نفسها التي دعا إليها الخوارج، وهي عدم شرعية

سلطان الخلفاء الأمويين والعباسيين وجوب مقاومتهم، فقد وجدوا تجاوباً من البربر وتعاطفاً واضحاً منهم. وقوي هذا التعاطف لأن الشيعة كانوا يدافعون عن آل البيت الوارثين النبوة كما يعتقدون، وأنهم واجهوا الموت والظلم في سبيل إقرار الحق والدفاع عن أحفاد الرسول منْ ابنته فاطمة. وقد دغدغت الدعوة الشيعية قلوب البربر إذ كانوا في طبيعتهم موقّرين لرجال الدين ومعظّمين للأولياء الصالحين، فكيف وأنّ الشيعة يدافعون عن آل الرسول وبيت النبوة؟ ولهذا نجح العلويون الشيعة في تأسيس أول دولة لهم في بلاد المغرب، بينما عجز الخوارج قبلهم عن تحقيق ذلك.

بدأت الدعوة العلوية المعارضة للخلافة العباسية منذ قيام دولة العباسيين وانفراد الأسرة العباسية بالحكم. وجاءت هذه المعارضة بعد أن تحالف العلويون مع العباسيين ضد الدولة الأموية حتى تمّ إسقاطها. ولما سقطت الدولة الأموية، وجد العباسيون أنّه لا ضرورة لبقاء ذلك التحالف بعد أن استأثروا بالخلافة، بينما كان العلويون يأملون في تولي الخلافة تحقيقاً لأهدافهم بجعلها في أبناء آل البيت، خصوصاً أنهم كانوا السباقين إلى الثورة ضد الأمويين منذ خلافة معاوية، وأنهم تحمّلوا عبء الجهاد وأصابتهم الكوارث أكثر من غيرهم. وكانوا يرون أن الشيعة إنما تلتف حولهم من دون غيرهم.

لكن العباسيين تنكّروا للعلويين وادّعوا أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة وأن حقهم في ميراث النبي ﷺ أقوى من حق العلويين. واعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم واغتصبوا الخلافة منهم، فظلّوا على دعوتهم ونشاطهم المعادي للخلفاء، فأصبح حلفاء الأمس أعداء اليوم. وقام العلويون بثورات كثيرة ضد الحلفاء العباسيين كانت أولها ثورة الشقيقين محمد، الملقب بالنفس الذكية، وأخيه إبراهيم، وهما ابنا عبد الله بن الحسن بن علي. ولكن الخليفة المنصور بطش بهذه الثورة بعنف شديد وقتل محمداً في المدينة المنورة السنة ١٤٤ هـ/٧٦١م. وقتل أخاه إبراهيم في «باخمرى»(١) السنة ١٤٥ هـ/٧٦٢م.

(١) باخمرى: بين الكوفة وواسط.

وتحمّل العلويون من العباسيين ضروباً من القسوة والتشريد أكثر مما تحملوه من الأمويين، ورغم ذلك استمروا في ثورتهم، وظل العباسيون يلاحقونهم فيقضون على بعضهم قتلاً أو يلقون ببعضهم في غياهب السجون، وأرغموا الباقين منهم على الفرار إلى أطراف العالم الإسلامي.

وفي السنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م، ثار الحسن بن علي بن الحسن ضد عامل العباسيين في المدينة المنورة في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ/ ٧٨٥ - ٧٨٦م) ثالث الخلفاء العباسيين بسبب الإهانات التي وجهت إلى العلويين من ذلك العامل. فوجه الخليفة جيشاً ضخماً للقضاء على الثائرين، وجرت معركة عنيفة عرفت بموقعة «فخ»[1] قتل فيها الحسين وعدد كبير من أفراد البيت العلوي. وشبه المؤرخون هذه الموقعة بموقعة كربلاء في العهد الأموي، إذ أوشك البيت العلوي فيها على الفناء.

استطاع أن يفر من هذه الموقعة يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس، فاتجه الأول إلى الشرق حيث لجأ إلى الديلم وجمع الناس حوله هناك، بينما اتجه إدريس نحو المغرب الأقصى عبر مصر.

ويقول ابن خلدون إنه نزل على قبيلة بربرية اسمها (أوربة) وهي بطن من بطون البرانس، وأميرها يومئذ في «وليلي» اسمه إسحاق بن محمد بن عبد الحميد. واستجار إدريس بأمير القبيلة فأجاره وجمع البربر على دعوته، فاجتمعت عليه زوغة، ولواته، وسراته، واغمات، ونفرة، ومكناسة، وغمارة وكل برابرة المغرب فبايعوه، وائتمروا بأمره. وتمّ له الملك والسلطان، وكانت له الدولة التي ورثها أعقابه.

وقد اتُخذت «وليلي» عاصمة في أول الأمر، ثم أصبحت العاصمة «فاس» التي أسسها إدريس الثاني، وصارت في ظل إدارته المنفتحة مركزاً شهيراً للعلم والثقافة. وكُتب لهذه الدولة أن تشمل مراكش الحالية والجزء الغربي من الجزائر حتى تلمسان. وازدهرت لمدة طويلة في أفريقيا الشمالية، وظلّت ترث النفوذ حتى السنة

(١) سميت «فخ» نسبة إلى مكان يعرف بهذا الإسم يقع بين مكة والمدينة.

٣٧٥ هـ/ ٩٨٦م، فكانت من أطول الإمارات المستقلة عمراً، وعاصرت النفوذ الفاطمي في المغرب، ونفوذ الخلافة الأموية في الأندلس. واستطاع إدريس الأول أن يصل بأنصاره إلى ميادين جديدة وراء نهر رقراق في جبهات لم تستطع الجيوش الرومانية التوغل فيها من قبل، فدخلت بلاد موريتانيا في الدين الإسلامي بسهولة. واستطاع إدريس أن يعبّر تعبيراً صحيحاً عن شعور البرابرة، أهل البلاد الأصليين، ورغبتهم الحقيقية في الاستقلال، إذ اعتمد على نسبة العلوي عندما أعلن استقلاله بالبلاد. أما جنوده ورجاله كلهم فكانوا من أهل البلاد الأصليين، فأرضى عنجهيتهم الاستقلالية وجمعهم حوله.

ثانياً: الأدراسة بين الأمويين والعباسيين والفاطميين

أدرك هارون الرشيد أنه لم يعد ممكناً الاحتفاظ ببلاد المغرب بالقوة، فلجأ إلى السياسة، فأقام دولة موالية للخلافة العباسية لتكون حاجزاً بين أملاك الدولة العباسية في المغرب الإسلامي وبين إمارة الأدارسة الناشئة والتي أخذ خطرها يتهدد شمال أفريقيا بكامله. فكانت تلك الدولة هي دولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب في ولاية تونس ثم استقلت في ما بعد كما سنرى.

وإذا كان الأغالبة قد فشلوا في القضاء على دولة الأدارسة، فإنهم، على الأقل، حالوا دون وصول خطرها إلى مصر عبر تونس. وكانت أول خطوة قام بها العباسيون للقضاء على الأدارسة هي قتل إدريس الأول مؤسس الدولة بالسم. وقد أورد السلاوي هذه القصة بشيء من التفصيل في كتابه «الاستقصاء» وكان ذلك في السنة ١٧٧هـ/٧٩٤ م. غير أن مقتل إدريس لم يوقف جهود العلويين الشيعة في بلاد المغرب، ولم يؤثر في الحركة الاستقلالية فيها. فعندما مات إدريس لم يخلف ولداً، ولكن أَمَته كانت حاملاً، فلما وضعت ذكراً أسموه إدريس الثاني والتف حوله أتباع أبيه، فقُدّر له أن يكون المؤسس الحقيقي للدولة في فاس السنة ١٩٢ هـ/٨٠٨م. واستطاع إدريس الثاني أن يتصدى لإبراهيم بن

الأغلب الذي لجأ إلى الدس لتفريق البربر عنه. واستقر الأمر أخيراً بين الطرفين بأن يكف كل منهما عن الآخر من ناحيته.

وحكم بعد إدريس الثاني ثمانية من الأدارسة، كان أعظمهم قوة وأعلاهم قدراً يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ - ٣١٠ هـ/٩٠٥ - ٩٢٣م) الذي امتد ملكه إلى مختلف بلاد المغرب الأقصى. وكان، كما يصفه السلاوي «واسطة عقد البيت الإدريسية، أعلاهم قدْراً، وأبعدهم ذِكراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلاً وأوسعهم ملكاً، وكان فقيهاً حافظاً للحديث، ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حاسماً وحازماً، ذا إصلاح ودين وورع».

وفي أيامه ظهر الفاطميون في شمال إفريقيا وأخذوا يمدّون نفوذهم نحو المغرب. وبذلك أصبح الأدارسة يتلقون الطعنات من جانب الفاطميين من الشرق، ومن الأمويين في الأندلس من الشمال، بالإضافة إلى الخلافات بين أبناء السلاطين، تلك الخلافات التي طالما أسفرت عن انقسام الدولة وضعفها، وسهّلت للقوى الخارجية السيطرة على داخل البلاد وقلب الحكم والاستيلاء على السلطة. هذا إلى جانب الحياة القبلية التي كان عليها البربر والتي لا تعرف الاستقرار. كل هذه العوامل أدت إلى انهيار دولة الأدارسة وسقوطها السنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥م.

وفي الواقع، حكم الأدارسة البلاد باسم العلويين الفاطميين. ولكن دولتهم ما لبثت أن وقعت فريسة لخصمين لدودين هما، الفاطميون في أفريقيا والأمويون في الأندلس. وقد بدأ الأمويون يتجهون بنفوذهم إلى المغرب الإفريقي في عهد عبد الرحمن الناصر. فأمام هذا الضغط من الجانبين تقهقر النفوذ الإدريسي إلى الريف، ولم يستطع الأدارسة الاحتفاظ باستقلالهم، فقد أصبحوا تحت راية المنتصر في بلاد المغرب: إما راية الفاطميين أصحاب أفريقيا، أو راية الأمويين أصحاب الأندلس. وانتهى الأدارسة عندما قام حاكم مكناسة الفاطمي بطرد يحيى حفيد إدريس الثاني من مملكته، فاعتزل الحياة العامة وعاش في المهدية حتى وافاه أجله في السنة ٣٣١ هـ/٩٤٣م. وبسقوطه انقرضت الدولة الإدريسية.

غير أن أمراء الأسرة استقلوا حينئذ بالولايات البعيدة واتخذوا لأنفسهم ألقاباً ملكية. ولكنهم لم يصمدوا أمام جيوش عبد الرحمن الثالث (الناصر) الذي قام بضم قسم كبير من موريتانيا إلى خلافته في الأندلس السنة ٣١٩ هـ، فنفى الكثيرين منهم إلى قرطبة. وهكذا سقطت بلاد المغرب الأقصى في أيدي خلفاء الأندلس، بينما اعترف قسمها الشرقي بسلطان الفاطميين.

ثالثاً – تأثير دولة الأدارسة في بلاد المغرب

امتدّ حكم الأدارسة في بلاد المغرب من السوس إلى وهران، وكانت حاضرتهم مدينة فاس التي بلغت حداً كبيراً من العمران والرقي، وأصبحت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية. وقد زال ملكهم بعد أن حكموا أكثر من قرنين. وأسهم الأدارسة في خدمة العالم الإسلامي في ناحيتهم. فهم الذين ثبّتوا البربر على الإسلام، واعتبروا الممهّدين لظهور البربر في المجال الإسلامي ظهوراً واضحاً. فالبربر لم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلاّ بعد أن اتخذوا شكل حكومة قومية وأصبحوا مرتبطين بتولي دول البربر الحكم، تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر تحت راية الإسلام، وكانوا من قبل يعدّون قبول هذا الدين رمزاً لضياع الاستقلال السياسي.

وكان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكماً قومياً مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية. وقد قام الأدارسة بدور كبير جداً في انتشار الإسلام في غرب إفريقية، وينسب إليهم الفضل في القيام بحركة تبشيرية في حوض السنغال استمرت بعد ذلك، خلال عهد المرابطين، حتى شملت إفريقية الشمالية الغربية كلها. كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهوراً ثقافياً واضحاً ومثّلت، ومدينة القيروان، نموذجاً للمدارس الإسلامية في المغرب.

وقد وجد إدريس الثاني في السنة ١٨٩هـ/٨٠٥م أفواجاً من الهجرات العربية

تقصد بلاده، ممّا جعل إفريقيا وإسبانيا تأتيان إليه لتربطا مصيرهما بمصيره، حتى ضاق مقامه «بو ليلى» عن استيعاب هذا النمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة لمملكته. وكان أن وجد في السنة ١٩٠هـ/٨٠٦م، مكاناً يقع على السفح الشمالي لجبل زلغ، وبدأ في بناء مدينة فاس، حيث ضمّت في جهتها الشرقية البربر، وفي الجهة الغربية العرب، واختلطت بهما طائفة من اليهود. وقد وضع المستشرق ليفي بروفنسال دراسة وافية عن بناء وتخطيط مدينة فاس نشرت مع بحوث عدّة عن المغرب والأندلس.

الفصل الثاني والعشرون

دولة الأغالبة

(١٨٤-٢٩٦ هـ/٨٠٠-٩٠٩م)

أولاً: قيام دولة الأغالبة

تمّ تأسيس دولة الأغالبة في بلاد المغرب منذ وصول الأغلب بن سالم التميمي الذي قدم إليها مع الوالي محمد بن الأشعث الخزاعي في عهد أبي جعفر المنصور. وكان الأغلب أصلاً في خراسان من أتباع أبي مسلم الخراساني. وعندما انتقل إلى المغرب ولاّه ابن الأشعث على الزاب ليواجه الثوار في الجزائر وليكون سداً منيعاً في وجههم، فانتقل إلى هناك واتخذ من مدينة «طبنة» قاعدة له. وفي السنة ١٤٨ هـ/٧٦٥م، عاد ابن الأشعث إلى المشرق، فأتيحت الفرصة للأغلب بالولاية على القيروان وأصبح أميراً على المغرب، ولكنه قتل في السنة ١٥٠ هـ/٧٦٧م، وهو يواجه الخارجين على الدولة العباسية.

أما تأسيس دولة الأغالبة فبدأ فعلاً على يد إبراهيم بن الأغلب الذي أقرّه على «طبنة» أمير المغرب «هرثمة بن أعين» السنة ١٧٧ هـ/٧٩٤م. ثم انتقل إلى القيروان لتهدئة الأوضاع المضطربة التي شهدتها في عهد أميرها محمد بن مقاتل. وهناك كسب إبراهيم ودّ أهل القيروان فتقدموا إليه بأن يطلب من هارون الرشيد تثبيته والياً عليهم. ولكي يضمن إبراهيم استجابة الخليفة العباسي له، كتب إليه بأنه مستعدّ للاستغناء عن المساعدة المالية التي كانت تؤديها مصر، وقيمتها مائة ألف دينار، إلى المغرب كل عام، وأن يحمل هو من إفريقية إلى بغداد أربعين ألف

دينار. ويذكر المؤرّخون المسلمون أن الرشيد استشار رجال دولته في ذلك، فأشاروا عليه بالموافقة، فكتب له بالعهد وثيته أميراً على المغرب في السنة ١٨٤ هـ/٨٠٠م. فقام إبراهيم بالإمارة وضبط الأمور بقدرته الإدارية وهمته وقوّة شخصيته، وسكنت البلاد في عهده الذي استمر أكثر من اثنتي عشرة سنة. وتمشياً مع روح الاستقلالية في الحكم التي راح ينفذها، قام بتأسيس مدينة جديدة بجوار القيروان أسماها «العباسة» تعبيراً عن ولائه للعباسيين، وانتقل إليها برجاله وجعلها قاعدة حكمه. وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وظهرت فيها المباني الشاهقة، وشهدت ألواناً من النشاط العلمي والاقتصادي.

وقد تمّ الاتفاق على أن يكون الحكم لإبراهيم طيلة حياته، ووراثياً لأولاده من بعده، على أن يتولى الخليفة في بغداد اعتماد الأمراء الأغالبة واحداً بعد الآخر. وهكذا قامت دولة الأغالبة في تونس فحققّت هذه المنطقة أول حكم ذاتي ومستقل عن الدولة العباسية، استقلالاً يكاد يكون تاماً، إذ لم يعترف الأمراء الأغالبة سوى بالسلطان الاسمي للخليفة العباسي، رغم أنهم لم ينقطعوا عن تذكيره بفتوحاتهم وانتشار سلطانهم بما كانوا يرسلونه إليه من غنائم. ففي الغرب امتدت دولتهم حتى بونة، وفي الجنوب الغربي امتدّت حتى الزاب الذي كانت تحدّه ممتلكات دولة الرستميين أصحاب تاهرت. أما في الشرق، فقد بسطوا سلطانهم على طرابلس الغرب التي كانت مهددة في صورة دائمة من قِبَل البربر في جبل نفوسة.

وكانت السياسة التي بادر إليها هارون الرشيد، وسار عليها الخلفاء من بعده في ما يختص بإفريقيا، سياسة أملتها الظروف في هذا الطرف البعيد من عاصمة الخلافة. وكانت هي السياسة نفسها التي جرى عليها الخلفاء في كل الأقاليم البعيدة التي كانت تنزع إلى الاستقلال أو التي كانت الدولة تعجز عن حكمها حكماً مباشراً. وتقضي السياسة هذه بإقامة أُسِر حاكمة تحكم باسم الخلافة، وهي سياسة مرنة توفّق بين مصلحة الخلافة ومصلحة أهل الإقليم المتطلعين إلى الاستقلال.

وكما كانت الظروف الخاصة بإفريقيا هي التي جعلت الرشيد يقيم هذه الإمارة المستقلة، فقد رأينا من قبل كيف كانت ثورات أهل تلك البلاد على حكم الخلافة، وعجز جيوش العباسيين عن قهرها. ثم كيف استطاع إدريس العلوي إقامة دولة الأدارسة في المغرب الأقصى مؤيداً من قبل قبائل البربر هناك. وكيف كان يتطلع إلى توحيد المغرب الإسلامي كله وفصله عن الدولة العباسية، حتى إنه راسل أهل مصر في ذلك. لذلك أقام الرشيد هذه الإمارة المستقلة لتكون حاجزاً بين أطماع الأدارسة وبين البلاد الواقعة شرقي دولتهم.

ولا شك في أنّ هذه السياسة كانت تنطوي على بعد نظر سياسي، إذ أن قيام إمارة مستقلة في المغرب يرفع عن كاهل العباسيين متطلبات الدفاع عن هذا الإقليم البعيد الذي كان عرضة لهجمات الروم من ناحية البحر، وثورات البربر في الداخل. وبما أن الأسرة الحاكمة تريد المحافظة على سلطانها ونزعتها الاستقلالية فستعمل بطبيعة الحال على إقرار الأمن لاستمرار ذلك السلطان.

وستجتهد أيضاً في تنمية موارد المنطقة التي تساعدها على الحكم والدفاع عنه، خصوصاً أن إبراهيم بن الأغلب تعهّد بأداء أربعين ألف دينار سنوياً إلى الخليفة في بغداد، وهذا يتطلب منه جهداً عظيماً في المجال الاقتصادي.

لقد أثبت إبراهيم بن الأغلب أنه حاكم ناجح، فقد استطاع أن يوطد الحكم في أسرته وأن يقضي على كل الثورات التي نشبت في إقليمه. كما استطاع أن يوقف طموح الأدارسة وأن يعقد معهم اتفاقاً على أن يكفّ كل واحد منهما عن الآخر من ناحيته. ويقول ابن عذارى: «لم يلِ إفريقيا أحسن سيرة منه، ولا سياسة، ولا أرأف برعية، ولا أوفى بعهد، ولا أرعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر، وتمهدت أفريقيا في أيامه».

ثانياً: جهود الأغالبة في الداخل والخارج

حقّق الأغالبة نجاحاً رائعاً في الداخل والخارج. ففي الداخل ساروا على سنّة

الحكام الكبار في ذلك العصر إذ أنشأوا مدينة العباسية، وقلّدوا بذلك الخلفاء والسلاطين الذين أسسوا عواصم لهم. واستطاعوا أن يقضوا على الثورات التي قامت في أفريقيا، وأن يوطدوا الأمن في صورة أفضل مما كانت عليه الحال من قبلهم. ونجحوا في تنمية موارد دولتهم لسداد النفقات الحربية الهائلة التي تحملوا عبئها والتي تطلّبها التصدي لتحركات الروم على سواحل أفريقيا الشمالية.

ولعلّ أبرز ما حققه الأغالبة من جهود في الداخل، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، هو الانتقال بإفريقيا الإسلامية حتى المحيط الأطلسي، وطرح أهلها ما بقي من الدين المسيحي إلى الأبد.

وعمّ انتشار اللغة العربية مختلف أقاليم المغرب، وحلّت مكان اللغة اللاتينية واللغات المحلية الأخرى التي كانت منتشرة قبل الأغالبة. وتمّ في عهدهم امتزاج واسع بين العرب وبين السكان الأصليين بسبب المصاهرة ونشر الثقافة العربية والإسلامية. وينسب إليهم أنهم أدخلوا إلى الشمال الإفريقي فنون العمارة الإسلامية التي كانت معروفة آنذاك في دمشق وبغداد والقاهرة، فأنشأوا مدينة «رقادة» التي خلّدها ابن هانئ الأندلسي في شعره. كما شيدوا في كل من طرابلس والقيروان وتونس كثيراً من المباني التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن، واهتموا بالطرق والبريد والمواصلات. وفي ظلّهم انتعشت الحركة الثقافية، فبرز كثير من العلماء والباحثين والفنانين، فتفقّه أهل إفريقيا في الدين الإسلامي، وانتشر بينهم مذهب الإمام مالك ولم يعد لهم مجرد مذهب ديني فحسب، بل أصبح لهم وطنية وعقيدة. وازدهر في عهد الأغالبة أيضاً نظام الأربطة، وهي أماكن محصنة ينزلها المقاتلون والمتطوعون للجهاد في سبيل الله.

ويقول كارل بروكلمان: «والحق أن الغنى والقوة اللذين تمّا للأغالبة، بسبب من الموقع الذي تتمتع به أراضيهم ببقاعها الداخلية الخصبة، ومرافئها المسيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط، لا يزالان حتى اليوم يتجليان في جامع عاصمتهم القيروان، الذي يعتبر من

أفخم المنشآت الدينية في الإسلام، وإن يكن دون مساجد سامراء ومصر ضخامة واتساعا».

أما جهود الأغالبة في الخارج فقد تمثلت بأخذهم المبادرة العسكرية في سواحل البحر المتوسط وقيامهم بالعمليات الهجومية على جزره وأرض العدو، بعد أن كان الولاة يقفون موقف الدفاع عن سواحل المغرب، حيث تجرأت سفن الروم على مهاجمتها. ولقد نجح الأغالبة في رد هجمات أساطيل الروم وقراصنتهم وبادلوهم غزواتهم البحرية، على غرار ما كان يحدث في عصر الولاة الأمويين. ولم يقف الأغالبة عند هذا الحد، بل إنهم أنشأوا قوة بحرية ضخمة استطاعت أن تقوم بأعمال عسكرية رائعة. فلم تتمكن من إبعاد الرومي عن الساحل الإفريقي فحسب، بل تمكنت من الاستيلاء على قواعده المواجهة لهذا الساحل، فثبّتت أقدام المسلمين على أراضي العدو أعواماً طويلة. وفي ذلك يقول المستشرق ستانلي لين بول: «إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطاناً وطيداً في البر، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضاً، فكانوا سادته المسيطرون على الملاحة فيه. وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب في سواحل فرنسا وإيطاليا وكورسيكا، واحتلت صقلية ومالطا وسردينيا، وبعض المدن الساحلية بفرنسا وإيطاليا، وهددت ضواحي روما».

ثالثاً: فتح جزيرة صقلية

كانت صقلية تابعة لسيادة الدولة البيزنطية الفعلية، عند قيام دولة الأغالبة، وهي أكبر جزر البحر المتوسط على الإطلاق، وقد تعرضت لموجات متفرقة من أمواج الفتح العربي منذ استقرار العرب في الشمال الإفريقي. وكانت أول موجة هي غزوة السنة ٣٦ هـ/٦٥٦م، يوم غزاها أسطول إسلامي انطلق من ساحل الشام. ويرجّح المستشرق «فازيلييف»: «إن الغزوة انطلقت من ميناء طرابلس الشام وجاءت بعد انتصار المسلمين الرائع في موقعة ذات الصواري البحرية». وأصاب المسلمون كثيراً من الغنائم وجالوا في أنحاء سواحل الجزيرة. ثم تتابعت الغزوات على الجزيرة

بعد ذلك من الساحل الإفريقي منذ ولاية موسى بن نصير في أوائل القرن الثامن الميلادي، كما غزاها العرب في عهد أبي جعفر المنصور السنة ١٣٥ هـ/٧٥٢م. وتكرّر الغزو السنة ١٤٦ هـ/٧٦٣م.

ولكن الفتح الحقيقي للجزيرة تمّ في عهد دولة الأغالبة، وبدأ في عهد الأمير زياد الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١-٢٢٣ هـ/٨١٦-٨٣٨م). ففي السنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م، أرسل إلى صقلية جيشاً كبيراً بقيادة «أسد بن الفرات» قاضي القيروان. وقد اختلفت الروايات العربية واليونانية حول السبب الرئيسي لهذا الفتح. ففي الرواية اليونانية نطالع قصة طريفة تبدو كأنها قطعة من الخيال الشائق، وإن افتتاحها كان على يد شخصية عجيبة تبدو وكأنها من شخصيات الأساطير الأولى. وخلاصة هذه القصة أن سيداً من أشراف صقلية يدعى بوفيميوس (يسميه العرب فيمي) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها، فحكم عليه الإمبراطور ميخائيل الثاني بجدع أنفه عقاباً له، ففر إلى بلده سرقوصه (على الساحل الجنوبي الشرقي من الجزيرة) وهناك أعلن الثورة على حاكم الجزيرة البيزنطي وجمع حوله الأنصار. واستطاع أن يستولي على حكم المدينة، ونشبت في الجزيرة حرب أهلية لم يثبت فيها فيمي الذي هرب من سرقوصة ولجأ إلى تونس واستعان بالأمير زياد الله ودعاه إلى فتح صقلية ووعده بملكها.

ولكن الرواية العربية لا تذكر لنا شيئاً عن قصة الراهبة المخطوفة، وإنما تورد فقط أن الإمبراطور غضب على فيمي وهو مقدّم أسطوله، وأمر بالقبض عليه، وأنه ثار في أنصاره واستولى على سرقوصة ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى «بلاطة». فسار فيمي في سفنه إلى أفريقيا واستنجد بأميرها زياد الله بن الأغلب، فاستجاب لدعوته وسيّر أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضي القيروان «أسد بن الفرات»، وكان فقيهاً وعالماً من أعظم علماء عصره. وهو أندلسي من إقليم غرناطة، رحل في شبابه إلى الشرق والتقى الإمام مالكاً بن انس بالمدينة المنورة وأخذ عنه، ثم عاد إلى أفريقيا ووليّ قضاء القيروان وألّف كتاباً في الفقه المالكي. ومما يدعو حقاً إلى

الإعجاب والدهشة أن أسد بن الفرات كان، إلى جانب علمه الغزير، جندياً جريئاً وبحّاراً مغامراً. فقد ذكر ابن خلدون أنه افتتح جزيرة «كوصرة» قبل ذلك، وهي جزيرة بنتلاريا الصغيرة الواقعة شرقي تونس. كما يبدو أنه شارك في الغزوات البحرية الأخرى التي شهدتها مياه البحر المتوسط بعد ذلك.

وقبل الشروع في عملية الفتح، جمع زياد الله وجوه أهل القيروان وفقهائها، وفيهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضي وسحنون الفقيه، واستشارهم في أمر الهدنة التي كانت قائمة بين صقلية والمسلمين، فظهر اتجاهان:

- رأى أصحاب الاتجاه الأول، وفيهم سحنون القاضي، التريّث في مسألة الغزو وعدم الإسراع في ذلك. وقد سأل هؤلاء المجتمعين: «كم بين صقلية وبين بلاد الروم؟»، فقالوا: «يروح الإنسان مرتين أو ثلاثة في النهار ويرجع». قال: «ومن ناحية إفريقيا؟» قالوا: «يوم وليلة». قال: «لو كنت طائراً ما طرت عليها».

- أما أصحاب الاتجاه الآخر فكانوا من المتطرّفين المتحمسين للجهاد في سبيل الله وإعزاز دينه، حتى ولو بعدت الشقة. ولكن بين الاعتدال والحماس كانت هناك مشكلة قائمة هي الهدنة المعقودة مع الجزيرة وكيف يستبيح الفقهاء أن يفتوا بنقضها؟ وعرض الأمر على ابن الفرات وأبي محرز. وعاد التطرف والاعتدال من جديد حول هذه المشكلة، فآثر أبو محرز التريّث. أما ابن الفرات فكان متحمساً للفتح، ولكنه كان يريد أن يجد المبرر لنقض الهدنة، فسأل رسل الصقليين: هل يوجد في صقلية أسرى من المسلمين؟ ولكن أبا محرز اعترض على ذلك وقال: «كيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم؟». فقال ابن الفرات: «بالرسل هادنّاهم، وبالرسل نجعلهم ناقضين».

وعندما أقرّ الرسل بوجود الأسرى من المسلمين في صقلية تحلّل المسلمون من الهدنة، وأذن الأمير بالغزو وعهد بالقيادة إلى أسد بن الفرات. أقلعت الحملة في نحو مئة مركب سوى مراكب «فيمي» من ميناء سموسة السنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، فكانت أعظم حملة عربية قادها ابن الفرات،

وضمّت، وفق الروايات العربية، تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير البحارة. وكان معظمهم من الجند المجاهدين في سبيل الله.

رست السفن الإسلامية في ثغر مازر أو (مازرا Mazzara) في طرف الجزيرة الغربي، وهو أقرب ثغورها إلى الشاطئ الإفريقي. ومن هناك نفذ ابن الفرات إلى الداخل ورفض الاستعانة بالروم الذين اجتمعوا بقيادة «فيمي». واستولى المسلمون على حصون عدة وحاصروا سرقوصة وبلرم، ووقعت بينهم وبين الروم (البيزنطيين) معارك طاحنة، بعث خلالها الإمبراطور بالإمدادات. واشتدّ الأمر على المسلمين لطول الوقت وتحصينات الجزيرة، والطبيعة الجبلية فهزموا في مواقع عدة، وتفشى الوباء بينهم فسقط الكثيرون صرعى، ومنهم ابن الفرات السنة ٢١٣ هـ/٨٢٨م. وتشجّع الروم وشددوا الحصار على بقية الجند الإسلامي. ولكن الإمدادات التي أرسلها زياد الله إلى الجزيرة، إلى جانب وصول أسطول من الأندلس يحمل سرايا من المجاهدين المغامرين في السنة ٢١٤ هـ/٨٢٩م، أنقذ المحاصرين، وأعاد إليهم القوة، فاقتحموا بلرم.

وتواصلت الإمدادات من ابن الأغلب، فتمكّن المسلمون من فتح قصريانه وجرجنت وقطانية ومسيني وغيرها. ورغم ذلك، فقد كان تقدم المسلمين في الجزيرة بطيئاً لوعورة أرضها، ولذا استقر العرب فيما افتتحوه منها وأسسوا بها إمارة يتولى عليها الولاة من قبل دولة الأغالبة حتى تمّ افتتاح الجزيرة في السنة ٢٦٤ هـ/٨٧٨م.

وقامت في صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين، وازدهرت في ظلها الجزيرة وغدت حديقة يانعة لم تزهُ بعلومها وتجارتها وصناعتها حتى استعادها الدوق روجر (رجار) النورماني السنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢م.

وغدت صقلية منذ افتتحها المسلمون قاعدة انطلاق للحملات والغزوات البحرية التي كان ينظّمها الأغالبة أو ولاة الجزيرة، أو تنظّمها مجموعات خاصة من المجاهدين لغزو ثغور وشواطئ إيطاليا. وكانت هذه الحملات تنقضّ بلا انقطاع على الشواطئ الإيطالية الشرقية والغربية

فتنشر الذعر والرعب في الإمارات النصرانية وتعود بالأسرى والغنائم. وكانت أحياناً تستقر في بعض الموانىء الإيطالية حيث تمّ الاستيلاء على ثغر باري (باره) الذي أصبح قاعدة قوية للغزاة المسلمين في هذه المياه. وسيطر المسلمون في نواحي «قلورية» وفرضوا الجزية على معظم مدنها.

وفي السنة ٢٦٢ هـ/٨٤٦ م، سارت حملة بحرية أخرى من صقلية إلى شاطئ إيطاليا الغربي؛ وبعد أن سيطرت في ثغوره ونهبت «فوندي»، رست أمام مصب نهر تفيري (التيبر) الذي تقع عليه روما، ثم نفذت إلى روما ونهبت كنيستي القديسين بطرس وبولس، وكانتا وقتئذ خارج روما. ولم ينقذ روما نفسها سوى هبوب عاصفة قويّة فاجأت البحّارة المسلمين وتغلبت على بطولاتهم وشجاعتهم، عندما جددوا هجومهم السنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩م، إذ تحطّم الأسطول على صخور الشاطئ وجزره، ونجا الصرح البابوي من دمار محقق. وقد اضطر البابا ليون الرابع إلى تحصين ضاحية الفاتيكان، وأدخل كنيستي القديسين بطرس وبولس إلى المدينة الجديدة المعروفة بمدينة ليون.

واستولى المسلمون في الوقت نفسه على ثغر تارانتو ثم راغوزا من ثغور الأدرياتيك الشرقية. واستمرّت الحملات على الثغور الإيطالية حتى اضطرّ سكانها إلى إقامة الأبراج والقلاع الوافرة المنيعة لترد الهجوم المفاجئ. وهبت على إيطاليا في هذا العصر عاصفة من الخوف والذعر المستمر، وسرت الفوضى إلى كل طبقات المجتمع.

وهكذا نرى كيف أدّى الأغالبة واجبهم نحو العالم الإسلامي، وكيف قاموا بنصيبهم بالدفاع عنه على خير ما يكون الدفاع. فقد دافعوا عن الساحل الإفريقي دفاعاً ناجحاً، بل مدّوا نفوذ العالم الإسلامي وضمّوا إلى حوزته بقعة هامة هي جزيرة صقلية، وغيرها من الجزر الصغيرة.

وازدهرت الحياة الاقتصادية في إفريقيا على عهدهم ازدهاراً كبيراً لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادي، حيث زادت المحاصيل الزراعية، وامتدت الزراعات إلى أراضٍ لم تكن عامرة قبل ذلك. وانتشرت

فيها أشجار الزيتون والنخيل، وكثرت القرى والبساتين على طول الساحل، وأصبحت المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة مركز إنتاج للقمح.

وتقدمت صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن والسيوف، والدروع والسروج، وصناعة التحف المذهّبة، وصناعة الزجاج، والنسيج. وازدهرت التجارة، ونشطت حركة البناء فاهتمّ الأغالبة بالعمارة في تونس. وأهم آثارهم فيها مسجد القيروان العظيم الذي أسسه عقبة بن نافع السنة ٥٠ هـ/٦٧٠م وزاد فيه الأغالبة زيادة عظيمة، وكذلك جامع الزيتونة بتونس وهو الجامع الذي يؤدي في إفريقيا الدور نفسه الذي يؤدّيه جامع الأزهر في مصر.

رابعاً: سقوط دولة الأغالبة

ظهر في حوالي السنة ٨٩٠م، في مدينة سلمية قرب حماه رجل اسمه محمد الحبيب ادّعى أنه من أعقاب علي وفاطمة، وبث الدعاء للمهدي المنتظر ظهوره من هذه الأسرة. والواقع أن صحة نسبه موضع خلاف شديد. وأياً يكن، فقد أعلن ولاءه للشيعة الإسماعيلية الذين استخدموا العقائد الإسلامية لأغراضهم السياسة، مثل القرامطة الذين فسّروا القرآن تفسيراً مجازياً باطلاً، ومن هنا عرفوا بالباطنية.

وكان في جملة من اجتذبتهم هذه العقائد في جنوبي بلاد العرب رجل يدعى أبو عبد الله استطاع في أحد مواسم الحاج أن يحظى بمبايعة جماعة من قبيلة كتامة البربرية، فجعلوه أميراً عليهم وسار معهم إلى بلادهم، وهناك جمع حوله جيشاً مدرباً حارب به بني الأغلب. وكان إبراهيم بن أحمد بن الأغلب خرج غازياً إلى صقلية السنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧م، وترك مكانه ابنه أبا العباس عبد الله وأوصاه بمسالمة أبي عبد الله الشيعي، وإن تغلّب عليه الشيعي فيلحق به في صقلية.

وكان لأبي العباس ابن يدعى زيادة الله الثاني، فبلغه منه أمر حمله على سجنه. ولكن زيادة الله استطاع أن يتودّد إلى بعض الخدم وتآمر معهم على قتل أبيه، فقتله السنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣م، والحرب قائمة بين الأغالبة والشيعة بنواحي سطيف. ولم يهتم

زياد الله بالخطر الشيعي بل عكف على الملاهي وأهمل أمر الدولة، ممّا مكن أبي عبد الله الشيعي من هزيمته هزيمة نكراء أكرهته على الفرار إلى بلاد الجزيرة الفراطية.

وعندما طلب المقتدر العباسي من والي مصر أن يساعد زياد الله على استعادة ملكه، لم يتحمس الوالي للأمر. وهكذا استقر الأمر لأبي عبد الله في رقادة عاصمة بني الأغلب السنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥م. وسقطت دولة الأغالبة بسهولة أمام الفاطميين الشيعة الذين اكتسحوا بلاد المغرب، وأقاموا دولتهم في مصر وبنوا القاهرة السنة ٣٦٠ هـ/٩٧١م.

الفصل الثالث والعشرون
دولة المرابطون
(١٠٩٠ - ١١٤٧م)

مقدّمة

في القرن الحادي عشر كان المسرح في المغرب والأندلس جاهزاً لقيام دولة قوية تستند إلى إحدى القبائل البربرية المغربية وتعيد للإسلام مجده في الأندلس وشمال أفريقيا. وهكذا لعب المغرب العربي طيلة قرنين ونصف القرن من الزمن دوراً فعّالاً في حوض المتوسط الغربي.

أولاً: قيام دولة المرابطين

المرابطون، أو الملثّمون، هم من قبيلة «لمتونة» البربرية الصنهاجية التي توطّنت صحراء المغرب وغلبت على أفرادها حياة البادية. سُمّوا «الملثمين» لأنهم كانوا يتخذون اللثام شعاراً لهم. وكانت هذه القبائل تُدين بالوثنية، واهتدت إلى الإسلام في نهاية القرن التاسع الميلادي (٨٩٩م).

تمكّن زعيم إحدى هذه القبائل «يحيى بن إبراهيم» من توحيدها وتزعمها، بعد أن دبت الفوضى في جسم المملكة القبلية. ففي السنة ١٠٤٨م، حج يحيى إلى مكة فأحضر معه عالماً في الدين اسمه «عبد الله بن ياسين الجزولي» الذي قام أتباعه ببث الدعوة الإسلامية بين هذه القبائل. وقد أطلق عبد الله بن ياسين على نفسه وأتباعه اسم «المرابطون»، وحصر السلطة الدينية والزمنية في شخصه، أو في شخص أحد رفاقه، على سائر القبائل في الصحراء.

وبعد أن أصبح ممكناً توجيه الجيوش الصحراوية للنضال ضد الأمراء المستبدّين في شمال الصحراء، ترك عبد الله قيادة «المرابطون» ليحيى بن عمرو زعيم قبيلة لمتونة.

ثانياً: الدخول إلى المغرب وتعيين يوسف بن تاشفين حاكماً على المغرب

هاجم المرابطون شمالاً فاحتلوا سجلماسة العام ١٠٥٣م وأعادوا احتلال أوداغوست وفتح بلاد السوس وبلاد المصامدة في جبال المغرب (الأطلس). وبعد معارك عنيفة قتل عبد الله بن ياسين، فانتُخب أبو بكر بن عمرو اللمتوني مكانه، فتابع القتال ضد القبائل الوثنية وأمعن فيها قتلاً. وسيطر المرابطون على الطرق التجارية في المغرب.

وخوفاً من انهيار المرابطين أمام القبائل الوثنية، خرج أبو بكر من المغرب باتجاه الصحراء، وعين ابن عمه «يوسف بن تاشفين» حاكماً على المغرب. وفي العام ١٠٦٢م بنى يوسف مراكش وجعل منها قاعدة عسكرية حلت محل سجلماسة. كما أعاد تنظيم الجيش الصحراوي، وأصبح الزعيم الديني والسياسي بعد وفاة ابن عمه أبي بكر.

وتمكّن «يوسف بن تاشفين» من احتلال فاس العام ١٠٦٩م، ومن افتتاح المغرب الأوسط بين عامي ١٠٧٠م و١٠٨٠م، ومعظم نواحي المغرب الجنوبي. فاكتسب شهرة عظيمة وعلا شأنه في مختلف أنحاء المغرب.

وهكذا، ومع نهاية القرن الحادي عشر، أصبح المغرب الأقصى والأوسط لأول مرة موحَّداً وتحت سلطة سياسية وعسكرية قوية، من الصحراء إلى البحر المتوسط. وحصّن يوسف مراكش وأقام فيها الآبار والأسوار لتحلّ محل فاس عاصمة المغرب القديمة. وعُني بتنظيم جيشه وأنشأ فرقة خاصة من الفرسان لحراسته، وجهّز الجيش بالرماة والعدة، فاتجه نحو تونس التي احتلها بكاملها وقضى على سلطات كل الأمراء المحليين.

وهكذا نشأت دولة المرابطين الكبرى التي تحوّلت من زعامة دينية إلى زعامة سياسية وملك عظيم هو السلطان «يوسف بن تاشفين» الذي أقام أعظم إمبراطورية إسلامية في المغرب، ولُقّب بأمير المسلمين، أو بالسلطان.

ثالثاً: المرابطون في الأندلس

لم يقف طموح إبن تاشفين عند المغرب رغم امتداده من السودان إلى جبال البرنس ومن المحيط الأطلسي إلى تونس، بل تطلع شمالاً نحو الأندلس التي اعتبرها امتداداً للمغرب على أكثر من صعيد ومتواصلة معه سياسياً واجتماعياً.

وعندما تولّى المَلك في قشتالة المُلك ألفونس السادس، شدّد الخناق على المسلمين في الأندلس وعلى ملوك الطوائف، ممّا جعل أحدهم، وهو المعتمد بن عباد، يناشد ابن تاشفين للدخول إلى الأندلس للمساعدة.

عَبَرَ ابن تاشفين مضيق جبل طارق من سبتة في أسطول من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وعدداً كبيراً من الرجال استطاعوا النزول في الجزيرة الخضراء، حيث لاقاهم المعتمد بن عباد وقدم لهم الهدايا والتحف. وتوجه الجيش بعد أن تلقى مدداً من الأندلس زهاء عشرين ألفاً من المسلمين، شمالاً حيث تلاقى الجيشان في سهل الزلاقة بالقرب من بطليوس فانتصر جيش المرابطون على جيش ألفونس السادس.(١)

واعتبرت موقعة الزلاقة من المواقع الحاسمة في تاريخ الأندلس، إذ ضمنت للإسلام قوته واستمراره فيها مدة أربعة قرون أخرى. وكانت لها نتائج بارزة إذ أعادت الثقة والأمل وروح الحماس إلى نفوس ملوك الطوائف. إلاّ أنها حركت العالم المسيحي في المقابل، فعمل ألفونس السادس على إنشاء تحالف بين الملوك الإسبان وبعث بالأساقفة والرهبان إلى الأديرة يدعون إلى إعلاء شأن المسيحيين.

---

(١) سبق الحديث عن معركة الزلاقة في هذا الجزء من الموسوعة.

عاد إبن تاشفين بعد موقعة الزلاقة إلى المغرب بسبب وفاة ابنه أبي بكر فيها.

رابعاً: الأحداث بعد موقعة الزلاقة

بعد موقعة الزلاقة تشكّلت إمبراطورية المرابطين في أجزاء ثلاثة منفصلة تماماً:

١ - الصحراء الغربية.

٢ - المغرب الغربي بتقسيماته الثلاثة: جنوب، شمال وشرق.

٣ - الأندلس.

وكان لهذه الإمبراطورية غير المتجانسة عاصمة نظرية، هي مراكش، حيث كان يقيم السلطان إبن تاشفين الذي وزع المقاطعات على الولاة اللامتونيين.[١]

وسنّت الدولة لنفسها سياسة دفاعية وهجومية فعّالة، لا سيما أن الأندلس كانت دائماً في خطر. في المقابل راح الملوك الإسبان يُغيرون على منطقة بلنسية خاصة، مما دفع بالمعتمد بن عباد للاستعانة بابن تاشفين الذي عبر للمرة الثانية إلى الأندلس ونزل في الجزيرة الخضراء حيث تجمّع الأمراء المسلمون حوله.

وكان إبن تاشفين قد قرر أن يستولي على الأندلس ويوحّدها مع المغرب في حكومة واحدة كما فعل موسى بن نصير قبله، وقد تمّ له ذلك باعتماده خطة ذات شقين:

أ - القضاء على ملوك وأمراء المسلمين الذين كانوا موضع التفرقة والتشتت.

ب - محاربة ملوك الشمال الأسبان.

وقد نجح السلطان في الأمرين، فقاد معارك دموية تغلب فيها على أعدائه واستردّ كل الحصون والقلاع التي كانت قد وقعت بيد الأسبان ودخل أراضي أراغون وعاد مثقلاً بالغنائم.

واستولت جيوش المرابطين على مناطق الأندلس الغربية وعلى بطليوس. وهكذا تم لهم توحيد الأندلس مع المغرب وإقامة إمبراطوريتهم الكبرى.

(١) اللامتونيين: نسبة إلى قبيلة لامتونة البربرية.

خامساً: نهاية دولة المرابطين

خلف علي بن تاشفين والده، فبدأ بتجهيز الحملات، وقام ببعض التنظيمات الإدارية والعسكرية، وقاد جيوش المسلمين شمالاً حيث جرت معركة بينه وبين الملك ألفونس السادس قرب قلعة إقليتش انتصر فيها المرابطون الذين دخلوا طليطلة وسرقسطة.

لكن خوف ملوك الطوائف في الأندلس من سيطرة المرابطين دفعهم للاستعانة بدول إسبانيا المسيحية، فقام عماد الدولة بالاستعانة بملك أراغون ألفونس الذي أمدّه بقوات حاربت المرابطين وهزمتهم وقُتل قائدهم عبد الله المزدلي واستُرجعت سرقسطة. كما ثار أهالي قرطبة على المرابطين بسبب سوء إدارة الولاة.

وفيما كانت هذه الأحداث العسكرية تجري في الأندلس هبّت عليهم في أفريقيا عاصفة دينية تمثلت بدعوة الموحّدين لصاحبها المهدي محمد بن تومرت الذي بدأ بمحاربة المرابطين في أفريقيا، ممّا عجّل بسقوط دولتهم التي دامت من ١٠٩٠م إلى ١١٤٧م.

خلف علي بن تاشفين ابنه تاشفين الذي بدأ يتراجع أمام مدّ الموحدين، ففرّ إلى مدينة وهران ليتخذها عاصمة لدولته. لكن الموحدين بقيادة عبد المؤمن حاصروه وقتلوه العام ٥٣٩ هـ/١١٤٤ - ١١٤٥م، فورث الموحدون دور المرابطين في المغرب والأندلس بعد أن انشقت عنهم جماعات من القبائل البربرية التي كانت موالية لهم.

سادساً: العوامل التي أدّت إلى زوال دولة المرابطين

عوامل عديدة ساهمت في إزالة دولة المرابطين أبرزها:

أ - قيام دولتهم على أساس ديني وعلى نزعة جهادية. لذلك، عندما ظهرت دعوة دينية أقوى فعالية أزالتها من الوجود.

ب - اتساع حدود الدولة وامتدادها من شمال أفريقيا إلى الأندلس، مما شتّت قواتها وجعلها في موقع الدفاع وأضعفها في مركزها الأساسي (شمال أفريقيا).

ج - اختفاء القادة العظام، خاصة يوسف وعلي بن تاشفين، والذين امتازوا بعبقرية عسكرية وروح استراتيجية كبيرة.

د - تغلغل نفوذ الفقهاء ورجال الدين في عهد علي وتدخلهم في كـل شؤون الدولـة.

هـ - تراجع الروح العسكرية للقادة والجند أمام ثروات الأندلس وانصرافهم إلى حياتها المرفّهة.

و - فقدان العاطفة الدينية والقومية وانصراف ملوك وأمراء الطوائف إلى عقد تحالفات مع الدول الإسبانية ضد المرابطين وذلك خوفاً من سيطرتهم الدائمة على الأندلس.

ز - اشتداد وطأة حكم المرابطين في الأندلس مما أثار شعور العداء نحو الحكم والرغبة في التخلص منه.

هذا، إضافة إلى نظرية «صعود الأمم وهبوطها» والتي ترى أن الأمة تبدأ بالتراجع والسقوط عندما لا تعود إمكاناتها العسكرية والاقتصادية قادرة على صيانة دورها في الأراضي والمقاطعات الواسعة التي تحتلها، وبالتالي عند قيام قوة جديدة أكثر تنظيماً ومجتمعة القوى ويقودها قائد عسكري قادر ومميز. وهذا الوضع انطبق تماماً على دولتي المرابطين والموحدين في المرحلة التي نتكلم عنها.

الفصل الرابع العشرون
دولة الموحّدين
(٥٢٤-٦٣٣ هـ/١١٣٠-١٢٣٥م)

مقدّمة

تعتبر الدولة الموحّدية الدولة الثانية من البربر التي حكمت المغرب والأندلس بعد دولة المرابطين بعدما كانت هذه الأخيرة قد زالت من الوجود على يد الموحّدين.

وكان قد سبق قيام هذه الدولة في المغرب عهود من التابعية الأموية والعباسية ونزاعات قبلية وثورات بربرية على الحكم العربي الإسلامي وقيام دولة المرابطين على أساس ديني وقبلي.

وهناك تشابه بين الدعوتين الموحّدية والمرابطية، أقلّه من الجانب الديني بعد انهيار أخلاقي كبير وتذمر من الحال الاجتماعية المتردّية في المناطق الإسلامية.

أولاً: الأحوال السياسية قبل قيام الموحّدين

بدأت ثورة الموحّدين في بداية القرن الثاني عشر في وقت كان قد استقرّ الزحف الأوروبي في المدن العربية الإسلامية في الأندلس، بعد أن نشطت حركة إلاسترداد المسيحي في إسبانيا. ولم يستطع السلاجقة ولا الفاطميّون وضع حدّ للمدّ الأوروبي، فأخذ الزنكيّون والأيّوبيون زمام المبادرة ضد الصليبيين، تلاهم المماليك. وعاصر الموحّدون زمن ضعف الفاطميين وسقوطهم وقيام دولة الأيوبيين وانحلالها.

ومنذ سقوط الدولة الأموية في الأندلس أصبحت أحوال المغرب والأندلس مشابهة لأحوال الشرق تمزّقاً وانقساماً، فنشبت النزاعات القبلية والخلافات الشخصية والإقليمية.

وحوالي السنة ١٠٥٥م بدأ المرابطون توسّعهم فاستطاعوا توحيد المغرب والأندلس، فيما بدأ النصارى في شمال إسبانيا حركة استردادهم للبلاد وبلغوا ذروة نجاحهم عند سقوط طليطلة السنة ١٠٨٥م.

وعندما أفاقت الزعامات الإسلاميّة المتناحرة من غفوتها وأحسّت بالخطر الداهم، استعانت بالمرابطين فأنجدهم يوسف بن تاشفين وأحرز انتصارات عديدة وضمّ الأندلس إلى مملكته.

تبع ذلك ثورة الموحّدين في المغرب العام ١١٢١م، فواجه المرابطون وضعاً صعباً في الداخل وخطراً داهماً في الخارج. وعند تفاقم الخطر الداخلي وجه المرابطون جهدهم إلى المغرب فخرجت الأندلس من سيطرتهم ودخلت في عهد ملوك الطوائف مرّة جديدة.

حتى في المغرب الأقصى استقلّت كل قبيلة في منطقة وحكمتها، وبسط الصقليون نفوذهم على الساحل الإفريقي حتى بلغوا المهدية.

في هذه الأجواء العامة قامت ثورة الموحّدين وتصاعدت إلى أن شكلت دولة قوية أعادت السيطرة والتوحيد إلى المغرب والأندلس.

ثانياً: قيام دولة الموحّدين

يتحدّر زعيم دولة الموحّدين من قبيلة ضرعة إحدى بطون قبائل المصمودة، وهي إحدى أكبر القبائل البربرية في المغرب الأقصى.

ولد ابن تومرت العام ١٠٨٢م، وتعلّم في مكتبة قريته قبل أن ينتقل إلى قرطبة ومن ثم إلى الشرق حيث تعلّم في الإسكندرية وبغداد.

وعندما عاد السنة ١١١٦م كان قد تعمّق في العلوم، خاصة أصول اللغة والفقه والدين، فاتخذ لنفسه لقب المهدي ونادى بنفسه نبياً جاء لإحياء السنّة الإسلامية

الصحيحة، فدعا أبناء قبيلته والقبائل الأخرى من أهالي جبال أطلس بمراكش إلى مذهب التوحيد فدعي أتباعه «الموحّدون».

وركّز ابن تومرت على مفاسد الطبقة العليا مادة لوعظه، فكثر أتباعه مما جعل المرابطين يخرجوه من مراكش إلى اغمات حيث تبلور أسلوبه. وقد التقى محمد بن تومرت، عندما كان يبشر بدعوته في مليلة، بعبد المؤمن بن علي الزناتي الذي انضم إلى دعوته وراح يبث معه الدعوة ضد المرابطين مستقطبين الأتباع والأنصار.

ودخل ابن تومرت في طور النزاع المسلّح مع المرابطين منذ العام ١١٢١م، وهزم الجيوش التي أرسلوها لقتاله في السوس وفي مراكش، فغنم أسلحة وأموالاً. وهيأت له هذه الانتصارات دعاية واسعة بين القبائل البربرية التي جاءته أفواجاً معلنة ولاءها.

وفي العام ١١٢٥م تحوّلت خطته العسكرية من الدفاع إلى الهجوم، فأغار على أحواز مراكش محرزاً بعض الانتصارات. إنما، في العام ١١٣٠م مُني بهزيمة كبرى عند محاولته احتلال مراكش، حيث فقد في هذه المعركة خيرة قادته وجنده. وتوفي على أثرها.

عبد المؤمن مؤسّس الدولة

كان عبد المؤمن بن علي الزناتي قد أظهر عبقرية عسكرية خلال معاركه إلى جانب ابن تومرت، وكان قد عُرف بشدّة ذكائه ونال قسطاً من العلم وتمتّع بشخصية قوية. لذلك بايعه أصحاب المهدي ابن تومرت العشرة واختاره الموحّدون لزعامتهم، فتولى القيادة فيما كانت الروح المعنوية لدى القبائل الموالية قد أصبحت في أدناها بسبب الهزائم العسكرية ووفاة المهدي.

قام عبد المؤمن بإعادة تنظيم الموحدين وأحسن إلى الناس وأعاد الثقة إلى القبائل، فباشر الموحدون حروبهم ضد المرابطين. وبعد أول انتصارات عليهم، عادت الوفود تتوافد إلى عبد المؤمن فراح الموحّدون يسيطرون على حصون المرابطين، وانتصروا عليهم في تلمسان ووهران.

وفي العام ١١٣٩م خرج عبد المؤمن في حملة «الطويلة الأعوام» التي انتهت بسقوط دولة المرابطين. فقد فشل قائدهم الأعلى تاشفين بن علي في مواجهة الموحّدين رغم الحشد العسكري في سجلماسة والأندلس، فقتل في خضم الصراع السنة ١١٤٥م.

وراح الموحّدون يسيطرون على مدينة تلو الأخرى بعد أن كانت حروب عبد المؤمن تهدف إلى غرضين:

الأول: القضاء على دولة المرابطين.

الثاني: إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحّدية.

لقد تمكّن عبد المؤمن من تحقيق هذين الغرضين لأسباب أهمها:

١ - دعم قبائل المصمودة، الناقمة على المرابطين له.

٢ - إذكاء روح الحماس الديني في نفوس الموحّدين بعد تراجعها لدى أخصامهم.

٣ - تفكّك الدولة المرابطية وانشغال قادتها بملاذهم.

٤ - استعلاء الفقهاء على الناس.

٥ - انهيار الإدارة.

٦ - ضعف الجيش.

٧ - تخلّي قبائل المرابطين عن بعضها في أدقّ الظروف.

٨ - انضباط الجيش الموحّدي وروحه العالية والخطط العسكرية الناجحة لقادته.

لكل هذه الأسباب قامت دولة الموحّدين وورثت حكم منطقة واسعة جداً.

ثالثاً: عصر الإزدهار

إثر القضاء على دولة المرابطين دخلت دولة عبد المؤمن منذ العام ١١٤٨م في عهد ازدهار اتّسم بالتوسّع والعمران والنهوض المادي والفكري، لا سيما مع فراغ في القيادات المعادية لها.

وقد توالى على الحكم بعد عبد المؤمن ابنه يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ/١١٦٣ - ١١٨٤م)، ثم يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ/١١٨٤ - ١١٩٩م) الذي كان من أم روميّة والذي عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي فيما كانت المعركة على أشدّها مع الصليبيين في الشرق والغرب.

أ - التوسّع في الخارج:

كان عبد المؤمن قد تطلّع نحو الأندلس بعد قضائه على المرابطين في العام ١١٤٨م، فحارب فلولهم فيها وتسلّم غرناطة وقرطبة وغرب الأندلس وشرقها. إلاّ أن ثورة قامت في الأندلس، أثناء انشغاله بغزوة في أفريقيا، أدت إلى سقوط حصون عدة في أيدي الثوار. وزاد الأمر حرجاً وفاته في العام ١١٦٣م.

خلف عبد المؤمن ابنه يوسف الذي سار على سياسة والده في محاربة نصارى الأندلس مما أدّى إلى استشهاده في إحدى معاركه ضدهم. خلفه يعقوب المنصور الذي كانت أولى أعماله في الأندلس حملة انتقامية ضد الممالك المسيحية حيث أحرق الزرع وسبى الكثير ثم عاد إلى المغرب بعد أسر ثلاثة عشر ألف مقاتل من النصارى.

وكان الموحّدون يملكون جيشاً منظماً وأسطولاً قوياً ممّا أعطاهم النصر الحاسم في صراعهم ضد الملوك والأمراء. لذلك عقد معهم ألفونس ملك إسبانيا هدنة ما لبث أن نقضها بعد خمس سنين ممّا دفع بيعقوب المنصور إلى الدخول مرة جديدة إلى الأندلس التي شهدت مرحلة جديدة من الصراع الإسلامي المسيحي شارك فيها ملوك أوروبيّون ضمن إطار الصراع الصليبي في الشرق والغرب.

لكن المنصور توّج أعماله العسكرية بانتصاره الباهر على أمراء إسبانيا بقيادة ألفونس الثامن ملك قشتالة في معركة الأرك الشهيرة السنة ١١٩٥م، ممّا دفع ببعض الأمراء المسيحيين إلى التحالف معه والمحاربة في صفه.

هذه المعركة أعطت المنصور دفعاً كبيراً في الأندلس فوصلت سيطرة الموحدين حتى وادي الحجارة. إلاّ أنها ساهمت في شنّ حملة مضادة قوية ضد الوجود الإسلامي في الأندلس قامت بها البابوية على أوسع نطاق، بعد تعبئة القوى المسيحية في أوروبا، رافعة بذلك الوتيرة الصليبية في الغرب.

وفي البحر تفوّق الموحدون على الصقليين عسكرياً فأجلوهم عن شمال إفريقيا. ثمّ سعوا لمصالحتهم وبقوا على علاقة جيّدة معهم.

على الصعيد الإسلامي، كانت علاقة الموحّدين بالأيوبيين متوترة رغم العلاقة الجيدة التي كانت تربط بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور. وكان صلاح الدين قد طلب من المنصور المساعدة في الصراع ضد الصليبيين في الشرق، لكنه لم يستجب. وهناك غموض حول أسباب عدم استجابة المنصور، لكن المؤكد أن المنصور كان منشغلاً بالصراع ضد الصليبيين في الأندلس والذين كان قد ألّبهم البابا ضده في حرب خاضها الملوك الأسبان مدعومين بباقي القوى الأوروبية. لذلك لم يتمكن من توجيه قواته نحو الشرق وتشتيتها على جبهات عدة. هذا علاوة على الصراعات الداخلية التي واجهها في المغرب والتي سنتكلم عنها.

ب - الصراعات الداخلية:

يعتبر تاريخ المغرب في هذه الحقبة تاريخاً للقبائل البربرية التي لا تعترف بسلطان يفوق سلطانها ولا يمكنها أن ترقى إلى مصاف مفهوم الدولة. لقد عرف ابن تومرت هذه الحقيقة فوضع نظاماً حفظ به وحدة القبائل الموحّدية. ولما كانت قبائله تعود جميعها إلى «المصمودة»، فإن نجاحها أغرى القبائل الأخرى التي انطلقت في ثورات متعددة تكرّرت في جبال غمارة وبلاد صنهاجة ومنطقة السوس. وقد تمكن الخلفاء الثلاثة الأُول من إخمادها.

وتزامنت ثورات القبائل المغربية مع الفتن القوية في تونس، ولعب فيها الدور الأساس العرب الهلالية والميورقيون.

ولم ينجح الخلفاء في القضاء نهائياً على ثورات القبائل هذه، إنما تمكّنوا من منع انتشارها وحصرها في منطقة. كما أنهم لم يتمكنوا من توجيه الجيوش الجرّارة لإخمادها بسبب انشغالهم في الجهاد ضد القوى المسيحية في الأندلس. إضافة إلى ذلك، فإن طبيعة المنطقة الصحراوية التي تسيطر عليها القبائل، ساهمت أيضاً في إبقاء نيران الثورات متأجّجة ممّا ساهم في انحلال دولة الموحّدين وسقوطها.

ج - الاقتصاد:

ساهم تفوّق الموحّدين في الخارج والداخل وفرض الأمن والسيطرة على

البحر في التقدّم والإزدهار الاقتصادي، فتحسّنت الزراعة وزرعت مساحات جديدة. وتمدّدت التجارة والصناعة في البلاد التي شهدت حال ازدهار لم يشهدها المغرب من قبل.

ويعود الفضل في ذلك أولاً إلى سياسة الدولة، إذ أن الخلفاء غرسوا الكثير من البساتين وشجّعوا الشعب على زرع المساحات الجديدة. كما أشركوا الجيش في الحصاد وساهموا في حماية الزراعة خلال أيام الفتن والثورات.

صناعياً قامت نهضة كبرى من خلال استغلال المعادن وصناعة السفن التي انتشرت في السواحل، كذلك تصنيع الأسلحة والصناعات الزراعية والمنسوجات. ورافق هذه النهضة امتداد للتجارة الداخلية والخارجية شمل الشرق وبلاد السودان وأوروبا.

كما رافق التمدّد التجاري والصناعي عهد ازدهار عمراني مع إصلاح الطرق ومدّ الجسور وبناء المدن الجديدة وإصلاح القديمة وتشييد المساجد والمستشفيات والمدارس. وجُلبت المياه إلى المدن وبُنيت المؤسّسات والمزارع ونشطت الفنون، لا سيما إقامة الحصون والمنارات.

علمياً، ازدهرت العلوم وأمّت الوفود العلمية المغرب نظراً لتشجيع الخلفاء لأهل الفكر وتأسيس المدارس والمساجد وتنظيم المكتبات وتوفير أجواء الحرية الأدبية والفكرية. كما ازداد اهتمام الناس بعلوم الدين والفقه والأدب والشعر والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب، ممّا ساهم مساهمة كبرى في تقدم هذه العلوم في المغرب والأندلس. وساهم التمازج الحضاري وتواصل الحضارات وتلاقي المجتمعات الأوروبية والشرقية في الأندلس في قيام حركة علمية وثقافية وفنية دفعت بلاد المغرب العربي والأندلس وإسبانيا أشواطاً في ميادين التقدم العلمي.

رابعاً: التراجع والسقوط

دخلت دولة الموحّدين في طور الانحلال مع مطلع القرن الثالث عشر. واعتبرت وفاة يوسف المستنصر، ثالث خلفاء الموحّدين إيذاناً ببدء التراجع والسقوط، وذلك بسبب الخلافات بين أفراد الأسرة المؤمنية.

لقد أثبت الخليفة الموحّدي الرابع الناصر فشله في إدارة شؤون الدولة التي كانت قد أصبحت مترامية الأطراف وبحاجة إلى إدارة قوية ومركزية وجيش قوي لضبط ولاياتها المتعدّدة. وفشل الناصر في محاربة النصارى في إسبانيا إذ خسر معركة العقاب السنة ١٢١٢م، التي دقّت أجراس التراجع النهائي في الأندلس.

ومع وفاة الناصر تسلّم الحكم بعده صبي لم يتمكّن من ضبط أمور الدولة التي تدخّل في شؤونها مشايخ الموحّدين. وهكذا سيطر المشايخ وتسلّط الوزراء واستبدّ الولاة فتضعضعت الإدارة وتراجعت قوّة الجيش وضعف الأسطول. وهذا ما ساهم في تكاثر الثورات التي لم يتمكن الخلفاء من التصدي لها. وبدلاً من أن يتصدى الخلفاء لهجمات الملوك الإسبان في وسط الأندلس وجنوبها، استعانوا بهؤلاء الملوك لقمع الثورات الداخلية التي هدّدت ملكهم.

هذه الأجواء الأمنية المتوترة أدّت إلى انهيار الأوضاع الاقتصادية بما فيها الزراعة والتجارة والعمران، كما أصاب الدمار ما شيّد خلال طور الازدهار.

وتزامن ذلك مع ضعف الحياة الفكرية وهجرة الأدباء والعلماء والشعراء إلى تونس، حيث كان آل حفص قد أقاموا حكماً مستقرّاً. ومع تقلّص أراضي الدولة وتراجع قدرتها العسكرية، بدأت الولايات بالانفصال عنها، وأولها الأندلس التي قرّر عبد الله محمد بن هود الاستقلال بها في مرسيه العام ١٢٢٨م التي حكمها تحت شعار العباسيين بهدف التقرّب من العامة. وهكذا دخلت الأندلس في طور ثالث من أطوار ملوك الطوائف فلم تعد مناطقها تتبع لسلطة مراكش إلاّ إسمياً.

الحفصيون أيضاً استقلوا في أفريقيا السنة ١٢٣٠م، وأعلن أبو عبد الله الحفصي نفسه خليفة العام ١٢٤٩م، وفشلت محاولات المأمون وخليفته في استعادتها.

ومع استقلال الأندلس وأفريقيا لم يبقَ للخلفاء سوى المغرب الأقصى الذي استبدّ به أيضاً عرب الخلط وسفيان والمعقل، ثم بنو مرين.

وبوفاة الرشيد استبدّ الولاة بولاياتهم وبايع عدد من مدن المغرب الحفصيين،

وبدأ نفوذ بني مرين يتعاظم فهزموا جيوش الموحّدين فعظمت منزلتهم لدى أهل المغرب. وقضى أخيراً بنو مرين على آخر خلفاء الموحّدين «الواثق أبي دبوس» السنة ١٢٦٩م، ودخلوا مراكش ووضعوا نهاية لدولة الموحّدين في المغرب الأقصى.

وهكذا طبّقت نظريّة نشوء وصعود الأمم وهبوطها أيضاً على دولة الموحّدين بعد أن كانت قد طبقت قبلاً على دولة المرابطين، وأعاد التاريخ نفسه في نفس الجغرافيا، جغرافية شمال أفريقيا والأندلس. فالروح التي أقامت الدعوة الموحّدية وأسست دولة الموحّدين أصابها الخمول والتراجع والاندثار بغياب المؤسسين الأوائل وتراجع الروح العسكرية والجهاديّة، فقامت دولة أخرى، أو دول أخرى، ليعود التاريخ إلى الدوران مرّة جديدة.

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٥، ١٩ جزء.
- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ١٤ جزء.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤ أجزاء.
- المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٣.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ٦ أجزاء.
- الإدريسي، محمد بن عبد الوهاب، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١٨٩٣.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفِرَق، القاهرة، ١٩١٠.
- ابن كثير، أبو الفداء حافظ، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ١٥ جزء.
- ابن القوطية، أبو بكر محمد ابن عمر القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله طباع، دار النشر للجامعيين، بيروت.
- ابن قتيبة أو محمد عبد الله مسلم الدينوري، الإمامة والسياسة، القاهرة.
- ابن عذارى، أبو عبد الله محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان – ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، القاهرة، ١٩٠٦.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن به عبد الله القرشي، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني، الإحاطَة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٦.
- أعْمال الإعلام، فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦.
- ابن حيّان أبو مروان بن خلف القرطبي، المقتبس في تاريخ الأندلس، باريس، ١٩٣٧.
- ابن حزم أبو محمد على بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢.
- ابن تغرى بردي جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ١١ جزء.
- البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧.
- أبو بكر المالكي، رياض النفوس.
- عبد الرحمن بن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس.
- النويري، نهاية الإرْب في فنون الأدب.
- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، جزءان.

ثانياً - المراجع:

- الدكتور صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.
- الدكتور محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، كلية الآداب جامعة دمشق، ١٩٦٩.
- بطرس البستاني، معارك العرب في الأندلس، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٨٧.
- الدكتور أحمد بدر:
١- الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، دمشق ١٩٧٢.
٢- تاريخ الأندلس - عصر الخلافة، دمشق ١٩٧٤.
- الدكتور عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار المعارف، بيروت، ١٩٦٢.
- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. عبد العزيز سالم، القاهرة، ١٩٥٨.
- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٣.

- ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، دار نوفل، بيروت ١٩٩٧.

د. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، الدولة العربية في إسبانيا، من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية.

- يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤١.

- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

- عبد الله العروي، تاريخ المغرب، ترجمة د. ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩٧.

- عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار المعارف، بيروت، ١٩٦٤.

- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس.

- د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ٧١١-١٠٣١، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦.

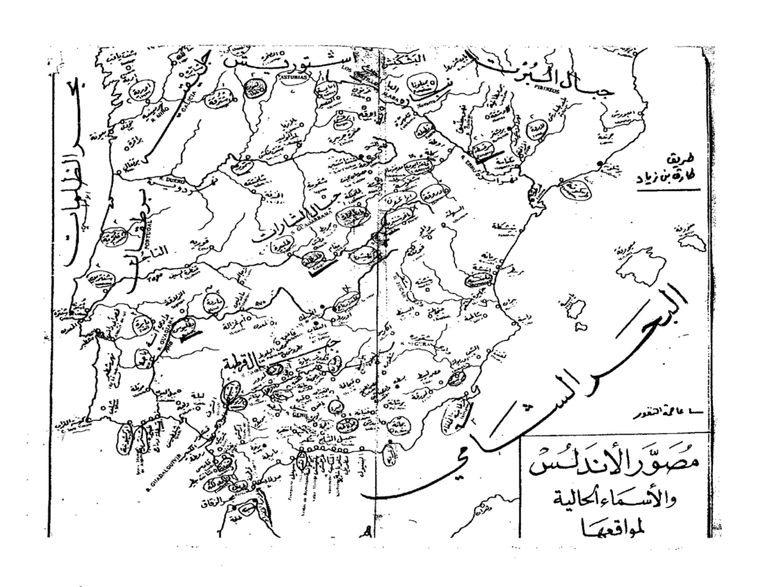
- د. عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جزء أول، ١٩٧١، جزء ثاني، ١٩٧٢، دار النهضة العربية، بيروت.

- الميرالاي إسماعيل سرهند، تاريخ دول المغرب، تقديم ومراجعة الدكتور حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٨.

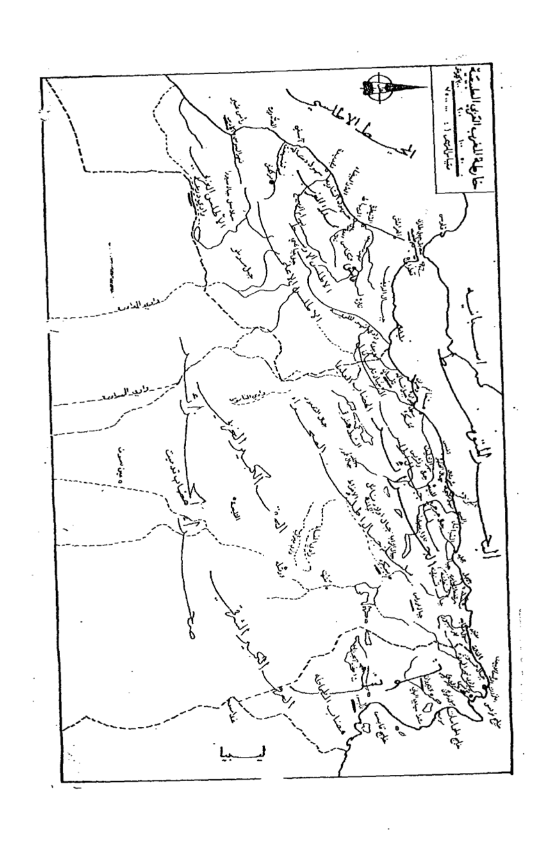
DOZY, Histoire des Musulmans D'Espagne, 3 VOL, Ed, Lévi Provinçale, 1932.

ANDRE Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, Tome 1, des origines à la conquète arabes, Paris, Payot, 1968,Tome 11, de la conquète à 1830, Paris, Payot, 1969.

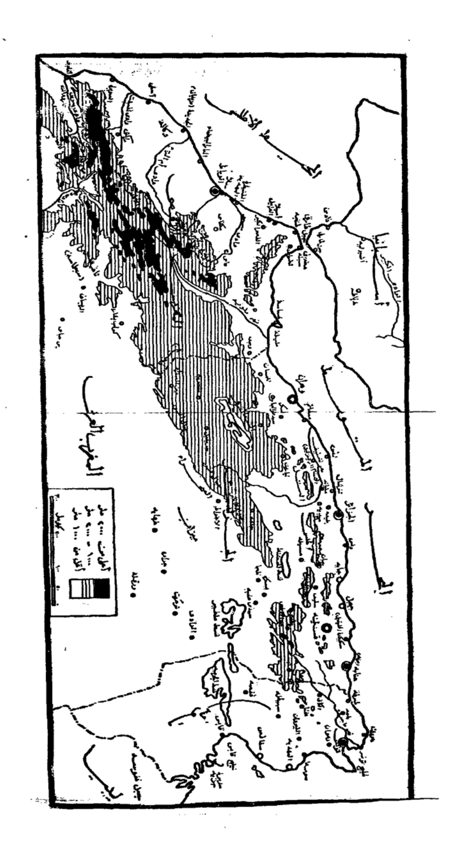
خريطة عامة للاندلس



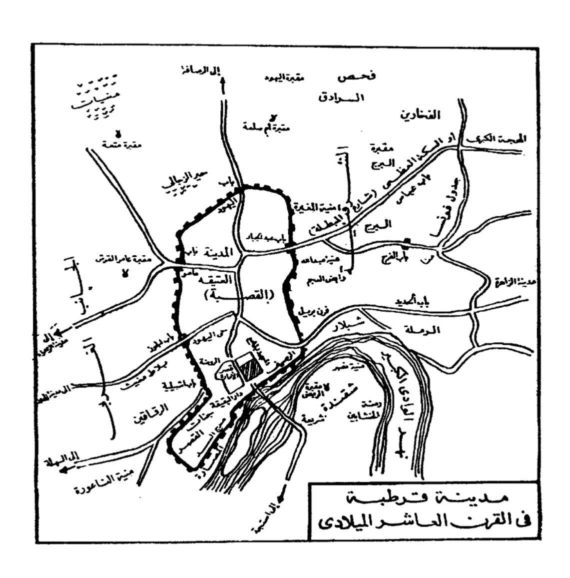
الخريطة العامة للمغرب



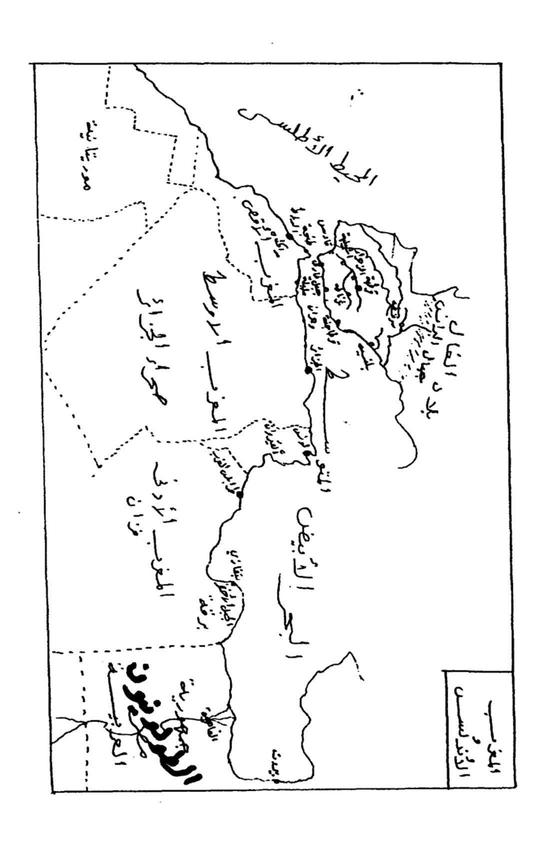
المغرب العربي



مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي



المغرب والاندلس



فهرس الجزء السابع

الخرائط:


Bibliotheca Alexandrina
0587023